

الكتاب: مقارنة الأديان ، اليهودية
المؤلف: الدكتور أحمد الشلبي
الجزء:
الوفاء: معاصر
المجموعة: مصادر عقائد أهل الكتاب وردودها
تحقيق:
الطبعة: الثالثة
سنة الطبع: ١٩٧٣ م
المطبعة:
الناشر: مكتبة النهضة المصرية - القاهرة
ردمك:
ملاحظات: مقارنة الأديان

مقارنة الأديان ١

اليهودية

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ التاريخ الإسلامي - والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة (١٩٧٣) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة

مقدم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى ١٩٦٦
الطبعة الثانية ١٩٦٧
الطبعة الثالثة ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

(٣)

تقديم

يا رب... إنه من أجمل ساعات العمر أن يصل الإنسان إلى الغاية التي ينشدها، وأنا بعونك قد وصلت في ميدان هذه الدراسة إلى الغاية التي رجوتها.
يا رب... لقد دخلت ميدان مقارنة الأديان بين الأمل وبين الخوف، ثم تغلب الأمل على الخوف، ثم أصبح الأمل حقيقة، فأخرجت أجزاء هذه السلسلة على نحو ما أردت أو أحسن مما أردت، وأحس الآن - في نشوة وتواضع - أنني قدمت لديني ولوطني شيئاً أعتز به، فإن هذه الدراسة عن مقارنة الأديان هي الأولى من نوعها في المكتبة العربية.
يا رب... أشكرك شكر من يعرف حقلك، ويعترف بأن نجاحه كان منك، وأن هدايتك هي التي ألهمتني التوفيق، وسكبت الضوء أمامي.

المنهج - المراجع - الحيرة:

ودراسة مقارنة الأديان لها طريقتان.

١ - الطريق الأول أن تكون المباحث الكبرى بالأديان هي عناوين الكتب، كأن نكتب كتاباً عن (الله)، وندرس به مختلف الاتجاهات عن الإله، ونكتب كتاباً آخر عن (النبوة)، وثالثاً عن (التشريع)، وهكذا... وقد سار على ذلك المنوال بعض الباحثين مثل الأستاذ العقاد في كتابه (الله). ومثل Max Mullet (ماكس ملار) في كتابه (أبحاث في الأسطورة الدينية المقارنة).

ولكن يؤخذ عن هذه الطريقة بعض ما أخذ أهمها:

أولاً: أن مباحث الأديان ليست متشابهة، فمثلاً:

- تاريخ اليهودية له أثر كبير في عقيدتهم، ومن ثم وجب أن يكون

مبحثنا هاما عند دراسة (اليهودية)، ولكن التاريخ الإسلامي ليس ذا أثر في العقيدة الإسلامية، ومن ثم فليس ضروريا أن يكون ضمن مباحث كتاب عن (الإسلام).

- لم يتكلم بوذا عن الإله، لكن محمد تكلم عنه وأفاض:
- في البوذية موضوع النرفانا، وفي الجينية موضوع النجاة، وليس في الأديان السماوية ما يماثل هذه المباحث.
- في أديان الهند موضوع التناسخ، وليست كذلك الأديان السماوية،
- يهتم الإسلام بالتشريع، ولا تهتم المسيحية به، وهكذا...
- وإذا لم تتشابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة:
- ثانيا - دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو لا تعطى فكرة متكاملة عن كل دين، إذ سترد مباحث كل دين متناثرة هنا وهناك.
- ثالثا - المباحث التي توجد في دين واحد من الأديان سيكون موضوعها قلقا في هذه الدراسة، إذ لا توجد مقارنة بين الأديان عنها.
- على أن دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو ينبغي أن تجيء بعد دراسة الأديان نفسها، فإن طبيعة المقارنة أن تتأخر عن استيعاب الأصل، ففي الأدب المقارن يلزم أن ندرس الآداب المختلفة ثم نقارن بينها، وفي الفقه المقارن يلزم أن ندرس التشريعات المختلفة ثم نقارن بينها، وفي مقارنة الأديان يلزم أن ندرس الأديان ثم نعقد المقارنة بين مباحثها.
- ٢ - الطريق الثاني هو أن يخصص كتاب لكل دين، تدرس فيه مباحثة العقائدية والتشريعية المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال، وهذا الطريق هو الذي يسير عليه أغلب الكتاب، وهو ما اتبعناه في هذه الدراسة، وبه نتحاشى المآخذ التي سبق أن أوردنا على الطريق الأول،

ويمكن القول إنه - بسبب هذه المآخذ - لم يسر أحد إلى آخر الشوط في دراسة مقارنة الأديان متبعا الطريق الأول. وقد بدأت دراستي في مقارنة الأديان حوالي منتصف هذا القرن، فوجدتها دراسة شاقة، كثيرة المراجع، متشعبة الاتجاهات، ولو أخذنا الإسلام مثلا لكلامنا، واستعرضنا ما كتب عنه لهالنا الموقف، لقد كتب عنه اليهود والمسيحيون والمسلمون، وتختلف وجهات النظر اختلافا كبيرا بين هذه الطوائف، بل إن ما كتبه المسيحيون يختلف من كاتب إلى كاتب، أما ما كتبه اليهود أو أكثره فهو سلسلة من الأكاذيب والاتهامات والعدوان.

وسرت في مقارنة الأديان على الرغم من هذه الصعوبات واتخذت الصبر وسيلتي، ورحت في بحث علمي لم تتدخل العاطفة فيه، أقرأ، وأستوعب، وأناقش، وأقارن، وأخطط، وأعرض، حتى استطعت بعد اثنتي عشرة سنة من الكدح والعمل الدائب، أن أخرج الجزء الثاني عن (المسيحية) فالجزء الثالث عن (الإسلام) (١) فالجزء الرابع عن (أديان الهند الكبرى: الهندوسية، والجينية، والبوذية) (٢) وتأخر إخراج الجزء الأول عن (اليهودية) إلى الآن (أخريات سنة ١٩٦٥) وكان عجيبا أن ينشر الجزء الثاني والثالث والرابع قبل الأول، ولكن النظرة الفاحصة تدرك مدى الصعوبة التي يلاقيها باحث منصف عن اليهودية، فاليهود كتبوا عن دينهم وتاريخهم أعدادا ضخمة من المراجع والكتب، صوروا فيها تاريخهم بأنه تاريخ البشرية، وحضارتهم بأنها منبع الحضارات، وعقيدتهم بأنها أسمى العقائد، وهاجموا

(١) أعيد طبع المسيحية والإسلام عدة مرات بعد ذلك.

(٢) أعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات.

تاريخ سواهم، وأديان سواهم، وشوهوا صور أبطال العالم غير اليهود. وكان لا بد أن نحق الحق بين هذه الموجة الصاخبة من المراجع، لنأخذ منها الرأي المنصف، والفكرة العادلة، دون تأثر بميل أو هوى. وبجانب مشكلة المراجع والأفكار كانت هناك مشكلة العداء بيننا وبين اليهود، وهي مشكلة عصبية بالنسبة للبحث العلمي، ومن الواضح أن اليهود يحاربوننا بكل سلاح، وأن سلاح القلم والفكر من أقوى أسلحتهم، ولكنني حاولت ألا أنزل هذا الميدان في مجال البحث العلمي، وكان على أن أبحث عن الحقيقة، وأن أبقى مع الحيطة التامة دون تأثر بأية عوامل، لأقدم لقرائي أدق الحقائق من أصدق المراجع، فالبحث العلمي أمانة، أمانة في محراب الجامعة، وأمانة في محيط القراءة، ومن الممكن أن يتكلم الإنسان من زاوية أو أخرى، ولكنه عندما يكتب يترك هذه الزاوية ويدع تلك، ويبحث عن الحق أنى يكون. وهذا الموضوع يقودني إلى كلمة صريحة لا أجد مناصا من الإشارة إليها، هي أنه في مجال الخلاف والعداء بيننا وبين اليهود، وفي أعقاب نكبة فلسطين، كتب العرب عشرات الكتب أو مئات الكتب عن القضية وعن فلسطين، واضطرت لقراءتها جميعا وأنا أعد هذا الكتاب، ولكن كثيرا منها كان قليل الجدوى، كان فيضا من السباب والشتائم لا تعطي فكرة، ولا تحقق هدفا، حتى وجدته أحيانا أقول: هل يتحتم على كل الناس أن يكونوا مؤلفين؟ إنني أدرك أن استعادة فلسطين لا بد أن تمر بعدة مراحل، وأن المرحلة الأولى هي مرحلة الكلمة المقولة والكلمة المكتوبة، ولكن هذه المرحلة لا بد أن تكون أكثر خصوبة حتى تقود للغاية التي ترمى إليها، ولندرس

تجربة اليهود في هذا المجال، فقد كانوا يعتقدون أن فلسطين وطنهم، وكانوا يعملون للعودة إلى هذا الوطن، ومروا بالمراحل التي تمر نحن بها الآن، فكتبوا عن فلسطين كتباً ومقالات وأبحاثاً، ولكن دونها المتخصصون والأساتذة وكبار الباحثين بمختلف اللغات، حتى أوهموا الكثيرين بأن الحق في جانبهم (١). فإذا أدركنا نحن أن نكتب أو نتكلم، وهذا واجبنا الآن، فلتكن كتاباتنا وكلامنا في المستوى الذي يليق بهذه القضية.

ومن المفارخ التي أشعر بها وأحمد الله عليها أن كتبي في مقارنة الأديان اعتمدت على المراجع الرئيسية، فقد درست عقائد هذه الديانات وعرضت أفكارها من مراجعها، وكان هذا سبيلي في كل هذه الكتب، كانت الكتب المقدسة الهندية وما كتبه الهنود يمثل أهم مراجعي وأنا أبحث أديان الهند، وكان العهد الجديد وما كتبه المسيحيون أبرز ما اعتمدت عليه وأنا أكتب المسيحية، وكان القرآن الكريم وأحاديث الرسول وكتابات المسلمين مصادري التي اغترفت منها ما صورت به الإسلام، وهنا مع اليهودية كانت التوراة والأسفار، والتلمود، وبروتوكولات حكماء صهيون، وما دونه مشاهير اليهود، أهم مصادري التي سيقابلها القارئ من حين إلى حين، ومن أهم ما تلزم الإشارة إليه هنا في هذا العرض المراجع التالية:

أسفار العهد القديم.

التلمود.

بروتوكولات حكماء صهيون.

(١) ليس الغربيون فقط هم الذين خدعهم ما كتبه اليهود، بل إن كثيرين من العرب والمسلمين خدعوا أيضاً، وطالما سألتني طلابي: أليست فلسطين وطن اليهود؟ أليس من حقهم أن يعودوا لوطنهم؟ وفي الصفحات الآتية إيضاح لزيغ هذه الأسطورة.

The Jewish Encyclepaedia
judaism: Artbur Hertzberg
The Jewish World in the Time of Jesus: Guignebert. Ch
The Jews: Hosmer. j
A History of the Hebrew People: Charles Fester Kent
A History of the Jewish People: Margelis and Marx
From the Babylon to Bethlehem: Laurance Browne
God and Man in Early Israel: smith. D. W. J
Civilization of the Near East: Wesch. H. E
Religions of the World: Berry
The Religious Revolution of to day: shotwell. J
History of Religions: Reinach
Evelution of the idea of God: Allen. G وسواها من المرجع التي

سيقابلها القارئ من وقت لآخر مشفوعة بأرائي
فقد كنت دائما هناك، أخطط، وأمهد، وأعرض، وأعلق، على نحو ما يلزم
في البحث العلمي.

وبمناسبة الحديث عن المراجع أقرر أن أكثر الذين كتبوا عن الأديان
هم من اليهود أو من تلاميذهم، فالمدرسة اليهودية عن الأديان سبقت كل
المدارس تقريبا وأقرت فيها، وقد أدى ذلك إلى كثير من الاضطراب
العلمي، فاليهود استخدموا كل وسائلهم وكل مواهبهم لا ليخدموا الحق بل
ليحققوا أهدافهم، فتركوا الناس تراثا حافلا بالانحراف، يحتاج تصحيحه
وتحقيقه إلى جهد كبير، أرجو أن يكون هذا البحث لبنة من لبناته
أضيفها إلى لبنات الزملاء والباحثين الذين يشيدون صرح الحق ويدمرون
بناء الباطل.

وعن الصراع بيننا وبين اليهود حول فلسطين أحب أن أقول إنه على هذه البقعة نفسها زحف الصليبيون يوما، واحتلوها، وبدأت الجهود الإسلامية العربية تعمل لطرد المحتل، وكان من أقوى الوسائل للنجاح تلك الوحدة التي جمعت العرب في إطار واحد وقوة واحدة، بقيادة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومن جاء بعدهما، وقد طوقت هذه القوة الأرض المحتلة وزحفت على العدو فقضت عليه، ويوم تعود الوحدة العربية التي هي أنشودة العرب جميعا، سيكون من الممكن أن تضرب اليهود ضربة قاصمة كتلك التي أنزلها صلاح الدين بالصليبيين في حطين.
هل نخاف تدخل دول الغرب...؟

ربما قضت أساليب السياسة المعاصرة بذلك، ولكن يجب ألا ننسى أن هذه القوى لم تكن بعيدة عن المعركة إبان عهد صلاح الدين، وقد استطاع بطلنا أن يقف في وجه تحالف ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وفرديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، ولم يستطع هؤلاء أن يكسروا شوكته أو ينالوا منه.

يا رب... هيئ الظروف التي نستطيع بها أن نطهر أرضنا المقدسة مما حل بها من رجس وما نزل بها من داء.

وهناك جهود بذلت من أجل فلسطين ولا تزال الجهود تبذل، وقد اشترك في هذه الجهود، الجهود الأبطال، ورجال السياسة، والكتاب، ورجال الصحافة، والشعراء، وغيرهم، ولا تزال في حاجة إلى جهود وجهود من كل هؤلاء، فالمعركة في حاجة إلى فكر ودماء وأقلام ومال،

وهذا الكتاب وسيلتي في هذا المجال، وهو في الوقت نفسه هديتي لأرواح الشهداء الذين سقطوا أو سيسقطون في هذه المعركة الكريمة.

وليس في النية - الآن - أن أوصل الكتابة عن أديان أخرى، كالزرادشتية والكنفوشية والأديان البدائية وغيرها، لسببين. أولاً - أن الهدف الذي قصدت إليه كان الكتابة عن الأديان السماوية، فهي التي تعيننا أكثر من سواها، ويدور بينها صراع طويل كان لا بد أن نتبع دوافعه، وأن نتبين أهدافه، ثم امتد بنا الحديث إلى البوذية، لأنها دخلت ميدان التنافس في الدعوة والانتشار وبخاصة في الشرق الأقصى، ولم يكن من الممكن أن نتكلم عن البوذية دون الحديث عن أديان الهند، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن أفكارا جملة تسربت عن أديان الهند وأثرت في كثير من أتباع الديانات السماوية، وفي عقائد بعض الديانات وسيوضح ذلك من الدراسة الانية، ومن هنا كانت دراسة أديان الهند ضرورية، ولا يتوافر هذا في الزرادشتية والكنفوشية والأديان البدائية، فهذه الأديان تنكمش الآن ولا تأثير لها يذكر في عقائدنا واتجاهاتنا. ثانياً - أن دراساتي في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية تحتاج إلى جهدي كله في الوقت الحاضر، رجاء أن أكمل أجزاء موسوعة التاريخ التي كان إقبال القراء عليها داعياً إلى مزيد من الجهد ومزيد العناية.

يا رب... هنيئاً بهذا الكتاب النفع، واجعله خالصاً لوجهك الكريم.
المعادي في نوفمبر سنة ١٩٦٥ دكتور أحمد شلبي

في تقديم الطبعة الثانية
لا شئ يمكن أن أقوله في تقديم الطبعة الثانية إلا الشناء على الله والسجود
شكرا له، فهو مانح الهدى والتوفيق، وإلا التوسل إليه أن يمنحنا مزيدا
من القوة ومزيدا من الهداية لتسير على الدرب مع السائرين، نخدم ديننا
الحنيف ووطننا العزيز.
ثم أنثني إلى قرائي فأحييهم وأصافحهم، وأشكر لهم ذلك الاقبال الكريم
الذي ضاعف مسئوليتي تجاههم، فأخذت أحاول دائما أن أجعل عمل اليوم
يفوق عمل الأمس، وعمل الغد يفوق عمل اليوم.
وسأظل ما وسعتني الحيلة أضع عقلي وقلبي وقلمي في خدمة أهدافنا
المشتركة التي يكدها الكاتب، ويحسن تقبلها القارئ.
والله ولي التوفيق
في منتصف مايو سنة ١٩٦٧
المؤلف

في تقديم الطبعة الثالثة
تحمل الكلمات السابقة نفس المعاني التي تدور بخلدي نحو شكر الله على
نعمه وعظيم فضله، وشكر القارئ على إقباله وتشجيعه، والوعد بالمنابرة والجد
ليكون العمل في تحسن مستمر.
وفي هذه الطبعة زيادات ذات بال وتحسينات مهمة يسعدني أن أقدمها
للقارئ الكريم راجيا أن يجد فيها ما يكمل إقباله على التعرف على الأديان
والمقارنة بينها. والله ولي التوفيق
في الثامن من سبتمبر سنة ١٩٧٢
المؤلف

علم مقارنة الأديان: نشأته وتطوره:

من مفاخر المسلمين أنهم هم الذين ابتكروا علم مقارنة الأديان، وسنرى أن مفكري الغرب يعترفون بذلك، ومن الطبيعي أن هذا العلم لم يظهر قبل الإسلام، لأن الأديان قبل الإسلام لم يعترف أي منها بالأديان الأخرى، وكان كل دين يعد ما سواه من الأديان والأفكار هرطقة وضلالا، وحسبك أن تذكر موقف اليهودية من المسيحية ومن المسيح، وبالتالي موقف المسيحية من اليهودية واليهود، فاليهودية لم تعترف بالمسيحية ولا بالمسيح واعتبر المسيح ثائرا استحق عندهم الحكم بالاعدام، والمسيحية اعتبرت نفسها وريثة اليهودية ولم تر مع وجودها لليهودية وجودا. ومثل ذلك موقف الهندوسية من البوذية والبوذية من الهندوسية، ومثله موقف المسيحية من الإسلام بالأندلس. بل وصل الأمر إلى أكثر من ذلك، إذ أنكرت كل طائفة مسيحية جميع الطوائف الأخرى وعدت اتجاهاتها هرطقة وضلالا، وربما حكمت كل منها بالاعدام على أتباع سواها، وحسبك أن تذكر مذبحة باريس التي حدثت في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ حيث سطا الكاثوليك على ضيوفهم البروتستانت فذبحهم وهم نيام، وأصبحت باريس وشوارعها تجري بدماء الضحايا، وراح البابا يهنئ ملك فرنسا بهذا التصرف. وهذا الاتجاه كان هو الاتجاه العام بين الأديان وبين المذهب. ومن هنا لم يوجد علم مقارنة الأديان، لأن المقارنة نتيجة للتعدد وليس التعدد معترفا به عند أحد. وجاء الإسلام، وكان موقفه بالنسبة للأديان الأخرى ينضوي تحت اتجاهين، الناحية النظرية، والناحية الواقعية: فمن الناحية النظرية يعلن الإسلام أنه الحلقة الأخيرة في سلسلة الأديان،

وأنة بالتالي ورث أهم ما في الأديان السابقة وأضاف إلى ذلك ما تحتاجه البشرية في مسيرتها إلى يوم الدين، قال تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى (١)) وبذلك يصبح الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا دين سواه. قال تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام) (٢). وقال (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) (٣) ويجمع المفكرون المسلمون على أن كل رسول يجيء برسالة تناسب زمانه وتحقق أغراضها في ذلك الزمان، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق مع الأديان السابقة في أصل الوجدانية الكبير ويختلف في فروعه تبعاً لحاجات الناس، وهذا هو موقف الإسلام بالنسبة للأديان السابقة وبالنسبة لحاضر البشرية ومستقبلها، ويتجه المفكرون المسلمون في تفسير قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد) (٤) يتجهون إلى أن الكفر بأي دين من الأديان التي نزلت بها الكتب المشار إليها ضلال يستحق مرتكبه العذاب الشديد (٥).

وإذا كان هذا موقف الإسلام بالنسبة للأديان الأخرى من الناحية النظرية فإنه من الناحية الواقعية يعترف بالوجود الفعلي لجماعات غير مسلمة، ويتحدث

-
- (١) سورة الشورى الآية ١٣.
 - (٢) سورة آل عمران الآية ١٩.
 - (٣) سورة آل عمران الآية ٨٥.
 - (٤) سورة آل عمران الآيات ١ - ٤.
 - (٥) في ظلال القرآن ج ٣ ص ٥٣ - ٥٤.

عن أهل الكتاب وأهل الذمة، وبنظم حقوقهم وواجباتهم، وفي ضوء هذا وجد علم مقارنة الأديان، بل إن القرآن الكريم يضع جذور هذا العلم عندما يقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) (١) فالمجادلة بالحسنى هي مفهوم هذا العلم.

وعلى هذا ظهر الباحثون المسلمون في هذا العلم وكتبوا فيه منذ وقت مبكر. وعندما التقى المسلمون بالمسيحيين في الأندلس وصقلية والشام حصل تبادل للأفكار، وكان علم مقارنة الأديان من الموضوعات التي تم التبادل فيها، تخلى المسيحيون عن اتجاههم في عدم اللجوء لهذا العلم، فأخذوا يهتمون بمقارنة الأديان كوسيلة للتعريف بالمسيحية وللنيل من الإسلام، واقتبس المسلمون - للأسف - اتجاه المسيحيين وهو التعصب فتخلوا عن علم مقارنة الأديان باعتبار أنه ليس هناك دين يقارن مع الإسلام، وعبر الأزهر عمره الطويل وعبرت الكليات الإسلامية أعمارها دون أن يكون علم مقارنة الأديان في المناهج الدراسية، ولم يتدارك المسلمون هذا النقص إلا منذ عهد قريب.

وينسب آدم متز نشأة هذا العلم للمسلمين، ويعدد المصادر الأولى التي كتبها المسلمون فيه فيقول (٢):

إن تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى ذلك التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى، كان سببا في أن يلحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى وهو علم مقارنة الأديان، ويقرر كذلك أن نشأة هذا العلم لم تكن من جانب المتكلمين، ومعنى ذلك أن هذا

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٦.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣٦٦.

العلم لم يكن وسيلة عند المسلمين للحظ من الأديان الأخرى، وإنما كان دراسة وصفية علمية تؤدي إلى نتائجها الطبيعية.

ويعتبر النوبختي (٢٠٢ هـ) مؤلفا لأول كتاب في هذا المجال، فقد كتب كتابا عن الآراء والديانات) وكتب المسعودي (٣٤٦ هـ) كتابين عن (الديانات) ثم جاء المسيحي (٤٢٠) فكتب كتابه (درك البغية في وصف الأديان والعبادات) وهو كتاب مطول يقع في حوالي ثلاثة آلاف ورقة، وكثر بعد ذلك التأليف في هذا المجال، ومن أبرز الكتب التي كتبت عن الملل والنحل واتخذت هذه التسمية عنوانا لها كتاب (الملل والنحل) لأبي منصور البغدادي (٤٢٩) وكتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسي (٤٥٦) وكتاب (الملل والنحل) للشهرستاني (٥٤٨) وهناك كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) لأبي الريحان البيروني، وهو كما ينبئ اسمه خاص بأديان الهند وليس شاملا للأديان والعقائد المختلفة كالكتب السابقة.

وكانت كتابات المسلمين في هذا المجال وصفية علمية لا تعصب فيها، فلما جاءت الحروب الصليبية بأهوالها أدرك المسلمون أن أتباع الديانات الأخرى لا يتحلون بالتسامح الديني، فخفت صوت علم مقارنة الأديان، بيد أن إخفاق الصليبيين في السيطرة على المسلمين بالوسائل العسكرية جعلهم يلجأون إلى الوسائل السلمية وفي مقدمتها التبشير الذي يستلزم معرفة شيء عن الإسلام والدراسات الإسلامية.

وقبل عصر الاستعمار قرر الخبراء من المبشرين أن الإنسان بنزعة دينية في أعماقه مهما كان ماديا أو تظاهر بالادينية، كما قرروا أن رباط الدين لا يقل عن الدم والجنس، ثم إن معرفة الداعي بين المدعو واعتقاده يساعد

كثيرا في التأثير عليه، وبناء على هذه الأسس نشط من جديد هذا العلم ليكون من وسائل التبشير ونشر المسيحية، ولكن المسلمين كانوا قد وصلوا إلى يقظتهم الحديثة، واستعادة نشاطهم في هذا المجال، وساعدهم ما في الإسلام من سهولة ويسر، فراحوا يدرسون هذا العلم ويطبّقون قوانينه وهم يقومون بالدعوة لدينهم. وهكذا عاد علم (مقارنة الأديان) للظهور في معاهد العلم الإسلامية، ولكنه في الحق لم يأخذ بعد مكانه اللائق، ونرجو أن يتجه إليه مزيد من الاهتمام، ليلعب هذا العلم دورة في التعريف بالإسلام ورد العدوان عنه، وليكشف عن أنواع الزيف التي أُلصقها المغرضون بكثير من الأديان، ويوم ينشط هذا العلم ستخبو ترهات الباطل، وتتضح معالم الحق، وليس هذا اليوم بالبعيد
* * *

والآن - بعد هذه المقدمات - هيا بنا لنبدأ حديثنا عن اليهودية:

الباب الأول
اليهود في التاريخ

المنطقة وسكانها

المنطقة التي ستدور حولها دراستنا تقع على ضفتي نهر الأردن، إلى الجنوب من البحر الميت وتمتد جنوبا حتى قمة خليج العقبة، وينبغي أن نتعرف على طبيعة هذه المنطقة، ومن هم سكانها في تلك العصور السحيقة التي ستبدأ عندها أبحاثنا، وينبغي كذلك أن يمتد بحثنا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى نكون صورة واضحة عن فلسطين، وعن الدول المحيطة بها والتي كان لها أثر فيها، وستفيدنا هذه الدراسات طوال هذا البحث، فتمدنا بعناصر خطيرة تشرح لنا كثيرا من الظواهر ذات الأثر الفعال في مجريات الأمور:

وهذه المنطقة أشبه بشرط ضيق ينتهي من جهة الجنوب بمثلث، رأسه إلى الجنوب وقاعدته إلى الشمال، ويلتقي رأسه بطرف خليج العقبة، وتمتد قاعدته من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط. ومساحة هذه المنطقة ليست واسعة، فهي حوالي ٢٧ ألف كيلومتر مربع، أي أقل من ثلث مساحة سيناء، فمساحة سيناء حوالي ٨٢ ألف كيلومتر.

وهذه المنطقة ليست غزيرة الغني، وتتركز الثروة بها في المعادن الراسبة بقاع البحر الميت، وأهمها كلورات البوتاسيوم وكلورات الصوديوم وكلورات المغنسيوم، أما الثروة الزراعية فتشمل البرتقال بالسهل الساحلي، والحبوب بمرج ابن عامر ووادي الأردن، والزيتون بالمنطقة الجبلية، أما منطقة النقب فترتبط الزراعة بها حتى كتابة هذه السطور بكمية الأمطار التي تسقط عليها. ومساحة النقب حوالي نصف مساحة المنطقة كلها.

وعلى هذا فأهمية هذه المنطقة ليست لاتساعها ولا لثرائها، ولكن لموقعها الفذ بين مناطق الشرق الأوسط، فهي بالنسبة لخريطة العالم حلقة اتصال بين أوروبا وآسيا وإفريقية، وهي مع صغر مساحتها متصلة بالبحر الأبيض والبحر الأحمر، وعن طريقهما تتصل بالمحيط الأطلسي والمحيط الهندي وبالذول الواقعة عليهما، وهي بالنسبة للعالم العربي تعتبر المنطقة الوحيدة التي تتصل بأكبر عدد من دول العالم العربي، فهي تتصل ببلدان سورية والأردن والسعودية ثم بجمهورية مصر العربية، وهذا ما لا يتوافر لسواها من دول هذه المنطقة، ثم هي حازر أو حلقة اتصال بين الدول العربية بآسيا والدول العربية بإفريقية، ومن هنا كانت عروبة هذه المنطقة وحسن صلتها بجيرانها ضرورة حيوية ما لها من معيد.

وبعد هذا الحديث الموجز عن المنطقة نسير خطوة جديدة لتحدث عن سكانها من أقدم العصور المعروفة، فلنعد إلى الألف الثالث قبل الميلاد لنرى أفواجا من القبائل العربية تهاجر من شبه الجزيرة العربية إلى الشمال تحت ضغط القحط وقسوة الصحراء، ويقول Charles Foster Kent (١) إن الفينيقيين كانوا أسبق هذه الجماعات المهاجرة، وقد وجدوا على شاطئ البحر المتوسط مستقرا لهم فأقاموا به، وكان مقرهم شريطا ساحليا ضيقا يحده البحر من الغرب وتعزله السلاسل الجبلية بالشرق عن باقي المنطقة، ومن هنا اتجه هؤلاء إلى البحر فركبوه واتصلوا عن طريقة بدول كثيرة عن طريق التجارة، وسرعان ما أصبح هؤلاء جنسا شهيرا في سيادته التجارية عبر البحار، ثم امتد نشاطهم فأصبحوا حملة الحضارة بين دول العالم القديم.

وإلى الجنوب من الفينيقيين نزلت قبائل عربية أخرى أشهرها قبائل الكنعانيين حوالي سنة ٢٥٠٠ ق م واستقرت على ضفة الأردن الغربية مناسبة نحو البحر المتوسط وسميت هذه المنطقة باسمهم فأصبحت تدعى (أرض كنعان) وهو الاسم الذي يكثر وروده في التوراة. وحوالي سنة ١٢٠٠ ق م نزلت بالساحل المطل على البحر الأبيض جماعات من جزيرة كريت (اقريطش) وكانت هذه الجماعات أو القبائل تسمى قبائل فلسطين، وقد نزلت بين يافا وغزة، واختلط الكنعانيون بالقبائل الوافدة من كريت، وتم بين هؤلاء وأولئك مزيج غلب عليه الدم العربي واللغة السامية من جانب، والاسم الوافد من كريت من جانب آخر، فأصبحت هذه البلاد تعرف بفلسطين (٢). وفي الشمال الشرف لنهر الأردن كانت تعيش قبائل الآراميين الوافدة من حوض الفرات بعد أن ازدحمت سهول دجلة والفرات بالوافدين من

(١) A History of the Hebrew People P / ٢٩

Lbide (٢)

(٢) ص ٣٠ وغوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٣٦.

الجزيرة العربية. وهذه القبائل هي المعروفة في الكتب المقدسة بالسوريين، وكانت دمشق عاصمتها، وكانت هذه القبائل تعمل في الزراعة، ولكن موقعها دفعها للعمل في التجارة البرية، فإذا كان الفينيقيون قد اشتهروا بركوب البحر متاجرين، فإن السوريين ركبوا البر منافسين لهم في النشاط التجاري، والآراميون كانوا قرييين جدا من الكنعانيين في لغتهم وديانتهم وعنصرهم. وإلى الشرق من نهر الأردن ثم إلى جنوب البحر الميت تقع الممالك الثلاثة عمون ومؤاب وإدوم، وسكانها ينحدرون - كالآراميين - من سهل

الفرات وتربطهم بهم روابط نسب، كما أن روابط جملة تشمل اللغة والعادات والأفكار الدينية كانت تربط هذه الممالك بعضها ببعض. وكانت لغتها لهجة من الكنعانية، وتعتبر مؤاب أكثرها حضارة إذ كانت أسرعها في التحول من نظام البدو إلى عالم الحضرة، ويبدو أن أن خصب موقعها ساعد على سرعة التحول فاستقرت واشتغلت بالزراعة وبنيت المدن العظيمة. أما مملكة إدوم فكانت تمتد إلى خليج العقبة، وأهم ما كانت تشغل به هو رعي الأنعام في السهول الفسيحة التي تتبعها، ومن أجل هذا كانت أقل الممالك الثلاثة حضارة ومدنية، وكانت عمون - في الشمال من مؤاب - تعمل في الزراعة والرعي جميعا، فبعض بطونها استقر وبنى المدن واشتغل بالزراعة، والبعض الآخر ظل يتجول ويرعى الغنم والماشية، وهي لهذا تعد من جهة المدنية وسطا بين مؤاب التي اتجهت للاستقرار والزراعة، وبين إدوم التي ظلت تعيش عيشة البادية (١).

المناطق المحيطة:

المناطق السابقة هي المناطق ذات الصلة الوثيقة بدراستنا عن اليهود، وبقي علينا بعد ذلك أن نتكلم كلمة عن الدول المحيطة بهذه المناطق، ونعني بها مدين في الجنوب الشرقي، ومصر في الجنوب الغربي، وبابل وأشور في الشمال والشمال الشرقي، وطبيعي أن اليهود عرفوا هذه الدول واتصلوا بها مسالمين حيناً ومحاربين حيناً، وتأثروا كثيرا بأفكار السكان ومعتقداتهم، فتعرفنا على هذه الدول هنا يعد أساسا من أسس هذه الدراسة.

(١). ٣٢ - A History of the Hebrew People : ٣١ Charles Foster Kent

تقع مدين في الشمال من شبه الجزيرة العربية، وكانت لها صلة وثيقة بالجزيرة العربية وبمصر وأرض كنعان، وسرى أن موسى لجأ إليها عقب هربه من مصر، وتعتبر مدين معبرا بين الصحراء العربية وبين فلسطين وما حولها.

على أن مصر وبابل كانتا أكثر تأثيرا في أرض كنعان فإن أرض كنعان وقعت بين هاتين الدولتين الكبيرتين اللتين ازدهرت فيهما أرقى حضارة في العصور القديمة، وكانت هناك حروب ومنافسات لا تنقطع بين هاتين الدولتين، وكانت أرض كنعان ميدانا لهذه الحروب كما كانت تتأثر بنتائجها، فالغالب منهما يسيطر على أرض كنعان وتكون له السيادة

على سكانها، ولذلك يقول ول ديورانت (١): إن موقع فلسطين جاءها بالغنى والحرب.
وتدل الآثار البابلية على أن بابل كان لها السلطان على أرض كنعان في الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت حضارة الكنعانيين شديدة التأثير بحضارة بابل، وساعد على تقدم بابل تغلب الرعاة الهكسوس على مصر، وهؤلاء الرعاة ينحدرون من أصل عربي وقد اجتاحوا أرض مصر مدفوعين بالقحط الذي كان قد أصاب الجزيرة العربية وسوريا، وقد انتهز الهكسوس فرصة انحلال الأسرة الثالثة عشرة الفرعونية فاستولوا على السلطة بمصر، وكونوا لهم أربع أسر من الأسر القديمة التي حكمت مصر، واستمر حكمهم من حوالي سنة ٢٠٩٨ إلى سنة ١٥٨٧ ق م، وكانت هذه الفترة فترة نضال بين الهكسوس الذين سلبوا السلطة وبين أمراء طيبة المصريين الذين يصارعون لاستعادة سلطانهم وطرد المعتدين، وقد تمكن البطل أحمس في النهاية من النصر، فطرد الهكسوس وأسس الأسرة الثامنة عشرة المصرية، ومن أشهر الملوك المصريين الذين أكملوا انتصارات أحمس الملك تحتمس الثاني الفاتح العظيم. الذي دانت له فلسطين وامتد سلطانه لسوريا، فتواري أمامه سلطان بابل في تلك البقاع، كما خضع له الحيثيون بالشمال (٢). وسرى أنه في عهد الهكسوس عاش اليهود بمصر، فلما سيطر الحكم الوطني بها اضطرب موقف اليهود ولذلك يرى Maspero أن سيطرة الساميين على مصر أتاحت لليهود بعض الحماية (٣).

(١) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٢١.

(٢) .A History of the Hebrew People P: Charles Foster Kent .٢٦ - ٢٨ .

(٣) .Struggle of the Nations vol .٤ p .٧٠ .

تحركات العبريين
ونجى الآن إلى العبريين أو العبرانيين لنسير معهم خطوة خطوة،
ولكن ينبغي لنا في مطلع هذا البحث أن نقف وقفة لتساءل:
ما معنى كلمة عبري؟

في الإجابة عن هذا السؤال نقرر أن العلماء لا يتفقون على معنى هذه
الكلمة وإن اتفقوا جميعاً على مدلولها، فالعبري هو المنحدر من ذرية إبراهيم،
ولكن لماذا سمي عبرياً أو عبرانياً؟ يرى بعض الباحثين أن إبراهيم سمي عبرياً
لأنه عبر النهر، ويحتمل أن يكون النهر المقصود هو نهر الفرات كما يحتمل
أن يكون نهر الأردن (١).

ويروي الدكتور إسرائيل ولفنسون رأياً آخر هو احتمال أن يكون
إبراهيم منسوباً إلى جد من أجداده الأقدمين يعرف باسم (عبر)، ولكن
الدكتور ولفنسون لا يرضى بهذا الرأي، ولا بالرأي الذي قبله، ويرى
أن كلمة عبري لا ترجع إلى حادثة يعينها أو شخص بعينه، وإنما ترجع إلى
الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من
الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى
بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى، وكلمة عبري في الأصل مشتقة من
الفعل الثلاثي عبر بمعنى قطع مرحلة من الطريق أو عبر الوادي أو النهر من
عبرة إلى عبره، أو عبر السبيل: شقها، وكل هذه المعاني موجودة في هذا
الفعل سواء في العربية أو العبرية، وهي في مجملها تدل على التحول والتنقل
الذي هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء وأهل البادية، فكلمة
عبري مثل كلمة بدوي أي ساكن الصحراء أو البادية وقد كان الكنعانيون

(١) سليمان مظهر: قصة العقائد ص ٢٨٤.

والمصريون والفلسطينيون يسمون بني إسرائيل بالعبريين لعلاقتهم بالصحراء، ولميزوهم عن أهل العمران، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدنية والاستقرار صاروا ينفرون من كلمة عبري التي كانت تذكرهم بحياتهم الأولى حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا ببني إسرائيل فقط (١).

والعبريون ينحدرون من العرق السامي الذي ينتسب له الآشوريون والعرب، وكانت بلاد العرب الوسطى والشمالية مهد الساميين، وقد هاجر فريق منهم إلى الشمال في بلاد بابل حيث كان السلطة لحضارة السومريين والأكاديين، فأقاموا بها من الزمن ما أشبعوا فيه من تلك الحضارة، ثم كثر عددهم فهاجروا من جديد في أدوار مختلفة، فتقدموا نحو الشمال أكثر مما تقدموا قبل ذلك، وانحدر بعضهم نحو الجنوب، والساميون الذين بقوا في بلاد العرب هم أجداد الشعب العربي، والساميون الذين مروا من موطن الحضارة في الفرات الأدنى ثم انتشروا في جميع آسيا وفلسطين هم الآشوريون والإسرائيليون. (٢).

ويرى Smith. D. W. J (٣) أن العرب في العصر الحديث هم الذين يمثلون ملامح الساميين القدماء الجسمانية، أما اليهود فإن صلاتهم مع الحيثيين بآسيا الصغرى، وتبادل الزواج معهم قد أثر فيهم، وأخفى منهم كثيرا من الملامح السامية.

ورئيس الأرومة السامية التي دخلت فلسطين قادمة من العراق هو

(١) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) غوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٢٤ ج ٢٥.

(٣) God and man in Early Israel p. ٥.

إبراهيم الخليل، وهو ابن تارح، وينتهي نسبه إلى نوح، وقد نشأ في أور الكلدانيين، وكان أبوه يزاوّل عمل الأصنام وسخر إبراهيم من عمل أبيه ومن قومه الذين يعبدون ما ينحتون، وناقشهم مناقشة عقلية يرويها القرآن الكريم قال تعالى (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون؟ قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين، قال: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) (١) ثم تحولت السخرية إلى عمل ضد هذه الأصنام، إذ انتهز إبراهيم فرصة وجوده وحده في حانوت أبيه فأمسك فأسا وحطم هذه الأصنام، وجعل منها كومة من الحطام، ولم يدع إلا صنما كبيرا كان أعظمها شكلا وأكبرها حجما، فوضع الفأس في يده، وجلس ليرى، فلما عاد أبوه جن جنونه لما رأى، وصاح بإبراهيم:

أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم؟.

وأجاب إبراهيم في هدوء: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم. قال أبوه في ثورة: كيف نسألهم وهم لا ينطقون: وكيف يعمله كبيرهم وهم لا يتحركون؟.

قال إبراهيم: إذا كيف تعبدون ما تنحتون؟ والله خلقكم وما تعملون وكان ذلك من إبراهيم مطلع ثورة على الفكر والسلطان في بلاد الكلدان، ولم يستطع إبراهيم أن ينشر الحق فهاجر من أور الكلدانيين هربا من شرهم، وهاجرت معه زوجته سارة ولوط ابن أخيه وبعض الأقارب

(١) سورة الشعراء الآيات: ٦٩ - ٧٧.

والخدم، وأخذوا معهم ما يملكون من أغنام وماشية وأخذوا يضربون في الأرض، ويبدو لي من تتبع المراجع، ومن دراسة الآثار اللغوية والاجتماعية التي اقتبسها هذا الرهط أن خط سيرهم كان أشبه بحجز من دائرة، فقد اتجهوا إلى الشمال حتى اتصلوا بمناطق الآراميين، ثم انحدروا إلى الجنوب حتى دخلوا أرض كنعان (١)، وأطلق أهل كنعان على إبراهيم ورفاقه (العبريين) لعبورهم نهر الفرات إذ لم يكونوا قد عبروا نهر الأردن بعد، أو لأنهم بدو متجولون يعبرون من واد إلى واد كما ذكرنا من قبل. متى تمت هذه الرحلة؟ يرى أكثر الباحثين أنها تمت حوالي سنة ٢٠٠ ق م، ويرجح بعضهم حدوثها حوالي سنة ١٧٥٠ ق م (٢).

وحط إبراهيم رحاله في تلك البقاع، ونعم بما فيها من رخاء وخير، ولكن شيئاً خطيراً كان يحدث دون أن يلتفت إليه أحد، أو ربما دون أن يدبره أحد، ذلك هو الانعزالية التي كانت طابع الوافدين الجدد، لقد رأينا الكنعانيين يختلطون بالفلسطينيين، ورأينا الساميين الذين هاجروا إلى مواقع الخصب في الشمال يمتزجون بسكان الشمال، أما العبرانيون فقد عاشوا وحدهم وآثروا العزلة منذ هاجروا من أور الكلدانيين، قد يكون السبب في ذلك أنهم كانوا يرفضون عبادة الأصنام في حين كانت الأصنام هي معبودات الكلدانيين كما سبق، فاعتزلهم إبراهيم ومن آمن معه، ولكن العزلة أصبحت طابع العبرانيين حتى عندما انحرفوا وعادوا أو عاد أكثرهم إلى عبادة الأصنام. كانت العزلة طابعهم في أرض كنعان، وكانت طابعهم في

(١) قصة إبراهيم وردت في القرآن الكريم في سورة الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء وغيرها.
(٢) .٥ . God and Man in Early Israel: Smith. D. S. J. p>

مصر كما سنرى لسبب ظاهر هو ارتباط العبرانيين بالحكام المستعمرين في مصر (الهكسوس) وبالتالي نظر الشعب لهم نظرة ريبة فلم يتم اختلاط بين هؤلاء وأولئك، ثم إن البوم كان شاسعا بين العقليتين، فالعبرانيون كانوا قوما بدوا لا ثقافة لهم، نزلوا بين أقوام لهم تاريخ ولهم حضارة، فلم يكن من السهل الاندماج بين الطائفتين (١). ثم أصبحت العزلة تقليدا يهوديا لا محيد عنه، وترتب على هذا الانعزال محافاتهم لمن حولهم في جميع مراحل التاريخ، واعتبارهم من حولهم من الأمم أعداء لهم (٢)، ويصف الدكتور وايزمان أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة في اليهود بقوله: وكان اليهود في موتول (مسقط رأسه) بروسيا يعيشون كما يعيش اليهود في مئات المدن الصغيرة والكبيرة، منعزلين منكمشين، وفي عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم (٣). ثم اتجه الفكر اليهودي إلى اعتبار العزلة أساس حياة اليهود، وأدق صورة للتحريض على العزلة والتمسك بها، ما ذكره سلامون شختر في خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا، حيث قال: إن معنى الاندماج في الأمم هو فقدان الذاتية، وهذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليه من النتائج، هو ما أحشاه أكثر مما أحشى المذابح والاضطهادات (٤).

وتسبب عن هذه العزلة أحداث بالغة الخطورة، فقد نظروا إلى سواهم نظرة عداء وحذر، وبالتالي لم يدينوا بولاء إلى الوطن الذي يجمعهم بالآخرين، وإنما اتجهوا بولائهم إلى جماعاتهم، فأصبحت هذه الجماعة هي وطنهم، وهي دينهم، وهي موضع تقديسهم، وليس لهم بسواها صلة أو ارتباط. وقد نتج

(١) دكتور فؤاد حسين: التوراة ص ١١.

(٢) A History of the Hebrew People p: Charles Kent . ٢٥.

(٣) مذكرات وايزمان ص ٣.

(٤) عبد الرحمن سامي: الصهيونية والماسونية ص ٤٦.

عن ذلك ما ذكره Charles Kent (١) بقوله: خلاله أكثر فترات التاريخ كان العبرانيون محاطين بدائرة من الأمم المعادية التي تمثل حلقة من نار لا تدع لهم فكاكا.

لغة العبريين:

ونتوقف الآن قليلا عن الاستمرار في وصف تحركات العبرانيين لنتحدث عن لغتهم، وينبغي عند الحديث عن لغة العبرانيين أن نتذكر أن هؤلاء المهاجرين استغرقوا في رحلتهم فترة طويلة لم تحدد المراجع التاريخية، ولكن لنا أن نتصور أن رحلة من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان، يمضيها مهاجرون معهم أنعامهم وأبقارهم، لا بد أن تكون قد قطعت في عدة سنوات، وبخاصة إذا لاحظنا أن هؤلاء المهاجرين لم يكن لهم هدف يسعون له، وإنما كان كل هدفهم أن يهربوا من أعدائهم الذين نفروا من دعوة إبراهيم، ومن أجل هذا نتصور رهط إبراهيم يحط الرحال من حين إلى حين كلما وجد مرعى للماشية أو مستراحا للرهط، وفي خلال هذه الرحلة اقتبس رهط إبراهيم كلمات كثيرة من الأمم التي اخترقها الرهط المهاجر، فلما وصلوا إلى أرض كنعان كانت اللغة التي يتكلمون بها عبارة عن لهجة آرامية أقرب ما تكون إلى العربية، ولكن العبريين كانوا ينطقون هذه اللهجة متأثرين بقواعدهم ونحوهم ومفرداتهم اللغوية وقد اصطلح على تسمية هذه اللهجة العبرية، ولم يبد للغة الجديدة استقلال إلا حوالي سنة ١٤٠٠ ق م، وأول النصوص المعروفة بهذه اللغة يرجع إلى سنة ١٢٠٠ ق م وقد ماتت هذه اللغة حوالي سنة ٢٠٠ ق م فعملها لا يزيد عن ألف عام (٢).

(١) Ibid pp ٢٤ - ٢٥

(٢) دكتور فؤاد حسنين: التوراة ص ١١ و ١٣.

ويلاحظ أن اللغة العبرية عندما انقرضت كلغة للتخاطب لدى بني إسرائيل، بقيت حيناً يستخدمها الكهنة في الكتابات الدينية، أما لغة التخاطب بينهم فقد أصبحت اللغة الآرامية، التي انتشرت في العراق وفي سوريا وفلسطين وغيرها. وبعد فترة حلت الآرامية محل العبرية في الكتابة أيضاً، ولكن اللغة اليونانية سرعان ما زاحمت الآرامية في الحديث والكتابة، وقد كتبت أسفار العهد الجديد باليونانية إلا إنجيل متى فيرجح أنه كتب باللغة الآرامية ثم ترجم لليونانية (١).

الهكسوس والعبرانيون بمصر في القرون الأولى للألف الثانية قبل الميلاد زحف إلى مصر جماعتان ارتباط تاريخ كل منهما بالأخرى، وهاتان الجماعتان هما: الهكسوس والعبرانيون. والهكسوس هم الرعاة العماليق، وهم قوم من الأعراب الذين ذكرهم القرآن الكريم فيما بعد بقوله (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) (٢) وعندما ادعوا الإيمان صاح فيهم القرآن الكريم (قالت الأعراب آمنا. قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا. ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) (٣) وقد اجتاح هؤلاء الرعاء أرض مصر بسبب القحط في الجزيرة العربية، وكان ذلك وقت انحلال الأسرة الثالثة عشرة الفرعونية، واستطاع الهكسوس أن يسقطوا هذه الأسرة، وأن يستولوا على السلطة، وكونوا أربع أسر هي الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة.

(١) أنظر الأسفار المقدسة للدكتور علي عبد الواحد ص ١١ - ١٣.

(٢) سورة التوبة الآية ٩٧.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٤.

وكان ينسب إلى أحمس أنه هو الذي طردهم، ولكن لوحا أثريا كشف سنة ١٩٥٤ يسمى (لوح كامس) وقد أبرز هذا اللوح قصة الصراع الطويل الذي خاضه المصريون ضد الهكسوس، ووضح أن هذا الصراع ينقسم إلى فترتين:

الأولى، هي حرب التحرير التي قام بها البطل المصري (سقن رع) الذي قاد معركة التحرير في بدايتها ومات في هذه المعركة التي سجلت فيها آثار الطعنات على موميائه أو سمة لشرف الجهاد في سبيل الوطن الذي آمن به كأصدق ما يكون الإيمان في نفوس الأبطال.. فضحى بنفسه راضيا على هيكل الوطن المقدس، وخلفه ابنه الأكبر البطل (كامس) في قيادة حرب التحرير بشجاعة وبسالة... إتماما للرسالة الوطنية السامية. حقق النصر على أعدائه وضرب على أيدي الغزاة ومثيري الفتن ولكن الموت لم يمهله أكثر من ثلاث سنوات، وبموته... تبدأ الفترة الثانية من حرب التحرير التي كانت بقيادة الشقيق الأصغر لكامس، وهو القائد العظيم (أحمس).. الذي رأى فيه الأعداء شابا لا يتجاوز الثامنة عشرة... فاستخفوا به وأرادوا أن يستردوا سيطرتهم على البلاد... فأعادوا بناء عاصمتهم (حت وعرت) وهي (أواريس) التي أطلق عليها اليونان اسم (تانيس)، ثم أطلق عليها العرب اسم (صان الحجر) وهي قرية من مدينة الزقازيق الحالية، إلا أن الشاب قرر أن ينتقم للوطن... وقد تصدى لهم في إصرار... حتى طردهم خارج حدود مصر وحقق النصر لبلاده على الغزاة المعتدين.. والفترة الثانية من هذا الكفاح الوطني معروفة في الوثائق التاريخية، أما الفترة الأولى فكانت معلوماتنا عنها بسيطة وغامضة، حتى اكتشف لوح (كامس) عام ١٩٥٤.. ولذلك فإن هذا اللوح يعتبر أهم مستند تاريخي لحرب التحرير

والتخلص من المستعمرين في عصر القائد البطل (كامس)، وقد قال عنه (السير ألان جاردنير) إنه أهم مستند تاريخي كشف في القرن العشرين. ونعتبره كذلك قطعة أدبية معاصرة رائعة... فإن الأساتذة كانوا يوجهون طلبة العلم بالمدارس في العصور الفرعونية المختلفة إلى نقل نصوص هذا اللوح لما يحويه من نصوص أدبية رائعة تخلد أعمال الأبطال، وبذلك يثون الروح القومية في نفوس الشبان من أبناء البلاد ومما زاد في أهمية هذا اللوح... أنه اللوح الكامل الوحيد الذي كتب بأمر الملك (ماكس) وذكر وقائع انتصار القائد المصري البطل على الهكسوس أعدائه وأعداء بلاده، إذ أن جميع ما وصلنا من قبل... لم يكن غير نصوص لبعض الأفراد من عهد أخيه أحمس.

أما من الناحية التاريخية... فإن هذا الكشف يؤكد لنا أن (كامس) كان أول قائد مصري هزم الهكسوس في حرب التحرير... كما أنه شرح لنا التكتيك الحربي الذي اتبعه القائد المصري العظيم في محاربة العدو المستمر... حتى كشف مؤخرة جيشه البري، ومن ثم استطاع أن يبدأ هجومه بتطويق العدو برا وبحرا فأوقع به الهزيمة، ثم هدم عاصمة العدو (حت وعرت) (أواريس)... مما أثر في العدو تأثيرا قويا بعد أن تحطم كيانه المعنوي لما لحقه من خوف وهلع، فلم يصمد أمام هجماته المظفرة، واستسلمت فرقة خيالية العدو التي كان يتفوق بها على الجيش المصري... ثم يصف النص هذا التأثير بذلك الوصف الذي يضم بعض الكلمات التي توارثناها منذ القدم..

ويشير النص المدون على لوح (ماكس) إلى تنظيم قوة الأسطوال الحربي المصري في النيل، الذي كان أساس خطة التكتيك الحربي التي وضعها القائد المصري للقضاء على جيش العدو، وقد تولى (كامس) قيادة الجيش بنفسه، وكان دائما في المقدمة... باعتباره قائد الجيش الأعلى... مدفوعا بقوة إيمانه

وثقته بجيشه... واعتداده بنفسه، وحبه لبلاده، وتفانيه في سبيل كرامتها وعزتها... فاستولى على تموين الأعداء الذي كان يصل إليهم من طريق النيل ومن بينه كمية كبيرة من العتاد الحربي فحارب أعداءه بأسلحتهم... حتى كتب له النصر عليهم، ومما ساعده على الانتصار أن أحبط مؤامرات العدو الذي كان يتبع أسلوبا ملتويا في بث الفرقة بين أهل البلاد بالغدر والخيانة والقرصنة ليتمكن من استعمار البلاد واستغلال أهلها... إلا أن هذه الحرب نبهت المصريين ليقفوا يدا واحدة متيقظين أمام كل المؤامرات التي يحاول العدو المستعمر القيام بها. ولذلك لم يهمل القائد المصري اليقظ الاحتياط لما قد يلجأ إليه عدوه من حيل، فاكتشف تلك المؤامرة التي دبرها الهكسوس لإشعال نار الفتنة في جنوب الوادي... كي ينضم أمير كوش إلى حكام الهكسوس، فيقع القائد المصري وجيشه الباسل في فكي الكماشة، ولكن القائد المصري قضى على هذه المؤامرة بصرامة، وقد ظل الهكسوس بمصر فترة زمنية يختلف فيها المؤرخون ويرجح الدكتور باهور لبيب أن مدة الهكسوس بمصر كانت من سنة ١٧٣٠ إلى سنة ١٥٨٠ ق. م وكان هؤلاء يتعاونون مع الغرباء ضد المواطنين (١).

وفي أثناء عهد الهكسوس أصاب القحط أرض كنعان، فاستأنف العبرانيون تحركاتهم تجاه مصر، وهذا يدلنا على أن أرض كنعان لم تكن هدف العبرانيين، وإنما كانت بالنسبة لهم بقاعا ككل البقاع، ولذلك نجد إبراهيم وقومه يتركونها ويواصلون تجوالهم فيصلون إلى مصر حيث وفرة الزرع وخصب الأرض، وقد كان وجود الهكسوس بمصر فرصة للعبرانيين لأن الهكسوس - كما قلنا من قبل - كانوا يميلون للتعاون مع الأجانب ضد

(٢) من بحث للدكتور المهندس بحمد حماد بتصرف.

المواطنين شأن كل المستعمرين في كل زمان، ولذلك لقي إبراهيم من الهكسوس مزيدا من الترحيب والتقدير، وبقي إبراهيم فترة في مصر، فاضت عليه خلالها نعم فرعون، ونمت ثروته، وتضاعفت ماشيته، ولكن فرعون طمع في سارة زوجة إبراهيم كما سنذكر فيما بعد - فلم يدع هذا لإبراهيم وذويه فرصة ليطول مقامهم في مصر، ولم يستطع إبراهيم وقومه أن يواصلوا سيرهم إلى الجنوب من عاصمة مصر آنذاك طيبة (الكرنك والأقصر) إذ قابلوا هناك الجنس الحامي، فقفل إبراهيم راجعا إلى أرض كنعان ومعه ثراؤه الذي تضاعف ومعه كذلك (هاجر) وهي جارية مصرية أهداها فرعون لسارة، وقد دخل إبراهيم يهاجر بناء على طلب سارة (Sara) وأتجب منها ابنه الأول إسماعيل الذي نشأ في مكة (١)، وصاهر إسماعيل جرهم سادة مكة، ومن نسله جاء العرب الذين يعرفون بالعرب المستعربة، وهم الذين حملوا لواء الإسلام فيما بعد واقتحموا أرض الرومان واستعادوا فلسطين وما حولها منهم، محققين وعد الله لإبراهيم أن يجعل هذه الأرض لنسله من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات (٢)، كما اقتحموا بلاد فارس وما بعدها إلى الهند وما وراء النهر، هذا يتمشى مع قوله تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا) (٣)

(١) أنظر تاريخه (في موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية) للمؤلف ج ١ ص ٦١ - ٦٤ الطبعة الخامسة.

(٢) تكوين الأصحاب الخامس عشر، الفقرات ١٨ - ٢٠، وهذا هو رأي المسلمين في تفسير هذه الفقرات وهو الرأي الصواب، والفتح الإسلامي بهذا الوضع كان إنقاذا لشعوب المنطقة من الاستعمار وظلمه وعدوانه، أما اليهود فيفسرون هذه الفقرات بالقضاء على الشعوب الأصيلة وإحلال اليهود محلهم، وحاشا لإله أن يكون هكذا قضاؤه فهو قضاء ظالم.

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٨.

وبعد مولد إسماعيل بحوالي أربع عشرة سنة ولدت سارة لإبراهيم ابنه الثاني إسحق، ثم توفي إبراهيم وترك ابنه الأكبر إسماعيل بالحجاز، وابنه الأصغر إسحق بأرض كنعان، وأنجب إسحق ولدين هما عيسو ويعقوب المسمى إسرائيل وإليه ينسب بنو إسرائيل، وستكلم عن يعقوب فيما بعد عند الكلام عن أنبياء بني إسرائيل، وستكلم عن يعقوب فيما بعد عند الكلام عن أنبياء بني إسرائيل، ولكننا هنا ندون عنه ما يتصل بالسير التاريخي لبني إسرائيل، فنذكر أنه تزويج بنتي خاله وهما ليئة وراحيل وتزويج أيضا من زلفة جارئة ليئة ومن بلهة جارئة راحيل، وأعقب منهن اثني عشر ابنا، هم: من ليئة: راويين - شمعون - لاوى (من نسله موسى) - يهوذا (من اسمه أخذت كلمة يهود) - يساكر - زبولون.

من راحيل: يوسف - بنيامين.

من زلفة: جاد - أشير.

من بلهة: دان نفتالى.

وكان يعقوب يمنح مزيدا من العطب والحب ليوسف وبنيامين ابنيه من راحيل الحظية عنده، فنفس عليهما إخوتهما، ودبروا المؤامرات ضد يوسف أكبر الاثنيين وأحبهما عند يعقوب، فاستأذنوا أباهم ليصبحوا يوسف معهم وهم يرعون أغنامهم، فقبل يعقوب بعد تردد، وهناك ألقوا يوسف في بئر عميقة وجاءوا بأباهم عشاء يبكون، وقد لوثوا قميص يوسف بدم كذب، وقالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، ثم مرت بالبئر قافلة أرسلت واردها ليأتي بالماء من البئر، فتعلق يوسف بالدلو، وفرحت به القافلة، وبيع يوسف لرئيس الشرطة في مصر، وزج به في السجن نتيجة اتهامه بمحاولة الاعتداء على شرف زوجة سيده، وفي السجن تعرف على رئيس سقاة فرعون، وبواسطته أفرج عن يوسف بعد حين واستخلصه

فرعون لنفسه، وفرعون هذا هو (فوتي فارغ) أو (فوطيفار) كما تذكره التوراة، وهو من ملوك الأسرة السادسة عشرة في القرن السابع عشر ق م. وأصبح يوسف مديراً لخزائن الطعام بمصر، وهو منصب يماثل منصب وزير التموين في العهد الحاضر، وقد هياً هذا المنصب السبيل ليعقوب وأولاده أن يرحلوا إلى مصر فرارا من الجوع الذي عم بلادها مثلما حدث لإبراهيم من قبل (١) وكان السلطان لا يزال في أيدي الرعاة العماليق (الهكسوس) الذين كثيرا ما خلت تصرفاتهم من الولاء لمصر وشعبها، إذ كانوا - كما قلنا - غاصبين للسلطة فيها، وكانت حركات المواطنين لا تفتأ تعمل للايقاع بهم، فربما كان من تخبط العماليق أن يتعاونوا مع غير المصريين، ويبدو ذلك مما ذكرته التوراة من أن فرعون أغرى إخوة يوسف أن يحضروا لمصر ووعدهم بالغنى والثراء قائلاً لهم: خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلى فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض، خذوا لكم من أرض مصر عجالات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم (٢). وسرى أنهم استجابوا لهذه الدعوة السخية. إسرائيل وبنوه في مصر:

ومرت بمصر سنون من الرخاء، فاض خلالها إنتاجها، وادخر الكثير منه، ثم جاءت سنون أخرى من الجذب والقحط، فهرع الناس إلى خزائن الملك يطلبون عونهم، ويسألونه القوت، وأخذ يوسف يمنحهم القوت نظير

(١) اقرأ سورة يوسف ففيها تصوير واضح لهذه الأحداث التي أوجزناها.

(٢) سفر التكوين الأصحاح ٤٥ : ١٧ - ٢٠.

ما يمتلكون من فضة وذهب وماشية وأطيان، بل اشتراهم أيضا وجعلهم عبيدا لفرعون من أجل الطعام (١)، وامتدت المجاعة إلى الممالك المحيطة بمصر، وكان وقعها شديدا على العبرانيين، ودفعت يعقوب أبناءه ليطلبوا الميرة من مصر، وهناك عرفهم يوسف، ولكنهم لم يعرفوه، وجرت بينه وبينهم أحداث انتهت بأن جلى يوسف لهم الأمر، وأعلن لهم أنه أخوهم، وطلب إليهم أن يحضروا أباه وأهلهم أجمعين (كانت أمه قد ماتت وهو صغير) وبدأت بذلك الجولة الثانية لبني إسرائيل بمصر.

ويلاحظ على بني إسرائيل بمصر ما لاحظناه من قبل على أجدادهم بأرض كنعان، وهو الانعزالية التامة، وعدم التعاون مع من يحيط بهم، وعدم الاختلاط بأصحاب الأرض الأصليين، فقد طلبوا من فرعون أن يسكنهم في أرض جاسان (منطقة صفت الحنة بالشرقية) فاستجاب لهم فرعون وقال ليوسف: أبوك وإخوتك جاءوا إليك، أرض مصر قدامك، في أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك، ليسكنوا في أرض جاسان... فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكا في أرض مصر في أفضل الأرض، وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأود (٢). وكان تعداد بيت يعقوب آنذاك سبعين نسمة (٣).

وتكاثر بنو إسرائيل بمصر تكاثرا واسعا جدا وسريعا جدا، فلقد أحصاهم موسى عند خروجهم من مصر كما تقول التوراة (٤)، فوجد حملة السلاح منهم أي الذكور ابتداء من سن العشرين يبلغون ٥٠٠ ر ٦٠٣ وهذا العدد

(١) أنظر (السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي) للمؤلف ص ٢٢٥ وقرأ سفر التكوين الأصحاح ٤٧ الفقرات ١٣ - ٢٢.

(٢) تكوين ٤٧: ٥ و ١١ - ١٢.

(٣) تكوين ٤٦: ٢٧.

(٤) سفر العدد الأصحاح الأول.

مبالغ فيه جدا، ولكن عددهم زاد على كل حال زيادة هائلة، وكانوا لا يزالون في عزلتهم، ولكن العزلة آنذاك أصبحت تستلقت نظر المصريين وتثير خوفهم، فهي لم تعد عزلة بضع عشرات من الرجال والنساء، ولكنها أصبحت عزلة قوم لهم قوة ومنعة، فغدوا يكونون دولة داخل الدولة كما يقال في الاصطلاح الحديث، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد نجح أمراء طيبة المصريون في التغلب على الرعاة العماليق، وطردهم أحمس خارج البلاد وأقام حكما وطنيا قويا، ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة، ولم يتعرض أحمس لبني إسرائيل بسوء لأنه فيما يبدو كان مشغولا بالعدو الأكبر، فلما قامت الأسرة التاسعة عشرة ومن ملوكها رمسيس الثاني الفاتح العظيم ظهر الشعور العدائي ضد بني إسرائيل، ونقم الحكم الوطني عليهم، لأنهم نالوا أطيب خيرات مصر على حساب المواطنين المغلوبين على أمرهم، ثم إن الحكم الجديد كان يخشى أن يتآمر بنو إسرائيل ضده في محاولة للانتكاس، بل يرى بعض الباحثين أن (شعب مصر اكتشف بالفعل أن بني إسرائيل كانوا يتآمرون عليه) (١) وقد وصل التآمر إلى عمل ضد سلامة الدولة: فقد ذكر شاروييم في كتابه (الكافي (٢)) أن الإسرائيليين ثاروا ثورة عاتية ضد منفتاح فزحف عليهم... وقرئت على عمارة في طيبة أنشأها منفتاح الأول أنشودة له ذكر فيها تنكيله ببني إسرائيل بسبب ثورة ثاروها ضد السلطان المصري.

وبعلل الباحثون هذه الثورات بأنها كانت نتيجة للوضع الجديد في مصر، فإن بني إسرائيل تعودوا الحياة الممتازة منذ عهد يوسف، ونالوا الكثير من رعاية الهكسوس وإيثارهم (٣)، ثم جاء من الفراعنة من طلب

سليمان مظهر: قصة العقائد ص ٢٨٣.

(٢) ص ٩٠ وما بعدها نقلا عن (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم (ص ٨٠ - ٨١)).

(٣) .٨٣ .Civilization of the Near East P: weach. M. E.

من بني إسرائيل أن يحرثوا الأرض كغيرهم من المصريين المنتجين وأن يشتركوا في تشييد المباني وإقامة العمران، لا أن يختصوا بصياغة الذهب والفضة وتجارتها، وبتنمية المواشي بواسطة الرعي دون جهد، فثار بنو إسرائيل لفقدان امتيازاتهم وقاوموا الحكم الجديد، وربما يكون من الاستطراد أن نذكر أن بني إسرائيل كانوا يحرصون على حياة الامتياز والكسب السهل على مر التاريخ وفي مختلف البلاد، وأنهم ثاروا هنا وهناك عندما خافوا أن تضيع منهم هذه الامتيازات (١).

وهناك سبب آخر نضيفه لأسباب الخلاف بين فراعين مصر وبين بني إسرائيل، ذلك هو الاضطراب الصحي الذي نتج عن التزايد المطرد في تعدد بني إسرائيل، فإن حياة الغني كان ينعم بها سادتهم، أما الأكثرية العظمى فكانت تعيش في فقر مدقع، وكانت القذارة تنتشر بينهم بشكل واضح، فظهرت بينهم الأمراض، وأصبحوا مصدر قلق فرعون وشعب مصر (٢).

ويقول العالم المؤرخ الدكتور أحمد بدوي يصف علاقة المصريين ببني إسرائيل (٢):

(من الثابت في تاريخ مصر - بناء على ما جاء كتب السماء من ناحية وما شهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى - أن (العبرانيين) قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل، كانوا يجيئونها أول الأمر

(١) أنظر الصهيونية في المجال الدولي للدكتور محمد عبد المعز نصر س ٤٩ - ٥٠ وتاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ص ٢٢.
(٢) سليمان مظهر: قصة العقائد ص ٢٨٦.
(٣) في موكب الشمس ج ٢ ص ٥٨٨ - ٥٨٩ وقرأ كذلك ص ٨٨٢ - ٨٨٨.

لاجئين، يطلبون الرزق في أرضها، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام، ثم يجيئونها أسارى في ركاب فرعون كلما عاد من حروبه في أقاليم الشرق ظافرا منصورا، فينزلهم حول دور العبادة يخدمون في أعمال البناء (١)، ويعبدون أربابهم أحرارا لم يكرههم أحد على قبول مذهب، أو اعتناق دين، وتطيب لهم الإقامة في مصر، ونستقيم لهم فيها أمور الحياة، ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر، ويعملون على إفقارهم، وإضعاف الروح المعنوي بين طبقات الشعب، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش في هذا القطر، ليفرضوا عليه سلطانهم، تارة عن طريق الضغط الاقتصادي، وأخرى عن طريق الدين والعقيدة (٢).
(هكذا تنكر (بني إسرائيل) لسادتهم المصريين، فخانوا عهدهم، واستنزفوا أموالهم ورموهم بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام. كذلك كان مسلكهم في كل زمان ومكان، وتاريخهم يشهد على ذلك، فإنهم ما حلوا بأرض إلا وأكثروا فيها الفساد، وأيقظوا بين أهلها شياطين الفتنة).

وهكذا تأزمت العلاقات بين المصريين وبين بني إسرائيل، وأصبحت الكراهية والحذر طابعها، واستشار فرعون الكهنة والحكماء، وتدارس

(١) جاء في الأصحاح الأول من سفر الخروج أنهم بنوا لفرعون مخازن مدينتي (فيثوم) و (عمسيس).

(٢) اقرأ الأصحاح السابع من سفر الخروج.

الجمع الأمر، وانتهوا فيه إلى أن عزلة بني إسرائيل هي مصدر الخطر، وأن تكاثر رجالهم يهدد الدولة، فاستقر الرأي على التخلص من الأطفال الذكور واستبقاء الإناث، فإذا تم ذلك، وتزوجت الإسرائيليات من مصريين انتهت العزلة وتم الاندماج وزال الخطر، وكان موسى عليه السلام من مواليد هذه الفترة، ولكن الله أنجاه من الموت، وفي القرآن الكريم تصوير رائع لطفولة موسى، تعال بنا نقتبس بعض آيات من الذكر الحكيم:

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي، ولا تحزني، إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فالتقطه آل فرعون (١)...)

وقالت امرأة فرعون له: ألا يحتمل ألا يكون الطفل عبريا؟ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، واستجاب لها فرعون وتربى موسى في رعاية القصر، ولكنه عندما شب أدرك أنه من بني إسرائيل، فقرر أن يكون ظهيرا لهم، وذات يوم رأى خلافا يدور بين مصري وعبراني، وتطور الخلاف إلى عراك، فهتف به العبراني أن يساعده ففعل، وسقط المصري قتيلا بضربة من موسى، وثار المصريون ضد العبرانيين، ثم اتجهت ثورة المصريين ضد موسى عندما اعترف عليه العبراني الذي استغاث به بالأمس ولم يجد موسى بدا من الهرب، واتجه في هربه إلى الجنوب الشرقي حيث قاده الطريق إلى أرض مدين، مقر نبي الله شعيب، وهناك تزوج ابنته وكان

(١) سورة القصص الآيات ٧ - ٨.

صداقها خدمته لأبيها ثماني حجج، وبعد أن أتم موسى الميقات فكر في الرجوع إلى مصر آملاً أن يكون القوم هناك قد نسوا خطيئته، فوهب له صهره بعض المال والأغنام، وسار مع زوجته في طريق العودة حتى وصل طور سيناء، وهناك خيل له أنه ضل الطريق، فوقف متردداً، ولكنه سرعاً ما أبصر ناراً تشتعل في جانب الطور الأيمن، فقال لأهله (امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما آتاها نودي يا موسى إلى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري (١)) وبدأت بذلك رسالة موسى. ويعطينا المؤلف اليهودي جوزيف المتوفى سنة ١٠٠ م معلومات عن موسى لم ترد في التوراة، فهو يقرر أن موسى كان قائداً بالجيش المصري خلال الحملة المصرية على الحبشة، وقد تزوج موسى من أميرة حبشية في هذه الأثناء (٢) وعرض موسى رسالته على فرعون فلم يستجب له، ولم يعترف بما جاء به من معجزات، وظل فرعون يعامل بني إسرائيل بما كان يعاملهم به من القسوة والحدْر، وهتف بنو إسرائيل بموسى (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) (٣) واتجه موسى يطلب من فرعون أن يطلق معه شعبة (بني إسرائيل) ليعبدوا إلههم (يهوه) في البرية، ولم يستجيب فرعون لهذا الطلب أيضاً، إذ رأى من الخسارة أن يعفيهم من أعمالهم التي

(١) سورة طه الآيات ١٠ - ١٤.

(٢) نقلاً عن: J. Smith p. God and Man in Early Israel by ٣٦.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٩.

وكلها لهم، ثم من الخطر أن يطلقهم فقد يلتقون بأعداء المصريين بالشمال ويتفقون معهم على ما يؤذي المصريين، ولهذا دبر موسى أن يخرج بهم سرا.

وهناك اتجاه آخر هو أن فرعون أذن لموسى في الخروج بني إسرائيل، بيد أن نساء بني إسرائيل استجبن لآلهم الذي تروى التوراة قوله لهم: حينما تمضون إنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة، وأمتعة ذهب، وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين (١). وخرج بنو إسرائيل بما سلبوه من المصريين. وسواء كان خروج بني إسرائيل سرا، أو كان بموافقة فرعون ولكن نساء بني إسرائيل سلبن ثروات المصريين، فقد كان على فرعون أن يلحق بهم وأن يمنعهم من مواصلة السفر، وتبعهم فرعون ومعه فريق من جنده، فلحق بهم وقد بلغوا شاطئ خليج السويس (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون، قال كلا إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك للبحر فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين (٢)) ويعلق أكثر المفسرين على الآية الأخيرة بأن إغراق فرعون على هذا النحو كان لقوله فيما حكاه عنه القرآن الكريم: (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري (٣)). وقوله لموسى: (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من

(١) سفر الخروج: ٣: ٢١ - ٢٢ وخروج ١٢: ٣٥ - ٣٦.

(٢) سورة الشعراء الآيات ٦١ - ٦٦.

(٣) سورة القصص الآية ٣٨.

المسجونين) (١) وقوله (فحشر فنأدى فقال أنا ربكم الأعلى) ولذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى (فأخذ الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) (٢) وهذا التعليل للغرق هو الذي تذكره الآية الكريمة (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في أليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) (٣).
وفرعون الاضطهاد هو رمسيس الثاني (١٣٠٤ - ١٢٣٤ ق م)،
وفرعون الخروج هو منفتح الذي خلف أباه رمسيس الثاني، وكان خروج بني إسرائيل من مصر حوالي سنة ١٢١٣ ق. م. وقد جاء في لوح عثر عليه في طيبة أن منفتح أباد بني إسرائيل واستأصلهم (٤).
وبعض المراجع القديمة والحديثة تثير الشك حول نزوح يعقوب وأبنائه إلى مصر وتبعاً لذلك حول خروج بني إسرائيل منها (٥)، ولكن هذه القصة واضحة بالكتب المقدسة وبخاصة في القرآن الكريم، مما يزيل هذا الشك، ثم إن أوراق البردي المحفوظة في متحف لايد يتطابق فحواها مع ما جاء في الكتب المقدسة حيث تذكر تسخير بني إسرائيل في أعمال البناء والطين،

(١) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(٢) سورة النازعات الآيات ٢٣ - ٢٦.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٦.

وقصة خروج بني إسرائيل على هذا النحو وردت في التوراة كذلك على نفس الصورة التي وردت في القرآن (سفر الخروج الأصحاح الرابع عشر)، ومنهج الدراسات الدينية يعترف بالمعجزات ويرأها من طبيعة الرسالات، أما منهج الدراسات التاريخية الذي يعني بالأسباب والمسببات، فيلجأ أتباعه إلى تعليل ما حدث تعليلاً يناسب منهجهم، فهم يرون أن ما حدث كان نتيجة لهزات أرضية عنيفة وزلزال مصادف مهد طريقاً لبني إسرائيل ليعبروا خليج العقبة. أنظر: ٦٤. J. Smith p. God and Man in Early Israel

(٤) أحمد نجيب هاشم وآخرون: مصر في العصور القديمة ص ٩٧ والدكتور أحمد

بدوي: في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٨٦.

(٥) اقرأ جوزيف نيوتن والدكتور أحمد بدوي والدكتور سليم حسن.

وتؤيد وجود بني إسرائيل (العبريو) في مصر في عهد رمسيس الثاني، وبالإضافة إلى ذلك فإن طروءهم على شرق الأردن وغربه من ناحية حدود مصر، يؤيد خروجهم منها، ولا يدع سبيلا إلى الشك في القصة كما أوردناها (١). ويقول Smith. J معلقا على عدم اهتمام الآثار المصرية بحادثة خروج بني إسرائيل ما يلي: ولا يدعو للدهشة أن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادثة خروج بني إسرائيل من مصر ولم تسجل خطواتها، فإن فرار مجموعة من العبيد من سادتهم لم يمثل حدثا يثير الاهتمام الفكري لدى المصريين، وبخاصة أن بني إسرائيل بمصر عاصروا عهدا حافلة بجلائل الأعمال استنفدت - فيما يبدو - نشاط المثاليين ومدوني التاريخ، وليس بعيدا أن تكشف أعمال التنقيب الجارية الآن - فيما تكشف - عن بعض الآثار التي تعين على مزيد من الايضاح (٢). وقبل أن نتبع حركات بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، ينبغي لنا أن نقف هنا وقفة ندرس فيها إلى أي مدى استطاع الدم اليهودي أن يحافظ على نقائه، وتجمع المراجع التاريخية والأبحاث الأنتروبولوجية (علم أجناس البشر Anthropology) على أن خروج بني إسرائيل من مصر كان حدا فاصلا بين عهد النقاء وعهد اختلاط الدم، يقول غوستاف لوبون (٣): ولحق ببني إسرائيل عدد من المصريين الساخطين، من الأسارى، ومن العبيد، ولما جاوز بنو إسرائيل بحر القلزم بدرا عشيرة أي جماعة تبدو كأنها نسل رجل واحد وإن كانت في الحقيقة فاتحة صفوفها لجميع الفرار المستعدين لانتحال اسمها وتقاليدها ومعبوداتها.

(١) محمد عزة دروزه: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ج ١ ص ٨٢.

(٢) God and Man in Early Israel P. ٣٦.

(٣) اليهود في الحضارات الأولى ص ٣٣.

وحدث مثل ذلك الاختلاط عندما هاجرت جماعات اليهود من فلسطين،
يقول Margolis:

وقد تكون في الموطن الشمالي لنهر الراين أكبر مجموعة يهودية بأوروبا،
إذ وفد على ذلك المكان جماعة من أسباط العبريين الرحل الذين هجروا فلسطين
إثر إحدى هزائمهم، واختلطوا في الطريق إلى أوروبا بعناصر سورية وأناضولية
وحطوا رحالهم بالحوض الشمالي لنهر الراين، وبمرور الزمن دخل عدد كبير
من سكان هذه المنطقة ديانة الوافدين العبريين، وتفرع هؤلاء بعد فترة
من الزمن: فاستوطن بعضهم بولندا واستوطن آخرون أوروبا، واتجه فريق
منهم إلى روسيا (١).

ويقول العلامة (لامبروزو) (٢): إن اليهود المحدثين هم أدنى إلى
الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي، وهم عبارة عن طائفة دينية تميزت
بميزات اجتماعية واقتصادية، وانضم إليها من جميع العصور أشخاص من شتى
الأجناس ومن مختلف صنوف البشر، وجاء هؤلاء المتهودون من جميع الآفاق،
فمنهم (الفلاشا) سكان الحبشة، ومنهم الألمان ذوو السحنة الألمانية، ومنهم
(الثامل) أي اليهود السود في الهند، ومنهم (الحرز) وينتمون للجنس
التركي، ومن المستحيل أن نتصور أن اليهود ذوي الوجه الحسن البديع والشعر
الأشقر أو الكستنائي، وذوي العيون الصافية اللون الزرقاء، ممن تلقاهم اليوم

(١) اقرأ عن هذا الموضوع المراجع التالية.

١ - f. ٢٣٣. A History of the Jewish People by Max Margolis and Alexander Max p

ب - ٢٩٣. Wells p. The outline of History by Ho

ج - الصهيونية وريبتها إسرائيل للأستاذ عمر رشدي ص ٢٧.

(٢) نقلا عن الصهيونية العالمية وأرض الميعاد تأليف على إمام عطية س ١٠٠.

في أوربا الوسطى يمتون بصلة الدم إلى إسرائيل أرض الميعاد أو يهود فلسطين القدماء، الذين كانوا يعيشون بجوار نهر الأردن والبلاد المقدسة منذ القدم (١).
بعد الخروج:

التف بنو إسرائيل حول موسى وهم بمصر، لا كرسول ولكن كقائد وزعيم يرجى على يده الخلاص من استعباد المصريين، ولذلك لم يكادوا يتحققون من نجاتهم من فرعون حتى شغبوا على موسى، وقد سبق أن قلنا إن بني إسرائيل ثاروا على الحكم الوطني بمصر لما أحسوا أنهم فقدوا امتيازاتهم التي كانوا ينعمون بها خلال عهد العماليق، وقد كرر بنو إسرائيل موقفهم هذا ضد موسى نفسه لما أفقدهم حياة الرخاء بمصر وجاء بهم إلى البرية، التي فقدوا بها ما كانوا ينعمون به في مصر من خيرات، فالحرية عندهم لم يكن لها جزاء، ولذلك صاحوا به وبأخيه هارون فيما ترويه التوراة:

- ليتنا متنا في مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع (٢).
- وفي بعض أماكن البرية لم يجدوا ماء، فخاصم الشعب موسى وتذمروا عليه، وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش (٣).
وفي الطريق إلى فلسطين ترك موسى بني إسرائيل بناء على أمر ربه ليصعد

(١) لا يتنافى هذا مع الانعزالية التي ذكرنا أنها كانت طابع اليهود فاليهود فتحوا صفوفهم لهؤلاء الفرار وكون اليهود والمتهودون جماعة ظلت منعزلة عن سواها من الجماعات فكريا، واجتماعيا فهم لا يلتقون بالناس في ميولهم وأن فتحوا صفوفهم للآخرين، فذلك لمزيد من القوة والعدد ينماع فيهم.

(٢) سفر الخروج ١٦: ٢ - ٣.

(٣) سفر الخروج ١٧: ٣.

إلى جبل الطور ويمكث ثلاثين ليلة صائما ليتلقى من الله الوصايا والتعليمات التي يسير عليها هو وشعبه، وطالت هذه الليالي فبلغت أربعين، لأن موسى استاك في آخرها فكلفه الله أن يزيد لها عشرا، وهنا يتناسى بنو إسرائيل كل معجزات موسى ويعودون إلى طبيعتهم الوثنية الشريرة الآثمة، تقول التوراة: ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى، الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيككم وبنانكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصورة بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا... فقال الرب لموسى اذهب لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعا عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا (١).

ونزل موسى من الجبل وغضب غضبا شديدا على قومه لعودتهم للوثنية وعبادة العجل، وكان عقابهم أن تسلط بعضهم على بعض في معارك طويلة سقط فيها عدة آلاف.

وبدأ موسى يسير بقومه تجاه فلسطين، ولكن فلسطين كانت عامرة بالسكان الذين سبق أن تحدثنا عنهم، وكان قد شاع بين الناس غدر بني إسرائيل وتآمرهم ضد البلاد التي ينزلونها، فلم تعد فلسطين مفتوحة لهم كما كانت من قبل، بل وقف أهلها في وجه بني إسرائيل يردونهم عنها، وهكذا أصبحت محاولة دخولها معناها الحرب بين بني إسرائيل وبين هؤلاء السكان، وكان بنو إسرائيل يخافون الحرب، فقد تمكنت منهم الذلة والصغار، فصاحوا بموسى (إن فيها

(١) خروج ١٠٣٢ - ٨ والقرآن الكريم ينسب هذا التصرف للسامري (سورة طه الآيات ٨٧ - ٩٦).

قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) وبذلت محاولات لإغرائهم بالدخول ووعود بالنصر، ولكنهم أصروا على موقفهم (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون). ولم يستجب لموسى أحد سوى أخيه هارون، فشكا موسى إلى ربه قائلا: (رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) فنزل عليهم حكم الله (إنها محرمة عليهم، أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين) (١).

ويقرر بعض الباحثين (٢) أن التيه هو الذي حدد بأربعين سنة وليس التحريم، فالتحريم مطلق أبدي، أي لن يكون لهم بها استقرار، ومن أجل هذا يوقف في القراءة بعد قوله تعالى (محرمة عليهم). ومات هارون ثم موسى في فترة التيه، ودفن هارون في جبل هور، ودفن موسى في كتيب أحمر حيث كان يرى أرض فلسطين دون أن يدخلها. وتولى يوشع بن نون قيادة بني إسرائيل بعد موسى، وكان يوشع أحد أصفياء موسى، وقد اختاره موسى قبل موته لقيادة بني إسرائيل (٣)، فاتجه يوشع باتباعه إلى الشمال، شرقي نهر الأردن، ثم بدأ يوشع يعد العدة لعبور الأردن ونزول فلسطين، فلما عبر بنو إسرائيل النهر كانت أول المدن التي استولوا عليها مدينة أريحا، وقد أرسل يوشع رسولين للتجسس، فدخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب كما تقول التوراة (٤) وخبأتهما المرأة عندما شاع أمرهما، وبعد بضعة أيام اقتحم بنو إسرائيل مدينة أريحا وقتلوا كل ما بها من إنسان

(١) سورة المائدة الآيات ٢٢ - ٢٦.

(٢) أنظر قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ص ٢٧٣.

(٣) سفر العدد ٢٧ - ١٥ - ٢٠: J smith. P / ٥٢ .God and Man in Early Israel

(٤) سفر يشوع (هو يوشع بن نون) ٢: ٢.

أو حيوان، وحرقوا المدينة كلها، ولم ينج من الموت من سكان المدينة إلا المرأة الزانية وأهلها (١). وكان ذلك أول العهد بيني إسرائيل في فلسطين، وامتد سلطان يوشع عقب ذلك ويذكر Smith (٢) أن الذين عاصروا موسى من بني إسرائيل قد هلكوا جميعا في الصحراء ولم يدخل منهم فلسطين إلا اثنان كان يوشع واحدا منهما. أما باقي الجيش الذي اقتحم فلسطين فكان من الأبناء الذي ولدوا في فترة التيه. ويصف ول ديورانت (٣) أحداث هذه الفترة أدق وصف، استمع إليه يقول:

كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلا واضحا لانقضاء جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقي من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهارا وكان هذا القتل - كما تقول نصوص الكتاب المقدس - فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى وزكاة للرب، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثني عشر ألفا وأحرقوها وصلبوا حاكمها (٤)، ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الاسراف في القتل والاستمتاع به، وقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة، أما يوشع فلم يكن إلا جنديا فظا، وقد حكم موسى حكما سليما لم تسفك فيه دماء، أما يوشع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الذي يقول إن أكثر الناس قتلا هو الذي يبقى حيا، وبهذه الطريقة الواقعية التي لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة.

(١) اقرأ سفر يشوع وبخاصة الأصحاح السادس.

(٢) God and Man in Early Israel P .٥٢

(٣) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٤) اقتس ول ديورانت هذا الرقم من سفر يشوع الأصحاح الثامن.

ويعلق J. W. D. Smith (١) على احتلال بني إسرائيل لفلسطين بقوله:
إن هذا الحادث كان عملية انتقال في تاريخ بني إسرائيل، لأنه كون أمة
من أشتات من العبيد.

وقد قسم يوشع الأرض التي استولى عليها بين الأسباط، وتركت
ست مدن على الشاطئ الأيمن والأيسر للأردن لتكون ملجأ للمشردين
من بني إسرائيل المتهمين بالقتل خطأ.

بنو إسرائيل في فلسطين
وهكذا بدأت قصة اغتصاب اليهود لفلسطين، ويمكن أن نقسم حياة
بني إسرائيل بفلسطين أقساماً ثلاثة متميزة، هي:

١ - عهد القضاة.

٢ - عهد الملوك.

٣ - عهد الانقسام فزوال ملك بني إسرائيل من فلسطين.

وستكلم عن كل قسم من هذه الأقسام على حدة بإيجاز:

١ - عهد القضاة:

لم يفتح العبرانيون في أرض الميعاد إلا منطقة التلّول الداخلية، ولم يزيّدوا
عليها شيئاً، أما مدن الساحل فقد استطاعت أن تصمد لهجوم العبرانيين، وظل
أسباط إبراهيم أجيالاً عديدة شعباً مغموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية
مشغولاً بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وسواهم من القبائل النازلة حولهم
وبخاصة المؤابيون وأهل مدين (٢)، وسفر القضاة سجل يسطر كفاحهم

(١). ٥٤. P. God and Man in Early Israel

(٢) سفر يسوع الأصحاح الثالث عشر.

وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة، وهو في الغالب سجل للنكبات والاختفاقات التي دونت بصراحة (١).
وكان حكام اليهود في هذه الفترة قضاة من الكهنة ينتخبهم كبراء الشعب، وكان بعض القضاة نساء أحيانا، ويتكلم سفر القضاة عن دבורة قاضية إسرائيلي (٢)، ولم يكن في بني إسرائيل ملوك في تلك الآيات، ولا كانت إطاعة القضاة واجبة، وقد تسبب عن ذلك - بالإضافة إلى تقسيم الأرض المفتوحة بين الأسباط - أنه لم تتألف من بني إسرائيل أمة موحدة متماسكة، بل ظلوا زمنا طويلا يؤلفون اثني عشر سبطا مستقلا كل منها عن الأسباط الأخرى استقلالا واسعا أو ضيقا، وكان نظام الحكم عندهم لا يقوم على أساس الدولة بل على أساس الحكم الأبوي في الأسرة، فكان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس من الكبراء هو الحكم الفصل في شؤون القبيلة، وهو الذي يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى إذا ألجأتهم إلى هذا التعاون الظروف القاهرة التي لا مفر من التعاون فيها (٣)، فإذا فشل التقاضي أمام هؤلاء لجأ المتقاضون إلى القاضي الذي كان يمثل الرئيس في الجماعات اليهودية. وقد استمر عهد القضاة حوالي أربعة قرون بناء على حساب سفر القضاة، ولكن المحقق محمد عزة دروزة يقرر أن عهدهم لا يزيد عن قرن واحد، فإن موسى خرج ببني إسرائيل حوالي سنة ١٢١٠ ق م وتزعمهم هو ويوشع حوالي ثمانين عاما أي حتى سنة ١١٣٠ ق م وهي السنة التي مات بها يوشع، وبدأ بذلك عهد القضاة الذي استمر حتى سنة

A short History of the world P: Wells .٩٢ (١)

وانظر كذلك الأصحاح الثاني والثالث من سفر القضاة.

(٢) الأصحاح الرابع من سفر القضاة.

(٣) ول هيورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٢٩.

١١٣٠ ق م، ويرى هذا المحقق أن هذا الرقم من مبالغات السفر شأنه شأن الأسفار الأخرى في الأرقام (١).

وفي هذا العهد وضع الأساس للحياة اليهودية ولل فكر اليهودي، وقد اشترك في وضع هذا الأساس العناصر الداخلية اليهودية، كما اشتركت فيه العناصر الخارجية والتأثيرات التي حملها اليهود معهم، أو انفعلوا بها حيث نزلوا بفلسطين، وعلى هذا بدأت حياتهم تتغير خلال عهد القضاة رويدا رويدا، فبدءوا ينتقلون من حياة البدو إلى حياة الاستقرار، من حياة الخيام إلى القرى الساذجة، كما بدءوا يعرفون الزراعة بجانب الرعي الذي كان كل عملهم، ومصدر ثرائهم الوحيد، وكان الكنعانيون أساتذة لهم في الاستقرار وبناء القرى والزراعة، وتعلم العبرانيون كذلك من الكنعانيين ومن الدول المجاورة التي اتصلوا بها عن طريق التجارة، بعض التقدم في الصناعة، فأخذ الحدادون اليهود عن الكنعانيين تطور الأسلحة وصنع آلات الزراعة، أما عمال الفخار فقد ترقى صناعتهم بما اكتسبوه من خبرة من الكنعانيين (٢).

وبالإضافة إلى هذا التأثير في مطالب الحياة اليومية، فإن الإسرائيليين تأثروا بالكنعانيين في عباداتهم تأثرا كبيرا كما سنوضح ذلك عند الحديث عن معتقدات بني إسرائيل.

٢ - عهد الملوك:

انهار عهد القضاة أمام مطالب الحياة الملحة، فقد كان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملا هاما في محاولة جمع الأسباط كلهم في وحدة شاملة بعد ما نالهم من إخفاق في عهد القضاة، وبعد ما شاع من فسق القضاة وأخذهم

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ج ١ ص ١٤٨ بتصرف.

(٢) .A History of the Hebrew People pp: Charles Foster Kent .٨٨ - ٩٠

الرشوة، ويحكى لنا الأصحاح الثامن من سفر صموئيل الأول قصة الانتقال من عهد القضاة إلى عهد الملوك، وهاك كلماته:

لما شاخ صموئيل جعل ابنه قضاة لبني إسرائيل، ولكنهما لم يسلكا طريقه، وما لا وراء المكسب وأخذ الرشوة، وعوجا القضاة، فاجتمع شيوخ بني إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل وقالوا له: أنت قد شخت، وابناك لم يسيرا في طريقك، فالآن اجعل لنا ملكا كسائر الشعوب، فصلى صموئيل إلى الرب فقال له الرب: اسمع لصوتهم، إنهم لم يرفضوك أنت ولكنهم رفضوني أنا، إنهم تركوني وعبدوا آلهة أخرى، فاسمع لصوتهم ولكن أشهد عليهم. قال صموئيل لبني إسرائيل: إن الملك الذي سيملك عليكم سيأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه، ويحرثون له ويحصدون، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات، ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم ويأخذ جواربكم وشبانكم الحسان وحميركم... فأبى الشعب أن يسمع لصموئيل وقالوا: لا بل يكون علينا ملك، مثل سائر الشعوب يخرج أمامنا ويحارب حروبنا (١)...

واختار لهم صموئيل شاءول ليكون أول ملك عليهم، ويسميه القرآن الكريم (طالوت) (٢). وقد قادهم شاءول في المعارك بشجاعة، وكان داود أحد رجاله في هذه المعارك، ويحكى الأصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول بروز (جلبات) قائد الفلسطينيين الذي يسميه القرآن الكريم (جالوت) (٣) ودعوته بني إسرائيل للمبارزة، وقد استطاع داود أن يتغلب عليه، لسخرية جلبات به وعدم تأهبه لمنزلته، ومنذ ذلك الحين أخذ داود يملأ

(١) سفر صموئيل الأول الأصحاح الثامن.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤٩.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٤٩.

أعين الناس وأذهانهم وقلوبهم، فأثار ذلك حقد شاعول عليه، حتى عزم عليه قتله لئلا يزاحمه على الملك، ومن ثم أخذ يطارده مطاردة شديدة وينصب له شباك القتل أمدا طويلا، ولجأ داود إلى الفلسطينيين مرتين هاربا من شاعول (١)، وانتهز الفلسطينيون فرصة هذا الخلاف فهاجموا بني إسرائيل وأوقعوا بهم الهزائم العظيمة، وسقط شاعول في إحدى هذه المارك بوادي بزريعيل، وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطيني، ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان (٢).
وبعد موت شاعول قام صراع بين داود وإشبوشث بن شاعول يؤيده أبنيير قائد جيوش أبيه، ولكن داود تغلب عليهما، وذبحهما، فاستقر له الملك بذلك، فأصبح الملك الثاني لبني إسرائيل وبقي الملك وراثيا في عقبه، ومن أبرز أعمال داود أنه استولى على أهم مدن فلسطين وهي (أور سالم) أو (أورشليم) ومعناها بالكنعانية محلة السلام أو مدينة السلام، وكانت المنطقة التي تقع فيها هذه المدينة تحت سلطان اليبوسيين من القرن الخامس عشر ق م، واليبوسيون بطن من بطون كنعان، وقد سميت المدينة (يبوس) خلال مدتهم، ولما استولى عليها داود أعاد اسمها القديم (أورشليم) واتخذها عاصمة له، ونقل لها التابوت، وأعد بها مساحة منبسطة فسيحة ليشتد عليها الهيكل المقدس (٣).
واستكمالا للحديث عن تسمية هذه المدينة نذكر أنه في عهد الرومان الذي بدأ سنة ٦٣ ق م ز سميت هذه المدينة (إيلياء كايبتولينا) باسم المعبد الوثني الذي شيده أدريانوس سنة ١٣٥ م على إثر حرق المدينة وإزالة معالمها ومعالم هيكل سليمان، وفي العهد المسيحي عاش الاسمان (أورشليم وإيلياء)، فلما جاء الإسلام سميت هذه المدينة القدس أو بيت المقدس.

(١) صموئيل الأصحاح السادس عشر والاصحاحات التالية له.

Mistory of the Jewish People p: Margolis and Marx .٤٠

History of the world p: Wells .٩٢ (٢)

Civilization of the Near East P: Weech .٨٥ (٣)

ولنعد إلى داود لنقتبس مزيداً من التعريف به وبعده، يقول (Wells) (١) إن داود كان أكثر توفيقاً من شاول، وبتولية أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التي قدر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مدى الدهر كله، وهي تقوم على مخالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية التي يلوح أن ملكها حيرام كان رجلاً أوتي نصيباً كبيراً من الذكاء والقدرة على المغامرة، وكان ينبغي أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية، وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ولكن بعض العقبات حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطريق، ومهما يكن من شيء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات، وعند ذلك نشأت برعاية حيرام أسوار أورشليم ومقرها ومعبدها، وفي مقابل ذلك بني حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه.

وكان عهد داود - بناء على ما جاء في العهد القديم - غارقاً في دماء الضحايا، شديد القسوة، فيروى أن داود جمع كل الشعب وذهب إلى رية (عاصمة عمون وهي عمان اليوم) وحاربها وأخذها، وأخذ تاج ملك عمون عن رأسه ووزنه وزنة (قنطار) من الذهب مع حجر كريم، ووضعها على رأسه، وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً، وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفتوس حديد، وأمرهم في أتون آجر، وهكذا صنع بجميع مدن عمون، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم (٢).

ويقول Wells معلقاً على ما ورد بالكتاب المقدس عن قسوة داود ما يلي: وقصة داود مما تحوي من قتل وسفك دماء واغتياالات متلاحقة يأخذ بعضها برقاب

(١) المرجع السابق ص ٩٢ - ٩٣ وقرأ كذلك:

The Outline of History by Wells p ٢٨٣.

(٢) سفر صموئيل الثاني ١٢: ٢٩ - ٣١ وقرأ كذلك سفر الملوك الأول.

بعض أشبه بتاريخ أحد الرؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك ممدن (١). ويعترف الكاتبان اليهوديان Margelis and Marx بقسوة داود ولكنهما يعلنان لها بالثورات التي هبت ضده وبخاصة ثورة شيبه وأبشالوم (٢). وقبل أن ندع عهد داود إلى عهد ابنه وخليفته سليمان نذكر أنه ينبغي ألا نبالغ في تقدير سعة ملك داود، ونقتبس لذلك خريطة من j. W. D. Smith (٣) توضح أقصى اتساع لمملكة داود:
مملكة داود في أقصى اتساعها

-
- (١) The outline of History P .٢٨٣
(٢) .A. History the Jewish People pp ٥٥ - ٥٧.
(٣) God and Man in Early Israel p ٨٧

ويقول Wells (١) في ذلك: ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد وقعت يوماً في قبضة العبرانيين، على أن مما وطد ملك داود وهياً له شيئاً من الاتساع أن أمور مصري عهد كانت مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئاً من حرية الحركة والنشاط والتبسط وممارسة السيادة (٢) وحكم داود أربعين سنة منها سبع في حبرون والباقي في بيت المقدس (٣). ويختتم Wells كلامه عن داود بقوله: وآخر ما سجل من تصرفات داود تديره لولده الوسيلة لقتل شيمای (Shimei) وآخر ما سجل من كلماته عبارات (الدم) إذ يقول لابنه (واحذر شيبته بالدم إلى الهاوية) (٤) وهو بهذا يشير إلى أنه وإن كان شيمای الشيخ يحميه القسم الذي أخذه داود على نفسه للرب ما دام حياً، فما من عهد يرتبط به سليمان في هذا الشأن (٥). وجاء سليمان بعد أبيه داود وقد بدأ حكمه بقتل أخيه الأكبر أدونيا، وقتل بؤاب رئيس جيش أبيه، وعزل أبيانار الكاهن (٦)، وكانت حالة مصر

(١) The outline of History P .٢٧٩

(٢) أنظر كذلك العقد الثمين لأحمد كمال ص ١٥٢ وتاريخ مصر من أقدم العصور لبريستيد ص ٣٥٣ وتاريخ بني إسرائيل من أسفارهم لمحمد عزة دروزة ج ٢ ص ٢٠٢.

(٣) الملوك الأول ٢: ٢١.

(٤) الكتاب المقدس: الملوك الأول ٢: ١٠.

(٥) The Outline of History P .٧٨٤

(٦) الملوك الأول ٢: ٢٤ - ٢٧.

وآشور مرتبكة في مطلع عهد سليمان فنعم بالسلطان فترة من الزمن واستطاع أن يصاهر فرعون مصر (شيشنق)، ويعلق Wells على هذا الزواج بقوله: كان من الجائز أن يتنازل فرعون فيقبل في حريمه أميرة بابلية، ولكنه كان يرفض رفضا باتا أن يسمح لأميرة مصرية لها مالها من قداسة أن تصبح زوجة لعاهل بابلي، فما بالك بملك صغير كسليمان استطاع أن يتزوج أميرة مصرية، إن هذا يدل دلالة واضحة على انحطاط مهابة مصر وتدهورها في هذه الأثناء (١) ولكن حالة مصر بدأت في الانتعاش فعادت سيطرتها - الاسمية على الأقل - على فلسطين، ونشط أعداء مملكة سليمان فاستعادوا بعض البقاع التي كانت خاضعة لأبيه، وانكمش ملك سليمان في آخر عهده فأصبح غرب الأردن فقط (٢)، ويشرح Wells كيف لعب الخيال فصور مملكة سليمان صورة تفوق الواقع بكثير، قال Wells (٣):

من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور، فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكا صغيرا تابعا يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم، ونهب معظم ما فيها من كنوز، ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأيام، وهم يقولون أن الكبرياء

(١) The Outline of History P. ٢٨٦.

(٢) محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ج ٢ ص ٢٢١.

(٣) History of the World p. ٩٣.

القومي لدى كتاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء عن القصة والمبالغة فيها.

ويقرر Wells في موسوعته (معالم تاريخ الإنسانية) أن قصة ملك سليمان وحكمته التي أوردتها الكتاب المقدس. تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر، وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحي بل الإسلامي على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة، وقد أسهب سفر الملوك الأول في تصوير مجد سليمان وأبهته وفخامته، ولكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نبوخذ نصر... فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات... ولم يتجاوز سليمان بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة المعاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق، وكانت مملكة سليمان رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا، وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر الموقوت (١).

وقسم سليمان بلاده اثني عشر قسما إداريا، وتعتمد أن تكون حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثني عشر وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم، وأن يؤلف منهم شعبا واحدا، ولكنه أفلس في هذا وأفلس بلاد اليهود معه (٢).
وتصف التوراة مسألة الهيكل وقصر سليمان أبلغ وصف، وتصورهما

The Outline of History p .٢٨٧ (١)

(٢) ول ديورانت. قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

في حالة رائعة من الجلال والعظمة (١)، وقد سبق أو أوردنا عبارة Wells التي تفيد أن أسوار أورشليم وقصرها ومعبدتها نشأت برعاية حيرام ملك الفينيقيين، على أن Wells يعود مرة أخرى فيتحدث عن مدى الجلال في هيكل سليمان، فيقول: إننا لو استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان لوجدنا أن في الامكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي.

ويرى جوستاف لوبون (٢) أن وصف الهيكل وقصور سليمان بولغ فيه، وإن هذه الأبنية تمت على كل حال بأيدي الأجانب إذ جاء العمال المهرة من فينيقية، ويختم غوستاف لوبون كلامه بقوله: لا ينبغي لنا أن نحدث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بني إسرائيل، وقل مثل هذا عن فن البناء عندهم، فانظر إلى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) الذي نشر حوله كثير من الأبحاث المملة تجده بناء أقيم على الطراز الآشوري المصري من قبيل بنائين من الأجانب كما تدل عليه التوراة، ولم تكن قصور سليمان غ ير نسخ رديئة للقصور المصرية أو الآشورية. ويختم Wells كلامه عن سليمان بقوله: (وواضح مما تقصه التوراة أن سليمان بدد ما يملك في المظاهر، وأنه أبهظ شعبه بالعمل والضرائب (٣) ولعل Wells يشير إلى ما ورد في سفر الملوك الأول من أنه بعد موت

(١) الملوك الأول الأصحاحات الخامس إلى الثامن.

(٢) اليهود في الحضارات الأولى ص ٤٥ و ٤٦.

(٣) History of the World P .٩٣ ومعالم تاريخ الإنسانية ص ٣٨٨.

سليمان اجتمع شيوخ بني إسرائيل وكلموا ابنه رحبعام قائلين: إن أباك قسى نيرنا، وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا (١) وبموت سليمان انتهى عهد الوحدة وبدأ عهد الانقسام، ويوضح Weech أن بذخ سليمان وقسوته وكثرة زوجاته والخلاف بين أولاده كان السبب في انقسام المملكة وزوالها (٢).

٣ - عهد الانقسام وزوال ملك بني إسرائيل:

بعد وفاة سليمان حوالي سنة ٩٣٥ أعلن رحبعام نفسه ملكا على دولة اليهود، وبايعه سبطا يهوذا وبنيامين في أورشليم على ذلك، ثم اتجه رحبعام إلى الشمال لأخذ البيعة من باقي الأسباط، فاجتمع حوله شيوخ بني إسرائيل في شكيم (نابلس الآن) وانضم لهم أخوه يربعام الذي كان قد ثار على أبيه وفشلت ثورته فهرب إلى مصر، وعاد إلى فلسطين بعد وفاة سليمان، وقالوا لرحبعام العبارة التي سبق أن سقناها عن قسوة سليمان وشدة تضيقه عليهم وطلبوا منه أن يخفف من نيره، ونصح المستشارون الشيوخ رحبعام بقبول ذلك الرجاء ولكن زملاءه من الأحداث حذروه من ذلك، ونزل رحبعام على رأي الأحداث وأعلن للقوم أن خنصره أغلظ من متني أبيه، وأن أباه أذبهم بالسياط وهو سيؤدبهم بالعقارب. ولذلك رفض شيوخ الأسباط في الشمال أن يبايعوه،

(١) الأصحاح ١٢ الفقرة الرابعة.

(٢) Civilization of the Near East P .٨٥

وبايع الأسباط العشرة يربعام ملكا، وأراد رجبام أن يحارب أخاه ولكن النبي شمعيًا نصحه بالعدول عن الحرب، وهكذا انقسمت المملكة إلى مملكتين جنوبيه اسمها يهوذا وعاصمتها أورشليم، وشمالية اسمها إسرائيل وعاصمتها شكيم (١).

ومن مطالعتنا للعهد القديم (٢) وللمراجع التاريخية (٣) يمكن أن نوجز تاريخ هاتين المملكتين في العبارات الآتية:

- ضعفت مملكة سليمان آخر أيامه وبخاصة عندما ثار عليه ابنه يربعام وأيده كثير من الشيوخ نتيجة لسياسة سليمان في الضغط وتحصيل الضرائب، وكان سلطان مصر شيشنق قد بدأ يقوى، وأصبح في حالة تمكنه من استعادة سلطانه على فلسطين لولا الابقاء على صلة النسب بينه وبين سليمان، عن أن شيشنق مهد لاستعادة سلطانه على فلسطين باغتيال حيرام ملك صور الذي هيأت تجارته أنواعا من الغنى لداود وسليمان. وكذلك بحمايته ليربعام الابن الثائر على أبيه.

- لما مات سليمان بدأ شيشنق ينفذ تخطيطه، واستغل يربعام في ذلك، فلما نجح يربعام في تقسيم الدولة والتسلط على جزئها الشمالي كان ذلك في الحقيقة انتصارا عمليا لفرعون مصر، ولم يكنف شيشنق بهذا بل

(١) موجز من سفر الملوك الأول: الاصحاحان ١١ - ١٢.

(٢) سفر الملوك الأول والثاني.

(٣) مثل يريستد: تاريخ مصر من أقدم العصور، والعقد الثمين لأحمد كمال،

وتاريخ سورية للمطران الدبس، وتاريخ بني إسرائيل من أسفارهم لعزة دروزة و...

History of the Hebrew People by Margolis and Marx. A

غزا فلسطين وصعد على أورشليم ونهبها وبسط سيطرته على دولة يهوذا ثم على دولة إسرائيل وامتد سلطانه إلى الجليل.

- تعرضت هاتان الدولتان أيضا إلى الضغط من جهة الشمال، للقضاء على القوة اليهودية الدخيلة في المنطقة من جهة، وللمنافسة بين العراق ومصر من جهة أخرى.

- كانت دولة إسرائيل تمثل أغلبية الأسباط، وكانت أوسع رقعة من دولة يهوذا، ولكن دولة إسرائيل كانت مضطربة كثيرة الانقلابات، في حين كانت دولة يهوذا أكثر استقرارا وهدوءا. ومن أجل هذا تقلب على عرش مملكة إسرائيل ملوك من أسر متعددة، وتغيرت عاصمتها مع الانقلابات أكثر من مرة، أما يهوذا فقد ظل الملك بها في سلسلة متصلة من ذرية سليمان وظلت عاصمتها أورشليم، وتساوى عدد الملوك هنا وعددهم هناك (١٩ ملكا).

- يتحدث سفر الملوك الأول والثاني وسفر الأيام الأول بإفاضة عن المعارك التي تكاد تكون متصلة بين دولتي اليهود من جانب ومجاورهم من جانب آخر، وكذلك عن الوقائع الغادرة بين دولة يهوذا وبين دولة إسرائيل، وطالما استعانت إحدى هاتين الدولتين على الأخرى بدولة مجاورة، وكان وقوع دولتي اليهود بين مصر من جهة وآشور وبابل من جهة أخرى ماثرا لحروب طويلة كانت فلسطين ميدانها، حتى يمكن القول بأن عهد الانقسام كان عهد دماء تسيل، وأرواح تزهق، وأنين ينبعث.

- أما نهاية الدولتين والطريق إلى النهاية فيصفه Wells أبلغ وصف في

قوله (١): لم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمدًا وجيزًا، فمات حيرام، وانقطع عون صور الذي كانت تقوى به أورشليم، ثم قويت شوكة مصر، ثانية، وأصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرحي، تعرّكهما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب، وهي قصة نكبات، وقصة تحرّرات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية، هي قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق م محت يد الأسر الآشوري في عهد الملك سرجون الثاني ملك آشور مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق م. الأسر البابلي:

نعود هنا لإعطاء مزيد من التفصيل عن سقوط دولتي اليهود، وما تبع ذلك من نفي وأسر، فقد تم سقوط مملكة إسرائيل على يد سرجون الثاني ملك آشور، الذي اعتقل هوشع بن أيله آخر ملوكها، ونفاه مع عدد من رجاله إلى مملكته، وأقام عليها واليا يحكم باسمه، وفي سنة ٦٠٨ ق م زحف فرعون مصر على مملكة يهوذا، فاحتلها، واستمر في زحفه فاحتل مملكة إسرائيل التي كانت قد سقطت تحت سلطة الآشوريين كما سبق القول، وقد ثار لذلك ملك بابل نبوخذنصر (بختنصر)، الذي آل له السلطان على آشور وزحف على فلسطين، فهزم فرعون مصر واستعاد مملكة إسرائيل، ثم احتل مملكة يهوذا، وقتل صدقيا بن بواقيم آخر ملوك يهوذا ونهب أورشليم

History of the World P .٩٣ (١)

ودمرها ودمر معبد سليمان وسبى أكثر السكان إلى بابل، وفر بعضهم إلى مصر وغيرها من الأقطار، وأقام بختنصر على فلسطين واليا من قبله، وانتهى بذلك ملك اليهود بفلسطين، ويعرف هذا بالأسر البابلي، وهذا هو التدمير الأول للمدينة والمعبد ويذكر Guiginbert أن الأسر البابلي لم يشمل أولئك البسطاء الذين ليست لهم حماسة دينية كالفلاحين وصغار الصناع، فقد ترك السيد الحديد هؤلاء يعملون له إذ لم يتوقع منهم أية معارضة (١).

وهنا نجيب على سؤال يروجه اليهود ويخدعون به جماهير الناس. وهو: إلى أي مدى يمكن أن تعد فلسطين وطنا قوميا لليهود بسبب حياتهم بها هذه الفترة؟

والإجابة تكون بإبراز حقائق لا تحتمل التأويل سبق أو أوردناها في هذا البحث، وليس دورنا هنا إلا تجميعها في هذا المكان بإيجاز: فأولا: دخل بنو إسرائيل فلسطين غزاة من الخارج دون أن يكون لهم بها جذور أو تاريخ، واستعملوا القوة والوحشية ليحصلوا على الانتصار على السكان الأصليين.

وثانيا: لم يستطع اليهود أن يمدوا سلطانهم إلى كل فلسطين، ووقفوا عند منطقة التلال الداخلية، أما منطقة الساحل فقد ظلت في أيدي السكان الأصليين.

(١) ٣١ - ٣٠. The Jewish world in the Time of Jesus pp

وثالثا: لم يعرف بنو إسرائيل بفلسطين حياة الاستقرار على الاطلاق، وظل السكان الأصليون يناضلون ضدهم حتى أخرجوهم. ورابعا: كانت مدة بني إسرائيل بفلسطين منذ دخول يوشع حتى سقوط مملكة يهوذا حوالي خمسة قرون وهي أشبه بمدة هولندا بإندونيسيا وبريطانيا بالهند، والعجيب أن هناك تشابها من نوع آخر فقد أطلقت هولندا على إندونيسيا اسم جزر الهند الهولندية إشارة إلى التملك الذي تدعي إسرائيل مثله بفلسطين، ولكن الصراع الوطني أعاد الحق إلى نصابه. وخامسا: أحسن المجاورون لفلسطين من الشمال ومن الجنوب بالعنصر الغريب الذي دخل المنطقة، فاشترك هؤلاء المجاورون في الصراع حتى قضى على هذا العنصر الغريب.

ويقول Weech واصفا حياة اليهود في فلسطين: إن اليهود لم يكن لهم منفذ يذكر على البحر، فالموانئ الشمالية كانت تحت سلطان الفينيقيين، وموانئ الجنوب كانت تابعة للفلسطينيين، ومن ناحية الزمن فإن اليهود لم تكن لهم قوة إلا خلال نصف قرن فقط، وحتى في تلك الأثناء كانوا محاطين بممالك أكثر قوة وأرقى مدنية وحضارة (١).

ويقول Wells معلقا على عهد بني إسرائيل بفلسطين: لقد كانت حياة العبرانيين بفلسطين وبخاصة خلال القرون الثلاثة الأخيرة. أشبه بحياة رجل أصر على الوقوف وسط ميدان صاخب، فكان مصيره أن دهمته السيارات (٢) وهكذا انتهت القرون التي عاشتها الملكية العبرانية، وكانت من بدايتها إلى

٨٢ .E. H. Weech: Civilization of the Near. East p (١)

٢٨٨ .The Outline of History p (٢)

نهايتها مجرد حديث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا (١).

اليهود بعد سقوط إسرائيل ويهوذا:

خلت فلسطين تقريبا من اليهود إثر سقوط مملكتي إسرائيل ويهوذا، وفي سنة ٥٣٨ ق م احتل قورش ملك الفرس بلاد بابل، ومن ثم أصبح له السلطان على أرض يهوذا، وأطلق الفرس على شعب يهوذا اسم اليهود، وأطلقوا على عقيدتهم اسم اليهودية (٢)، ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة (اليهود) تعني من اعتنق اليهودية، ولو لم يكن من بني إسرائيل (٣)، وهذا هو الفرق بين اليهودي والإسرائيلي وسمح قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين واستئناف عهد الحرية بها في ظله، ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة البابلية وامتدت بها أعراقهم، وعرفوا بها خصب العيش، والتجارة الراححة، ومن ثم فقد ترددوا طويلا في العودة للقفار والصراع حول المدينة المقدسة، وبعد هذا التردد استقر رأي الأغلبية الساحقة على البقاء حيث كانوا بالعراق ومصر وغيرهما من البلاد التي نزحوا إليها عقب سقوط دولتهم على يد بختنصر (٤)، ولم تقبل العودة إلى فلسطين إلا قلة بدأت رحلتها بعد سنتين

(١) Ibid P .٢٩٠.

(٢) سليمان مظهر: قصة العقائد ص ٣١٨.

(٣) دكتور جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٩٥ وصبح الأعشى

ج ١٣ ص ٢٥٣.

(٤) East P - Civilization of the Near: Weech .٨٧.

من مجيء قورش، وقد أعاد هؤلاء بناء المدينة المقدسة، كما بنوا بها معبدا صغيرا مكان الهيكل بتصريح من قورش (١)، وكانت عودة اليهود من المنفى عودة الجموع وليست عودة الدولة، فإن بعض بني إسرائيل عادوا ولكن دولتهم لم تعد، فقد صاروا جماعة تابعة للحكم الفارسي وخاضعة له، وكانت المناوشات لا تنقطع بينهم وبين حكامهم الفرس، ومن أجل ذلك رحبوا بالإسكندر الأكبر عندما زحف على فلسطين سنة ٣٢٠ ق. م، وقد آل حكم فلسطين إلى البطالسة بعد الإسكندر.

المكابيون:

لم يستقر اليهود في ظلال الحكم الجديد، كما لم يعرفوا الاستقرار قط، ومن أبرز ثوراتهم في هذا العهد تلك الثورة التي قاموا بها سنة ١٦٧ ق م بقيادة الكاهن ماتياس، وقد هزم فيها ماتياس وهرب ومات في العام التالي، فتولى ابنه مكابياس قيادة الثائرين، وقد دفع حياته سنة ١٦١ ق م ثمنا لعصيانه، وإلى هذا الكاهن تنسب أسرة المكابيين التي حاولت أن تحقق - دون جدوى - أي لون من ألوان الاستقلال لليهود، وطالما سقطت القادة من هذه الأسرة قتلى بيد الأمراء السوريين، وفي سنة ١٠٤ ق م استطاع القائد المكابي ارستبولس أن يأخذ لقب (الملك) ولكن عهده لم يطل، وقد أدى طول الاحتكاك بين المكابيين والسوريين إلى أن يصطنع المكابيون تقاليد السوريين وعادات الأمراء المجاورين، وكانت أسرة المكابيين، أقرب إلى القادة العسكريين، منها إلى أسر الحكام. (٢)

وفي هذه الأثناء كانت الدولة الرومانية ترقب هذا الصراع لتنتهز فرصة

Struggle of the Nations p: Maspero .٦٣٨ (١)
Guignebert The Jewish World at the Time of
٣٣ - ٣٢ jesus p. p

للتدخل وحانت لها هذه الفرصة عندما هب صراع داخلي بين قائدين متنافسين من اليهود فاكنسح الرومان فلسطين سنة ٦٣ ق. م واستولوا على القدس بقيادة القائد الروماني پامبيوس.

وفي عهد الرومان حلت أسرة هيرودس محل المكابيين، وقد استطاع هيرودس الكبير (٧٢ - ٤ ق م) القضاء على آخر ملوك المكابيين ليثأر لأبيه الذي كان ضحية عدوانهم، وحاول هيرودس أن يرضى اليهود فبنى هيكلًا على نسق هيكل سليمان سنة ٢٠ ق م، وقد ظل هذا الهيكل حتى سنة ٧٠ م حيث دمر الإمبراطور تيطس الروماني مدينة أورشليم وأحرق الهيكل على أثر ثورة قام بها اليهود بالمدينة (١)، وهذا هو التدمير الثاني للمدينة والمعبد.

وإذا كان تيطس قد اكتفى بتدمير المدينة والهيكل وأبقى الحطام مكانه فإن أدريانوس أزال معالم المدينة ومعالم الهيكل تماما سنة ١٢٥ م، إذ حرث الأرض وسواها وزرعها كما تخلص تماما من اليهود بها بين قتل وتشريد، فلم يبق بها يهودي واحد، ورحل من استطاع الهرب منهم إلى مصر وشمال إفريقيا وإسبانيا وأوربا. وأقام الإمبراطور الروماني أدريانوس مكان الهيكل اليهودي هيكلًا وثنيًا باسم جوبيتار Jupiter رب الآلهة عند الرومان إذ لم تكن المسيحية قد اعترف بها بعد، وبقي هذا الهيكل إلى أن قامت المسيحية في أورشليم، فدمره المسيحيون من أساسه في عهد الإمبراطور قسطنطين (٢).

(١) ١٠٨. The Jewish P: James Hosmer

(٢) محمد علي علوية: فلسطين والضمير العالمي ص ٥٤ - ٥٦ ولواء محمد صفوت إسرائيل العدو المشترك س ٢٥.

آيات سورة الإسراء وإفساد بني إسرائيل في الأرض:
عندما وقعت الهزيمة ضد مصر والأردن واحتل اليهود بيت المقدس سنة ١٩٦٧
بمساعدة التخطيط الأمريكي والسلاح الأمريكي، قام جماعة من المسلمين بتوجيه
بعض آيات القرآن الكريم لتكون ملائمة لهذا الحادث الأليم، وهذه
الآيات هي الواردة في سورة الإسراء وهي قوله تعالى: (وقضينا إلى بني
إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا، فإذا جاء وعد
أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا
مفعولا، ثم ردنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم
أكثر نفيرا، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد
الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا
ما علوا تتبيرا، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا
(١)).

واعتقادنا أن هذا التوجيه خاطئ وأن مرتي الافساد المذكورتين في هذه
الآيات قد وقعتا قبل الإسلام، وهو ما أجمع عليه كل المفسرين القدامى،
والذي نؤكد أنه مرات الافساد التي قام بها اليهود كانت كثيرة، وأن سحقهم
وتدميرهم نتيجة لذلك حصل عدة مرات، ولكن القرآن الكريم يبرز مرتين
من مرات الافساد، كما يبرز العقوبة عليهما، واعتقادنا أن المرة الأولى تتمثل في
عهد الاضطراب والقلق والفوضى والظلم الذي غمر فلسطين بعد وفاة النبي سليمان
وانقسام المملكة إلى مملكتين يهوذا وعاصمتها اورشليم وإسرائيل وعاصمتها
شكيم، وماتلا ذلك من طغيان ودمار وقسوة، وقد عاقبهم الله على ذلك بأن
سلط عليهم الملك سرجون مالك آشور فقضى على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق م

(١) سورة الإسراء الآيات من ٣ - ٨.

وبختنصر ملك بابل فقضى على مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ ق. م، وقد أشاع
بختنصر فيهم القتل والأسر ودمر المدينة والهيكل.
ثم جاءت فترة استبعاد فيها اليهود كيانهم وذلك في عهد قورش الفارسي
الذي انتصر على بختنصر ملك بابل وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين ولكن
سرعان ما اعتوا مرة أخرى وكثر طغيانهم فتصدى لهم الإمبراطور الروماني
تيطس ودمر مدينة أورشليم وأحرق الهيكل.
ذلك هو رأي المفسرين القدامى ورأي علماء التاريخ، على أن هناك نصا
مهما في هذه الآيات الكريمة وهو قوله تعالى (وإن عدتم عدنا) وتفيد هذه
الآية احتمال طغيان بني إسرائيل مرات أخرى ووعيد أن ينزل بهم ما يستحقون
من عقاب. وما فعله اليهود في العصر الحاضر في فلسطين وفي بيت المقدس عود
منهم إلى الظلم والطغيان وندعو الله أن يساعدنا على طردهم والثأر منهم تحقيقا
لوعوده، حتى نزيل عن أرضنا الطيبة ما نزل بها من طغيان وظلم.
المسلمون بفلسطين:

وفي سنة ٦٣٦ م فتح المسلمون فلسطين، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت
فلسطين عربية دما ولحما، أو قل عادت إلى فلسطين عربيتها الكاملة، فقد
كانت قبل أن يعرفها اليهود عربية من أثر الهجرات العربية المبكرة لها، ثم
دخلها اليهود على ما ذكرنا آنفا، وأخيرا جاء الفتح الإسلامي فأعاد الحق إلى
نصابه، ورفع من جديد شعار العروبة بهذه البلاد، وكانت آنذاك خالية من
اليهود تماما، وكان من شروط تسليم المدينة التي اشترطها صفر ونيوس بطريك
النصارى على المسلمين ألا يسكن المدينة المقدسة أحد من اليهود (١)، وأصبحت
فلسطين بذلك عربية إسلامية.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٥٩.

الحروب الصليبية ودور اليهود فيها:
وجاءت الحروب الصليبية، وفي الجولة الأولى منها، استطاع الصليبيون أن يستولوا على بيت المقدس وعلى شريط ساحلي ضيق، ويتضح من دراسة هذه الحروب أن اليهود كانوا من وراء الصليبيين، وكانوا من الأسباب الخفية التي دفعت بالصليبيين لغزو البلاد المقدسة، فقد رأى اليهود أنهم عجزوا عن العودة للبلاد المقدسة بأنفسهم فحاولوا العودة خلف المسيحيين، وقد اتخذ اليهود المال وسيلة لهم، فأخفوا مشاعرهم الدينية والوطنية خلف المال، إذ كانوا يمثلون أغنى مراكز التجارة على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، فساعدوا الصليبيين ليقوموا بهذه المغامرة باسم الصليب لفتح الطريق التجاري إلى الشرق عبر فلسطين، ولكن الشعار اليهودي كان في الحقيقة أقوى من الصليب وأقوى من المال (١)، وعلى كل حال فإن صلاح الدين الأيوبي سرعان ما استعاد بيت المقدس بعد موقعة حطين، وتساقت البلدان الأخرى في يده ويد من جاءوا بعده (٢)، وبقيت فلسطين عربية إسلامية حتى قيام دولة إسرائيل على ما سيجيء.

عصر التسرد وأثره:

عقب سقوط دولة إسرائيل تحت أقدام الأثوريين تفرق سكانها اليهود ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، ولم يعد لهم في التاريخ ذكر، أما اليهود الذين

(١) ١٣٧. See The Jews by James Hosmer P.

f. ٣٦٥. See also: Medieval Europe by Ephraim Emerton p

(٢) اقرأ الحروب الصليبية للمؤلف في الجزء الخامس من التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

سيقوا إلى بابل عقب سقوطه مملكة يهوذا فهم الذين عاد بعضهم إلى بيت المقدس في عهد قورش، ومن أعقابهم جاء اليهود الذين عاصروا الأحداث عقب ذلك، وقد قلنا آنفا إن هؤلاء اليهود خضعوا لمصر وبابل والفرس واليونان والبطالسة والرومان، وكانوا يعادون الجميع وينتهزون الفرص للثورة على سادتهم، ومن أجل ذلك أنزل بهم هؤلاء السادة ألوانا من التدمير والتعذيب، وكانت سنة ١٣٥ م نهاية حياة اليهود بفلسطين، وقد أدركوا ألا مقام لهم بهذه البلاد، فساحوا في الأرض، وأقاموا هنا وهناك، وبدا لهم بذلك عصر تشرد طويل يصوره Rane Sedillot (١) بأنه عود باليهود إلى سيرتهم الأولى خروجهم من مصر مع موسى حيث عاشوا في انحلال وتشرد، وقد نزلوا خلال هذه الفترة الطويلة أكثر دول أوربا كما نزلوا بمصر وشمال إفريقيا واليمن وغيرها من الدول، وقد كان هذا العصر بالغ الأثر في سلوك اليهود وتصرفاتهم.

كانوا يرون فلسطين وطنا لهم، ولكنهم الآن فقدوا الوطن. كانوا أمة متجمعة، فأصبحوا أشتاتا هنا وهناك.

كان لهم هيكل يتعبدون به ويقدمون بمذبحه القرابين، ولكن الدمار نزل بالهيكل والمذبح.

كانوا يرون أنفسهم شعب الله المختار، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم شعبا مضيعا، مكروها كسير الجناح.

(١). ٣٩. P The History of the World

وعاشوا بين الأمم تلاحقهم العزلة التي تكلمنا عنها من قبل، والتي كانت من أبرز خصائصهم، فأصبحوا ضيوفا ولكنهم كانوا ضيوفا ثقلاء، وما بالك بضيف يرى نفسه أرقى عنصرا من المضيف وبغريب يفضل نفسه على صاحب الدار؟

ونقطة مهمة أخرى برزت في عصر التشرّد، تلك أنهم وقد فقدوا وطنهم - حقدوا على كل من له وطن، وكرهوا الأوطان والمواطنين. ولست أدري هل نستطيع ونحن في بحث علمي أن نلجأ إلى الأدب ليشرح لنا هذه النقطة، هناك قصة رقيقة للمرحوم أحمد شوقي يصف فيها عصفوريتين هزيلتين وقفتا على غصن جاف بالجزيرة العربية، فمر عليهما نسيم عليل وفد من اليمن، فتوقف النسيم وتحدث للعصفورتين، فوصف لهما الزرع والحب والماء باليمن، وأغراهما بأن يركبا ليأخذهما إلى الرياض هناك، ولكن العصفورتين ثارتا على النسيم ووصفتاه بأنه لكثرة تنقله لا يعرف حلاوة الأوطان، وأنه يغريهما بالتمرد على الوطن ليكونا مثله بدون وطن. واختتم شوقي مقطوعته بقوله عن لسان الصعفورتين:

يا ريح أنت ابن السبيل* ما عرفت ما السكن
هب جنة الخلد اليمن* لا شئ يعدل الوطن
وهكذا كان اليهود أعداء لكل الأوطان ولكل من لهم أوطان، وكأنما كان لسان حالهم يهتف:
لماذا فقدنا - دون الناس - وطننا؟

لماذا نشرد والناس مستقرون؟ وترتب على ذلك أنهم لم يعرفوا الولاء لوطن نزلوا به، ولا حققتهم من جديد عزلتهم التي سبق أن تكلمنا عنها، والتي كانت أبرز صفاتهم، فإذا بهم يعيشون في أحياء خاصة بهم، وكان حي اليهود دائما قدرا مظلما غير صحي يعرف باسم (الغيتو) نسبة إلى اليهود في روما، وشاع هذا الاسم في غير روما أيضا. وكانوا كذلك يعيشون في كل بلد فكانت لهم في القاهرة حارة وفي الإسكندرية حارة تحمل اسمهم.

وكان مجتمع اليهود مصدر الخيانات والمؤامرات ضد كل بلد نزلوا فيه، وقد صور كثير من الكتاب انعزالية اليهود وانتهازياتهم وحيانتهم للبلاد التي نزلوا بها سواء في ذلك إبان تاريخهم القديم، أو في التاريخ الحديث، يقول الدكتور عبد المعز نصر (١).

لم يكن فرعون بعد بني إسرائيل جزءا من قومه لأنهم عاشوا في عزلة عن الشعب، ولأنهم جاءوا إلى مصر لا ليقيموا ويندمجوا، بل ليخرجوا منها بعد أن تتجمع لهم في مصر قوة المال والعدد، وهذا ما رسمه لهم (يهوه) ربهم إذ قال مخاطبا إسرائيل: (أنا أنزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضا) وقد استشعر فرعون الريبة من ناحية بني إسرائيل وتوجس انضمامهم إلى الأعداء إن دخلت مصر في حرب، فعيونهم متجهة إلى الخارج لا إلى الداخل، ومن الغريب أن ما توقعه فرعون مصر القديمة كان الحقيقة الواقعة التي جربها الألمان

(١) الصهيونية في المجال الدولي ص ٤٠.

مع اليهود في الحرب العظمى الأولى خلال القرن العشرين، وذلك حين تأمرت الصهيونية مع الحلفاء على إثارة اليهود في ألمانيا ضد الوطن الذي آواهم، فألقى الحلفاء من الجو على مدنها وثيقة بلفور إيذانا لهم بأن يقوموا برسالتهم التاريخية وهي رسالة الغدر الوطني.

وقد عدد هتلر خيانات اليهود لألمانيا فذكر منها استنزاف أموال الشعب بالربا القادح، وإفساد التعليم، والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية، والسيطرة على دور النشر، والتدخل في سياسة الدولة لغير مصلحة الدولة، وفي القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا الذي احترفه عدد كبير منهم (١).

ويعدد المؤرخ الدكتور أحمد بدوي بعض ما شاهده من خيانات اليهود لألمانيا بقوله:

أنا أعلم - وأشهد الله على ما أعلم - أن أدولف هتلر لم يكن متجنيا ولا ظالما عندما وقف يدفع عدوان اليهود عن وطنه، بعد أن أكلوا أرزاق هذا الوطن وحاولوا إذلاله، فقد خرج الشعب الألماني من الحرب العالمية الأولى مغلوبا على أمره، كسير الجناح، فانتهز اليهود فرصة تلك المحنة، وعملوا على تجويعه وإذلاله والعبث بكرامته وعرض أهله، فملئوا مدن البلاد بدور الفسق والدعارة، يتجرون فيها بأخلاق الشبان من الجنسين بغية الكسب والاثراء، ورموا هناك بذور الخلاف

(١) Passim, My Struggle.

السياسي والاقتصادي حتى مزقوا الألمان أحزابا مختلفة، يتعب العد من حصرها. (١)

ومثل اليهود هذا الدور أيضا في روسيا أوضح تمثيل، فقد كان في روسيا في القرن التاسع عشر أكثر من نصف يهود العالم، ولكنهم عاشوا طفيليات قذرة، وكانوا خونة ومردة على القوانين، فالفقراء منهم فتحوا الحانات وتاجروا في الخمور، والأغنياء عملوا في الربا الفاحش، والتجار اصطنعوا الحيل لتكسد تجارة الأميين، والعمال عملوا بأرخص الأجور حتى يوقعوا العمال الآخرين في الشطط، واتفق اليهود جميعا على الهرب من التجنيد بوسائل متعددة، وصلت إلى تشويه الجسم وقطع بعض الأعضاء، وهكذا أثبت اليهود في البلاد التي سكنوها أنهم في السراء لهم أو في نصيب، أما في الالتزامات والمكافرة فدأبهم الفرار والهرب.

وهكذا كان اليهود في كل بلد عاشوا فيه في الشرق والغرب، وتعدى خطرهم لدى المسيحيين المال إلى الدماء، ويصور (باركس) صورة اليهود لدى المسيحيين بقوله: لقد كان معتقدا أن اليهودي يطلب دم المسيحي لأغراض الطقوس الدينية، وأنه يسرق الأطفال المسيحيين ويقتلهم لهذه الحاجات، وكان معتقدا أنه يسمم الآبار وينشر الأمراض، وانتشرت الإشاعات دائما من بلد إلى بلد، بأنه في حلف مع العرب المسلمين والتمر وجميع أعداء المسيحية، وقد كان في ذاكرة عامة أوروبا يمثل أكثر من مجرد البلاء الاقتصادي، فقد كان يمثل العدو الخبيث الخطر الذي يسعى

(١) في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٨٧ - ٨٨٨.

أبد الدهر ليحطم كلا من بدن العدو المسيحي وروحه.
ماذا كانت نتيجة هذه الخيانات؟

كانت النتيجة أن أنزل بهم العالم ضربات قاصمة، وعقوبات صارمة، شملت التنكيل والطرْد والسجن ومصادرة الأموال (١)، ويقرر Hosmer أن كل الأمم المسيحية اشتركت في اضطهاد اليهود وإنزال مختلف العنت بهم، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضا عليها (٢). ولكن ذلك ضاعف حقدهم، فارتفعت أصواتهم بالشكوى مما سموه ظلما واضطهادا، ولم يكن ذلك في الواقع إلا نتيجة لانحرافهم وحيانتهم. وتكررت هذه الدورة في كل مكان عاش به اليهود، حقد ومؤامرات وخيانات من اليهود، فانتقام منهم وعدوان عليهم، فصراخ وشكوى وأنين، وقد نجح صراخ اليهود في أن يبرز للعالم ما نزل بهم من ضيم، وربما استطاعوا أن يصوروا أنفسهم في صورة المظلوم المعتدى عليه، وأن يستدروا بذلك أحيانا عطف الناس الذين خدعهم الأنين.

ونجح اليهود في أن يصورا للعالم أن إنصافهم يكن في تجمعهم في وطن قومي، يكونون هم سادته ورعيته، ووجد كثير من الناس في هذا الحل وسيلة للتخلص من اليهود وشروهم، فأيدوهم فيه حتى ينزاحوا عن بلادهم، فكان ذلك من أسباب ما لا قوه من تأييد في اغتصابهم فلسطين في العصر الحديث.

(١) See: The History of the World, Ed. by Rese Sedillot pp

١٥٨، ٨٢ - ١٥٩

(٢) James Hosmer: the Jews p ١٣٨

ونعود لنضع في الميزان ما نزل باليهود من عسف واضطهاد، فنقرر أنه نزل بالعرب أضعاف أضعاف هذا العدوان، أنزله بهم ظلما الصليبيون والمغول والعثمانيون والفرنسيون والإنجليز والطيالان، ولكن العرب لم يعرفوا الصراخ ولم يتخذوه وسيلة لاستدرار العطف، فبدا اليهود للناس منكوبين يستحقون العون، وتنوسى ما نزل بالعرب من نكبات وبلايا.

في الطريق إلى العودة:

أوضحنا أن وضع اليهود في البلاد التي نزلوا بها كان وضعا قلقا، إذ كانوا يكونون طبقة خاصة منعزلة عن باقي الطبقات ومعادية لها، ومع هذا فقد أتيح للكثيرين منهم ثراء عريض بسبب تعاونهم مع بعضهم البعض وانتهازهم الفرص وبراعتهم في الشؤون الاقتصادية، حتى سماهم Rene Sedillot: ملوك المال وسادة البنوك في العالم الذين لم يخضعوا قط للقانون في شؤون الربا وشؤون التجارة (١)، وترتب على هذا الثراء أن انصرف بعضهم عن التفكير في فلسطين والعودة إليها، ولكن البعض الآخر وجد في فلسطين الملجأ الذي يحميه من الاضطهاد والقلق، فأصبحت فلسطين لهؤلاء أغنية يتغنون بها وأملا يتطلعون إليه، ومن هؤلاء لورد بيرون الذي خلد تشريد بني إسرائيل في أغانيه العبرية إذ قال: إن للحمامة البيضاء عشا صغيرا، وللثعلب وكرا، ولكل إنسان وطنه، ولا وطن لليهود. وجاء دزرائيلي فحذب على قضية اليهود في روايته دافيد أكروا، وجعل بطلها يقول: تساليني عن أعز أمنية عندي،

The History of the World P. ١٧٥ (١)

وجوابي: هي أرض الميعاد، وتسأليني عما يداعب أحلامي، فأقول:
أورشليم. وتسأليني عما يستهوي فؤادي فأقول: إنه الكنيس (١).
وهناك شاعر يهودي آخر وصف في العهود المتأخرة ذكرى القافلة
البائسة التي كان نبوخذنصر قد ساقها إلى بابل في أغنية رائعة جاء فيها:
لئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يميني حذقها
وليلتصق لساني بسقف حلقي إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم تكوني لدي خيرا من أفراحي (٢)
ومن أناشيد الشاعر اليهودي ن أمير نقل الفقرة الآتية:
مثل قصف الرعد الذي يشق لهيب السحب نصفين
يدوي في آذاننا صوت صادر من صهيون
ويناديننا قائلاً: يجب أن تظل نفوسكم
تواقة إلى الأبد لأرض آبائكم وأجدادكم
حتى ننقذ من يد الأعداء نهرنا المقدس
ونعود إلى ضفاف الأردن (٣)

وبينما كان اليهود يعيشون في هذا التردد بين التشرذم مع المال، أو
المغامرة من جديد لاستعادة فلسطين، ظهرت جهة أخرى يعنىها أمر فلسطين،
تلك الجهة هي الاستعمار الذي أخذ يتحالف مع اليهود لتحقيق الغرض المشترك
وهو القضاء على عروبة فلسطين ونقلها لليهود على أن تكون تابعة للمستعمر
وسائرة في ركابه.

-
- (١) نقلا عن (هذه الصهيونية) لإسرائيل كوهين ص ٣٠.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ١ ص ٣٥٨.
(٣) من الفكر اليهودي ص ١٤٩.

ومن جهة اليهود ليس هناك وفاء أو صلوات خاصة تدفعهم لاختيار سيدهم الجديد الذي يمنحهم فلسطين ويمنحونه السيادة، فاليهود لا يعرفون الوفاء، ومن أجل هذا تم اتفاق بينهم وبين نابليون بونابرت على هذه الصفقة ليضرب بها مصالح إنجلترا في الشرق، ولكن نابليون سرعان ما هزم وعاد إلى بلاده، فراح اليهود يبحثون عن سيد جديد.

وفي آخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ظهر زعيم يهودي كبير هو تيودور هرتزل، وكان صحفياً نمساوياً. وقد شهد باريس - كمراسل صحفي - محاكمة الضابي الفرنسي اليهودي (دريفوس)، ولكنه أحس في المحاكمة - كما يقول - بروح العداة للسامية ولليهود، فكتب كتابه (الدولة اليهودية) سنة ١٨٩٥ يعلن فيه ضرورة قيام دولة لليهود يحتمون بها من هذا العنت، ولم يعين هرتزل مكاناً لهذه الدولة، ثم بذل جهداً هائلاً لجمع كلمة اليهود وتوجيه نشاطهم، فعقد مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ وقد حدد هرتزل أهدافه بقوله (إننا اجتمعنا هنا لكي نضع حجر الأساس للمبادئ التي تجمع الشعب اليهودي) وسرعان ما سيطر شعور اليهود الشرقيين (الروس بوجه خاص) على هذا المؤتمر، وكان هؤلاء يتمسكون بأن يكون مأوى اليهود في أرض فلسطين، فاتخذ المؤتمر القرار التالي:

إن أمانى الصهيونية هي إنشاء وطن للشعب اليهودي يعترف به من الناحيتين الرسمية والقانونية، ويصبح الشعب اليهودي بإنشائه في مأمن من الاضطهاد، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين (١).

وتوالت المؤتمرات، وكانت خلاصة نتائجها تدور حول: كيف يمكن لليهود استعادة فلسطين؟ فاتفقوا على أن هذا يستلزم جهدين، جهداً داخلياً

Max Margolis and Alexander Marx: A History of (١)
the Jewish People pp ٧٠٢ - ٧٠٧.

يرمي الصهيونيون من ورائه إلى تنظيم أنفسهم وإعدادها لاستعمار فلسطين، وجهدا خارجيا يرمي إلى البحث عن دولة تساندتهم، وتحقق لهم ما تصبوا إليه نفوسهم.

أما من الناحية الأولى فقد أنشئوا جهازا إداريا دقيقا لجمع المال، وظهرت (جمعية عشاق صهيون) لنشر اللغة العبرية، وللدعوة إلى تكوين مستعمرات زراعية في فلسطين، وذلك بشراء الأرض من العرب مهما بلغ سعرها، ودفع أكبر عدد من اليهود للهجرة إلى فلسطين بحيث يصبحون أكثرية بأسرع ما يمكن، واشترك أثرياء اليهود بسخاء في تمويل هذه المشروعات وبخاصة المليونير روتشيلد الذي فتح خزائنه لهذا الغرض دون حساب.

وأما من الناحية الثانية فقد درسوا أحوال القوى الاستعمارية المتصارعة لينحازوا للمعسكر الذي يتفق مع أغراضهم، ووجدوا في إنجلترا خير حليف لهم، فأعلن زعيمهم الجديد وايزمان ارتباط مصالح اليهود بمصالح إنجلترا، وانضم صراحة إلى معسكرهم.

هذا هو جانب اليهود في الموضوع حتى قبل إعلان تصريح بلفور، فماذا كان جانب الاستعمار؟

في سنة ١٩٠٧ تولى (كاميل بنرمان) رئاسة الوزارة في بريطانيا وقد قام رئيس الوزراء بتشكيل لجنة مكونة من بعض علماء التاريخ ورجال القانون والسياسية ليس من بريطانيا وحدها وإنما من عدة دول أخرى، ووجه (بنرمان) خطابا إلى تلك اللجنة حدد فيها مهمتها وجاء فيه: (إن الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى، ثم تستقر إلى حد ما، ثم تنحل رويدا رويدا، وتزول، والتاريخ ملئ بمثل هذه الأمثلة، وهي لا تتغير بالنسبة لأية إمبراطورية أو أمة، فهناك إمبراطوريات روما وأثينا

والهند والصين. وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها. فهل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهياره أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن بلغ الآن الذروة، وبعد أن أصبحت أوربا قارة قديمة استنفدت مواردها، وشاخت معالمها، بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية؟).

وقد ظل هؤلاء العلماء يبحثون ويتدارسون طيلة سبعة شهور، ثم قدموا نتيجة أبحاثهم في هيئة تقرير سري خاص إلى وزارة الخارجية البريطانية التي رأت تحويله - لأهميته - إلى وزارة المستعمرات وفيما يلي مقتطفات منه:

(إن الخطر ضد الاستعمار في آسيا وفي إفريقية ضئيل، ولكن الخطر الضخم يكمن في البحر المتوسط، وهذا البحر همزه الوصل بين الغرب والشرق... وحوضه مهد الأديان والحضارات، ويعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ، والدين واللسان، وكل مقومات التجمع والترابط. هذا فضلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية. فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوربية، وانتشر التعليم بها، وارتقت الثقافة؟

إذا حدث ما سلف فستحل الضربة القاضية حتما بالاستعمار الغربي، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالي:

- ١ - على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة... وتأخرها، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل.
- ٢ - ضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي. وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي، وغريب.

يحتل الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقية، بحيث يشكل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة. وإتماما لهذه الدراسة التي ظهرت في وثيقة برمان نضيف مجموعة من الحقائق المهمة مستقاة من أبحاث كبار المؤرخين الغربيين الذين عنوا بشؤون الشرق الأوسط أمثال سديو و كارل بروكلمان، وهذه الحقائق هي: أولاً: إن موقع الدول العربية بالشرق الأوسط وبخاصة مصر وقناة السويس يشكل نقطة حيوية في التخطيط الاستعماري، فعن طريق هذه المنطقة يتم اتصال إنجلترا بمستعمراتها في الهند والشرق الأقصى وبأستراليا، ويتم اتصال فرنسا بالهند الصينية. والبرتغال بجوا، وهولندا بإندونيسيا، ومن هنا كانت مصر تمثل باب هذه المستعمرات.

ثانياً: انضمت أمريكا وكندا إلى هذا الاتجاه، فأما أمريكا فقد دفعتها الصهيونية التي كانت ذات نفوذ كبير في البيت الأبيض ولدى السلطات الحاكمة، فأعلنت أمريكا أن عزلتها انتحار بطيء لها، وأنها لذلك تسند مستقبل أوروبا وتؤازر مخططاتها وتحمل معها أعباءها، وأما كندا فقد كانت أكثر إحساساً بمشكلات الغرب وتفاعلاً بها بسبب ارتباطها الوثيق بإنجلترا. ثالثاً: يقول كارل بروكلمان إن الخبراء الإنجليز أكدوا النظرية التي طالما برهن التاريخ على صوابها وهي أن التحكم في مصر لا يتم إلا من قاعدة سورية، ومن هنا أصبحت فلسطين - وهي في الأصل جزء من سوريا - ضرورة السياسة الغربية.

رابعاً: إن الاستعمار أو الانتداب أو الاحتلال أو غيرها من الاصطلاحات لا تفي بالمطلوب بالنسبة لهذا الموقع بالذات، فحركات التحرر به لا تهدأ، عرفها الفرنسيون إبان حملة نابليون، وعرفها الإنجليز إبان حملتهم على

رشيد، ومنذ وضعوا أقدامهم في التل الكبير، ومن أجل هذا اتجهت الجهود إلى شئ آخر غير الاستعمار والاحتلال والانتداب بالنسبة لفلسطين، ذلك هو استعمار الإبادة أو تحويل فلسطين من بلد عربي إلى عربي على نحو ما تم في استراليا ونيوزيلندا وأمريكا، وعلى نحو ما يجري الآن في جنوبي إفريقيا، على أن يتخذ الاستعمار والانتداب والاحتلال وسيلة لهذه الغاية.

وبدأ خبراء السياسة الغربيون ومعهم خبراء علم النفس وعلم الاجتماع يبحثون عن الوسيلة لذلك، وسرعان ما اهتدى هؤلاء الخبراء إلى استغلال الدين لتحقيق هذا الغرض، ولعل المسيحية خطرت على بالهم، ففي فلسطين ولد المسيح وتربى ودعا قومه، وبيت المقدس مزار المسيحيين منذ ذلك العهد، ولكن هذه الفكرة لم تكن طويلة العمر، إذ رثى أن الأخذ بها سيكون عودة إلى الحروب الصليبية، وسيحمل في طياته أسباب الفشل.

واتجهت الأنظار إلى اليهود، وفلسطين بالنسبة لهم مكان مقدس أيضا، ثم هو يعانون ألوانا من الاضطهاد والتعذيب والتشرد، وهم باحثون عن المال، والشرق الأوسط فيه غنى، وفيه تخلف صناعي مما يهيب سوقا رائجة لأية دولة صناعية تجارية تقوم به، ولليهود بفلسطين الصلة التاريخية التي ألمنا بها، والتي انقضت منذ عشرين أو خمسة وعشرين قرنا، ولكن الخبراء اتخذوهم وسيلتهم على كل حال، على أن يغلّقوا اتجاههم باسم الإنسانية والرحمة لهؤلاء المعذبين المشردين.

ويصرح ألفرد مونت في كتابه (الجار) بقوله:

إنني أتطلع بلهفة إلى ذلك اليوم الذي تصبح فيه فلسطين وشرق الأردن وحدة ضمن الإمبراطورية البريطانية، وتشغل مركزا مهما في جسم تلك الإمبراطورية، وتدافع عن هذه الوحدة عدة ملايين من اليهود الذين تربطنا بهم رابطة الود والاحلاص والمدنية.

وكانت فلسطين في أكثر فترات التاريخ وبخاصة في العهد الإسلامي تتبع مصر، فلما جاء العثمانيون حرصوا على عزل فلسطين عن مصر وضموها إلى الشام الذي أحيوا له الاسم القديم (سورية) وكان هذا لإضعاف الجبهة المصرية التي كانت تمثل مركزا قويا دعا العثمانيين أن يحسبوا حسابه، وظلت فلسطين جزءا من سورية حتى سقطت الإمبراطورية العثمانية، فاستولت فرنسا على الجزء الشمالي من سوريا وجعلت منه سوريا ولبنان، واستولت بريطانيا على الجزء الجنوبي وجعلت منه إمارة شرق الأردن وفلسطين.

والتقت حول فلسطين مصالح الصهيونيين مع مصالح الاستعمار الإنجليزي، وجاءت الحرب العالمية الأولى فكانت فرصة ذهبية للصهيونيين، وأصبح انتصار الإنجليز على الأتراك نقطة الأمل عند الصهاينة، وبينما كان الإنجليز يستندون عطف العرب، ويقدمون لهم العهود والمواثيق لتحقيق استقلالهم كاملا بعد الحرب، كانت المؤامرة الدنيئة تنسج خيوطها بين اليهود والإنجليز، وفي الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧ أعلن وعد بلفور المشئوم ونصه.

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لا يجوز عمل شيء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية في فلسطين، ولا الحقوق ولا المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد غيرها. ويعترف وايزمان في مذكراته أنه هو الذي كتب بيده هذه الوثيقة بناء على طلب اللورد بلفور (١).

واتجهت إنجلترا بكل قواها إلى أن يتم لها الانتداب على فلسطين لتنفيذ ما وعدت به، ولم يكن ذلك عسيرا عليها. فإن القوى الغربية

(١) مذكرات وايزمان ص ٢٧.

بعصبة الأمم كانت تشارك إنجلترا نفس الشعور، لأنها كانت واقعة تحت تأثير اليهود، وما يسيطرون عليه من مناصب حساسة بالدول الكبرى، وبخاصة في أمريكا، ثم بما يملكون من ذهب وإغراء ومتاع، ولذلك يقول وايزمان في مذكراته بصلف وكبرياء: نحن اليهود الصهيونيين كنا نسعى لإقامة دولة لنا بفلسطين، وقد انتدبنا الإنجليز لحكمها، واستعنا في هذا بعصبة الأمم، فنحن الذين سلمنا فلسطين للإنجليز مؤقتاً، وليس الإنجليز هم الذين وهبوا لنا بعد ذلك (١).

وكان مدلول الانتداب أنه أمانة ينتهي أجلها عندما يصبح السكان قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، وقد برهن الشعب العربي بعد فترة قصيرة على هذه الصلاحية فاستعاد بعض حقوقه السياسية بسوريا ومصر والعراق متمثلة في الحكم الذاتي، وطالبت فلسطين بمثل هذا الحق، وذكر المتحدثون باسم فلسطين أنها ليست أقل تطوراً من البلدان العربية الأخرى، وقد أجاب تشرشل على هذا بقوله في صراحة: إن المسألة ليست هي أن الشعب العربي في فلسطين أقل تقدماً من جيرانه، ولكن تشكيل حكومة وطنية بفلسطين سيحول دون تنفيذ العهد الذي قطعتة الحكومة البريطانية للشعب اليهودي بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. ويقول الدكتور وايزمان في مذكراته:

لقد احتضنت بريطانيا حركة الصهيونية منذ نشأتها، وأخذت على عاتقها تحقيق أهدافها ووافقت على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب لليهود في سنة ١٩٣٤ ولولا الثورات المتعاقبة التي قام بها عرب فلسطين لثم إنجاز هذا الاتفاق في الموعد المذكور (٢).

(١) مذكرات وايزمان ص ١٨ و ٢١ و ٢٤.

(٢) مذكرات وايزمان ص ٢٥.

وعقب الانتداب اختارت بريطانيا السير هربرت صموئيل اليهودي ليكون أول مندوب سام لها في فلسطين، وأطلقت يده لاتخاذ ما يراه من إجراءات في البلاد، ويعترف وايزمان في مذكراته بأنه هو الذي اقترح على الحكومة البريطانية تعيين هربرت صموئيل، وقد بادر هربرت بأن أسس الإدارة المدنية بفلسطين من اليهود أو من أنصاف اليهود، واعتبر اللغة العبرية لغة رسمية بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية والعربية، وسلم اليهود جميع وسائل الصناعة، وجعلهم مشرفين على التربية، ومهد لخلق إمارة شرق الأردن في مارس سنة ١٩٢١، بالاجتماع الذي رتبته بين الأمير عبد الله والمستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية آنذاك حين زار القدس، وكان الهدف من خلق هذه الإمارة هو إيجاد حاجز من الموالين لبريطانيا يحمون الوطن القومي اليهودي من هجمات الثوار العرب (١).

وعمل هربرت على إغراق البلاد بالمهاجرين اليهود، ويسرت الإدارة البريطانية لهم سبل الحياة، ومنحتهم أرض (الميري) وأقامت لهم الدور والمصانع، وألحقتهم بجيشها ل يتم تدريبهم على استعمال أحداث الأسلحة، وفي سنة ١٩٤٤ كونت في جيشها فرقة يهودية أسمتها **The Jewish Brigade** وأمدتها بالسلاح والذخيرة، فكانت جيشا يهوديا رسميا أصبح فيما بعد نواة جيش إسرائيل، وفي نفس الوقت أثقلت كاهل العرب بالضرائب، وسلبت منهم أرضهم بطريق أو بآخر، وقصرت في مد أرضهم بما تحتاج إليه من المياه، ودفعت ملاك الأرض غير الفلسطينيين لبيعوا أملاكهم لليهود، وحرمت على العرب المهاجرين العودة إلى فلسطين، وحرمت على العرب حمل السلاح أو امتلاكه.

ويشرح وايزمان في مذكراته نقطة خطيرة هي اجتماعه بالأمير فيصل بن الملك حسين سنة ١٩١٨ وتأثيره فيه، ويقول وايزمان: شرحت للأمير أن

(١) عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية ص ٢٦٣.

البلاد تتسع للعرب واليهود جميعا، وبينت له حاجتنا إلى مساعدته الأدبية، فأعرب عن رغبته في أن يرى العرب واليهود يتعاونان في مؤتمر السلام، وقال إن مستقبل الشعبين مرتبط بالشرق الأوسط، وأن واجب الشعبين الاستعانة بصداقة الدول الكبرى، وقد استمر حديثنا ساعتين، واقترح الأمير في نهاية الحديث أن تؤخذ لنا صورة معا، وقد وضعت هذه المقابلة حجر الأساس لصداقة متينة بيني وبين الأمير دامت طوال حياته (١).

وفي ٣ يناير سنة ١٩١٩ حصل وايزمان على اتفاق مع فيصل يعترف فيه بوعد بلفور، وبعد بأحسن العلاقات بين الدول العربية التي ستنشأ في الشرق وبين فلسطين، وبعد شهرين عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى وأرسله إلى القاضي الصهيوني (فيلكس فرانكفورتر) عضو الوفد الصهيوني إلى مؤتمر فرساي بفرنسا، ولكن الشعب العربي كله رفض الاتفاقية رفضا باتا (٢). ونقطة أخرى خطيرة كالسابقة يشرحها وايزمان متصلة بشخصية لورانس الذي تظاهر بصداقة العرب وخدع بعضهم، وهو في الحقيقة عريق الصلة بالصهيونية، يقول وايزمان: ويقضي علي الواجب وأنا أبحث تاريخ العلاقات بين العرب واليهود، أن أثني هنا الشاء العظيم على الخدمات التي قدمها (لورانس) للقضية اليهودية، لقد عرفت لورانس وقابلته مرات عديدة في مصر، وقد كان يتردد بعد ذلك على منزلي في لندن من غير رسميات ولا كلفة، وكان موقف لورانس من الصهيونية موقفا إيجابيا، لا شك فيه، وكان من الخطأ البالغ أن الكثيرين كانوا يتصورون أن لورانس عدو للصهيونية بحكم أنه كان صديقا للعرب (٣).

(١) مذكرات وايزمان ص ٤٥.

(٢) مذكرات بن جوريون ص ٢٤.

(٣) مذكرات وايزمان ص ٤٥ - ٤٦.

وسرعان ما ارتفع رقم اليهود بفلسطين ارتفاعا كبيرا عما كان عليه عند احتلال بريطانيا لفلسطين حتى نافس عدد العرب، وقد جاء في تقرير اللجنة الملكية البريطانية سنة ١٩٣٧ ما يلي: (وما جاءت سنة ١٩٣٦ حتى كان الوطن القومي اليهودي قد نما وأصبح شيئا يشبه حكومة داخل حكومة، فالطائفة اليهودية قد بلغت أربعمئة ألف شخص [وكانت خمسة وأربعين ألفا سنة ١٩١٨] ولها عاصمتها (تل أبيب) وعلمها الوطني، ونشيدها القومي، ونظامها الثقافي، ولها شبكة من المصالح الاجتماعية والاقتصادية، وترتبط هذه الطائفة باليهودية العالمية بوساطة الوكالة اليهودية، بينما تدار شؤون الجماعة الداخلية بواسطة مجمع وطني أو مجلس ملي، ومجلس ربانيين، وإنما نرى أن الدولة المنتدبة قد قامت حتى الآن خير قيام بإنشاء الوطن القومي لليهود بفلسطين (١).

ويبدو أن النشاط الإنجليزي لخدمة الصهاينة تواني أحيانا بسبب الضغط الذي كانت بريطانيا تتعرض له من العرب والمسلمين ومن الضمير العالمي، ولكن اليهود لم يغفروا للإنجليز هذا التواني، بل ثاروا عليهم كلما ظهر منهم التواني في خدمتهم، فأوقع الارهاب الصهيوني بالإنجليز ألوانا من البلاء، فدمروا منشآتهم، ونسفوا دورهم وقاطراتهم، وقتلوا كل من تحوم حوله شبهة التواني في خدمة الصهيونية، وبلغ من استهانتهم بالسيد الذي رباهم وآواهم أن شنقوا رجال البوليس على قارعة الطرق، وأعلن بن جوربون أن الوكالة اليهودية بفلسطين لن تستطيع أن تساعد في وقف هذا الارهاب. واضطر الإنجليز أن يحنوا الرأس وأن يعودوا لمسالمة اليهود ومساعدتهم. وإذا كان الإنجليز قد أصابهم هذا البلاء، فإن العرب قاسوا من الإنجليز ومن اليهود ألوانا من التنكيل تقشعر لها الأبدان، وقد تعاونت (الهاجانا) (أي منظمة الدفاع عن النفس) اليهودية مع الإنجليز في قمع

(١) تقرير اللجنة الملكية.

ثورات العرب كما تعاون الإنجليز مع جماعة (إرجوم زفاى ليومى) (أى المنظمة الحربية القومية)، وجماعة (شتيرن) (١) للتنكيل بالعرب والايقاع بهم غدرا وليست مذبحه دير ياسين ومذبحه قرية ناصر الدين بالقرب من طبرية إلا نماذج لكثير من أمثالها، وكانت المحاكم الإنجليزية تحكم بالسجن على المعتدين اليهود، ثم يفرج عنهم خلسة ليستأنفوا نشاطهم العدواني الأثيم. دور الكنيسة الإنجليزية في خدمة اليهود:

إن دور الكنيسة في خدمة اليهود يذكره وايزمان بصراحة في العبارة التالية: وللقارئ أن يسأل ما هي أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود وشدة عطفهم على أماني اليهود في فلسطين؟ والجواب على ذلك أن الإنجليز - لا سيما من كان منهم من المدرسة القديمة - هم أشد الناس تأثرا بالتوراة، وتدين الإنجليز هو ساعدنا في تحقيق آمالنا، لأن الإنجليز المتدين يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين، وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية في هذه الناحية أكبر المساعدات. (٢) قيام إسرائيل:

ووصلت إنجلترا إلى الخطوة النهائية لتهويد فلسطين، فاخترعت فكرة التقسيم وأيدته، واستعملت هي وحليفاتها كل نفوذهم المادي بهيئة الأمم المتحدة حتى حصلوا على الأغلبية العددية بالنسبة للذين أعطوا أصواتهم، وأعلنت بريطانيا أنها ستسحب من فلسطين في الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٨، وفي هذا الموعد سلمت بريطانيا البلاد لليهود بعد أن اطمأنت

(١) جماعة تنسب إلى إبراهيم ستيرن الذي كانت له صلة بحكومة إيطاليا الفاشية، وكانت هذه الجماعة تستعمل للتدمير والتعذيب للإنجليز والعرب جميعا. (A short History of the Middle East P: Kirk .٣١٨)
(٢) مذكرات وايزمان ص ١٨.

إلى أنهم قوة يمكن أن تستولي على الحكم، وتصدت الدول العربية للدفاع عن عروبة فلسطين، وخاضت من أجل ذلك حرباً ضد اليهود، ورجحت كفة العرب في الجولة الأولى، فتدخل النفوذ الاستعماري وأرغم العرب على إيقاف القتال مدة محدودة، وفي خلال هذه المهدة انهالت الأسلحة الغربية على اليهود، كما انهال المتطوعون الغربيون، مما ضمن لليهود النصر في الجولة الثانية، وكان من الأخطاء العربية الحسيمة أن تركت القيادة العامة لجيش الأردن الذي كان قائده (جلوب باشا) إنجليزيا يخدم أهداف بلاده قبل كل شيء.

وقامت دولة إسرائيل، وأسرعت أمريكا فاعترفت بها، واعترفت بها روسيا ودول الغرب، وأخرجت إسرائيل العرب من دورهم، وسلبت ممتلكاتهم، وألقت بهم لاجئين خارج وطنهم، يعيشون في خيام، أو ينزلون صفر اليدين بالبلاد العربية، ورفضت إسرائيل أن تصيخ لقرارات هيئة الأمم المتحدة بإنصاف اللاجئين، وراحت توفي للاستعمار بوعودها، فتآمرت مع إنجلترا وفرنسا للعدوان على مصر سنة ١٩٥٦. ولكن هذه الجولة الخاسرة كانت مطلع النور بالنسبة للبلاد العربية، فقد هبت من سباتها، وأدركت ما يراد بها، وعرفت الخطر المحدق بمستقبلها، فراحت تبني نفسها بعزم وإصرار، وعلا صوتها في المحيط العالمي فغطى على صوت إسرائيل وأنصارها. والمعركة مع إسرائيل لم تنته، بل أنها لم تبدأ بعد، ويوم تبدأ ستثار الكرامة العربية لنفسها، وتعيد فلسطين إلى عروبتها كما كانت وكما يجب أن يكون.

اليهود في فلسطين وخارجها
في الحديث عن قيام دولة اليهود بفلسطين يتحتم على البحث أن يحتوي
ثلاث نقاط مهمة هي:

الأولى: الزراعة وسيلة اليهودي لاستعمار فلسطين.

الثانية: علاقة اليهود خارج فلسطين بدولة اليهود.

الثالث: إلى أن مدى استطاعت الصهيونية أن تكون دولة على أساس
الدين وحده؟

والإجابة عن النقطة الأولى نلجأ إلى مؤرخ صهيوني هو (روفائيل ماهلر)
الذي وضع دراسة عميقة عن وضع اليهود الاقتصادي في البلاد المختلفة رأسمالية
وشيوعية واشتراكية، ويقرر هذا المؤرخ أن اليهود يتجنبون مهنة الزراعة،
وأنة ليس بينهم فلاحون قط، فيما عدا مناطق صغيرة نائية في بولندا وروسيا
القيصرية، وكما تجنب اليهود الزراعة فإنهم كذلك تجنبوا الصناعة، فليس لهم
في المناجم عامل واحد، وليس لهم أي دور في النشاط الصناعي. أما الأعمال
التي تخصصوا فيها فهي التجارة والمال والمهن الحرة كالطب والمحاماة والصحافة.
ويقرر المؤرخ الصهيوني أن هذا الوضع يثير الناس ضد اليهود لأنهم
لا يسهمون في عمليات الانتاج، ولا يحملون عبء العمل مع المناضلين، ويروي
المؤرخ أنه طالما سمع في بولندا من العمال هذا السؤال: لماذا لا نجد من
اليهود أي عامل صناعي مثلنا؟ لماذا لا نراهم في هذه الأعمال المجهددة أو يروي
أنه قرأ أخيراً أن الاتحاد السوفيتي قرر أنه ليس من حق أية قومية من قوميات
الاتحاد السوفيتي أن يكون لها نسبة بين طلبة الجامعات أكثر مما لها من نسبة
بين عمال المناجم، ويعقب المؤرخ على هذا بقوله: إنه لا يوجد عامل مناجم
يهودي واحد لا في روسيا ولا في أمريكا (١).

(١) نقلاً عن إسرائيليات للأستاذ أحمد بهاء الدين ص ٦٨ - ٦٩.

ويشرح لنا Hosmer (١) السبب في عدم إقبال اليهود على الزراعة والصناعة فيقول: إن اليهود في خلال عصور التشرّد لم يكن يسمح لهم بشراء الأرض، إذ لم يكن يسمح لهم بالاستقرار في البلاد التي نزلوا بها، ومن ثم لم يتجهوا للزراعة، كما أن اليهود لم يكن يسمح لهم بدخول المصانع والمناجم، إذ كان يخشى أن يكونوا بها عوامل تخريب واضطراب، وبذلك اتجهوا إلى المهن الفردية، كالطب والمحاماة والكتابة والتجارة، على أن ميولهم التجارية كانت أوسع لأنهم يربحون خلالها دون أن يقدموا للمجتمع الذي يعيشون فيه أية خدمات.

ولكن الحركة الصهيونية أدركت منذ وقت مبكر أن الزراعة هي التي تمنح الشعب استقراره وتغرس جذوره في الأرض، ولذلك أكن من أول اتجاهاتها خلق الفلاح اليهودي والمزرعة اليهودية، فخلق المزرعة اليهودية كان قرارا سياسيا وليس قرارا اقتصاديا، ومن أجل هذا حرص اليهود بفلسطين على توسيع مزارعهم، وللوصول لهذا الهدف حاولوا اغتصاب ماء الأردن بتحويل مجراه. واتجه اليهود بالمزرعة لتكون وحدة زراعية وعسكرية في نفس الوقت، فرجالها يعنون بالزراعة ويدافعون عن المستعمرة دفاعا عسكريا، حتى إذا قامت إسرائيل بحرب أصبحت المزارع المتجاورة بمثابة حصون دفاعية يسكنها الفلاح الجندي، وتمتد هذه على طول الحدود بين إسرائيل والبلاد العربية (٢٠). ويتصل بهذه الخطة ما شرحه وايزمان زعيم إسرائيل بقوله: إن رأيي هو أن الوطن القومي له سبيل واحد لتحقيقه، وذلك السبيل هو ضم دونم إلى دونم وبقرة إلى بقرة، ومزرعة إلى مزرعة... (٣) وبهذا كانت الزراعة هي السبيل الذي ارتآه اليهود طريقا لتحقيق أهدافهم الصهيونية.

(١). ١٣٦ P. The jews

(٢) أنظر إسرائيليات للأستاذ أحمد بهاء الدين ص ٦٨ وما بعدها.

(٣) مذكرات وايزمان ص ٧٣.

وللإجابة عن النقطة الثانية نذكر أن وعد بلفور تنبأ بخطر العلاقة بين اليهود خارج فلسطين وبين دولة اليهود، فلمن يكون ولاء اليهود الذين يعيشون في غير فلسطين؟ هل سيكون ولاؤهم للبلد الذي ينتمون إليه سياسياً؟ أو للبلد الذي ينتمون إليه روحياً؟ وشمل وعد بلفور نصاً يقرر أن الوطن القومي لليهود في فلسطين لا يتنافى مع الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في غير فلسطين.

وعلى هذا فاليهود في غير إسرائيل مواطنون، ولاؤهم - نظرياً - للبلاد التي يعيشون فيها ويحملون جنسيتها، ولكن العلاقة بين إسرائيل وبين اليهود خارجها لم تسر على هذه النظرية واتخذت من الناحية العملية الاتجاهات التي تحملها الأفكار التالية:

- أعلنت الصهيونية أن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف مشتتة تعيش في المنفى، وأنهم مواطنون إسرائيل قبل كل شيء، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التي يسبغونها على أنفسهم (١). وتقول جولدا ماير عن هذا. إن اليهودي الإنجليزي الذي ينشد بحكم إنجليزيتته نشيد (حفظ الله الملكة) لا يمكن أن يكون في نفس الوقت صهيونياً (٢).

- تقول الصهيونية إنه إذا كان اليهود لا يتعرضون للاضطهاد في العهد الحاضر كما تعرضوا من قبل في روسيا القيصرية، وفي ألمانيا النازية، فإن تعرضهم للاضطهاد محتمل، فهم ساميون، وهم شعب مختار ممتاز، وسيظل العالم لهذا يصطنع الوسائل للاضطهادهم.

- أما (أرى تاناكودار) أستاذ علم الاجتماع في الجامعة العبرية فيضع الأمر بحيث لا يحتمل شكاً، ويلزم اليهود أن يحسوا بالاضطهاد ولو لم

(١) محمد علي علوية: فلسطين والضمير العالمي ص ١٣٨.

(٢) محاضرة منشورة من اليهود وإسرائيل.

يكن هناك احتمال له، وهو يقول في ذلك: إن اليهودي حقا هو من يشعر بأن هناك (مشكلة يهودية) حتى لو عاش بمفرده في جزيرة نائية. ويعلق الأستاذ أحمد بهاء الدين على هذا بقوله: إن اليهودي في رأيه هو الذي يشعر باضطهاد حتى ولو لم يوجد من يضطهده (١).

- رفعت الحركة الصهيونية فوق رأس اليهود خارج إسرائيل سلاح التهديد، ولم يكن التخلص من هذا السلاح ممكنا إلا بكتابة شيك على أحد البنوك تبرعا لإسرائيل (٢).

- ويقول سيسل روث المؤرخ اليهودي الإنجليزي: إن اليهود الإنجليز كان من السهل عليهم مثلا أن يؤيدوا إسرائيل خلال حربها ضد مصر سنة ١٩٥٦ لأن إنجلترا كانت ضد مصر، ولكن ماذا يكون الحال لو جد ما يجعل إسرائيل - كدولة - نقف في لحظة ما ضد مصالح إنجلترا الأساسية بصورة أو بأخرى (٢).

- ومن أجل هذا كان كثير من المفكرين اليهود يعارضون قيام دولة إسرائيل إيمانا منهم بأن قيامها قد يكون سببا في اضطهاد اليهود من الدول الأخرى في المستقبل، لأن إسرائيل كدولة لا بد أن تكون لها من الزمن مواقفها المؤيدة والمعادية لدولة أخرى، وفي حالات العداء سوف يكون اليهود بهذه الدولة في وضع لا يحسدون عليه، ولكن هذه الأصوات خفتت بعد قيام إسرائيل، وإن بقي أصحابنا يضعون أيديهم على قلوبهم (٤).

وعن النقطة الثالثة نذكر أن علماء الاجتماع قرروا أن مقومات التجانس تشمل ثمانية أسس، هي اللغة والدين والأرض والتاريخ والاقتصاد والآمال

(١) إسرائيليات: ص ٦٤.

(٢) من ملاحظات المؤرخ اليهودي الإنجليزي - سيسيل روث.

(٣) المرجع السابق.

(٤) أحمد بهاء الدين: إسرائيليات ص ٥٨.

والجنس والأمن الداخلي والخارجي (١)، وقد أقام اليهود دولتهم على أساس الدين فقط، وواضح أن الفشل لا بد أن يكون نصيب مثل هذا المجتمع لما بين معتنقي هذا الدين من تفاوت واسع، وقد دل تعداد إسرائيل الذي أجري سنة ١٩٥٦ على أن اليهود بإسرائيل يبلغون ٤٥٥ ر ٦٦٧ ر ١ منهم ٨١٠ ر ١٨ غير معروف في الأصل، وأما الباقون فمنهم ٥ ر ٣١ % من أبناء آسيا و ٤ ر ٢٤ من أبناء إفريقية و ٣ ر ٤٣ من أبناء أوروبا و ٨ % من أبناء أمريكا، فما العلاقة بين هؤلاء اليهود بعضهم والبعض الآخر؟

إن كل المعلومات والأبناء تؤكد أن الصهيونيين الغربيين يحتقرون الصهيونيين الإفريقيين والآسيويين، ولا يحتاج ذلك إلى دليل، فالمسيحيون الأوروبيون ينكرون بالمسيحيين الإفريقيين في إفريقية، ويعتقد اليهود الغربيون أنهم هم الذين أقاموا دولة إسرائيل، وأن يهود الشرق عالة عليهم، ولذلك لا تنقطع الاضطرابات والثورات بينهم، كما أن حوادث فرار اليهود الشرقيين مستمرة، ولا تسوى الدولة في معاملاتها بين هؤلاء وأولئك. ومن الأحداث التي دوت في العالم الغربي حادث بلدة (وادي صليب) حيث شب نزاع مسلح بين يهود إفريقية ويهود رومانيا الذين يسكنون هذه البلدة، وقد استمرت المعركة وقد نشرت صحيفة جويش كرونيكل الإنجليزية أن مستر روبين عضو حزب ماباي للعمال قد صرح بأن معظم الذين يعملون في الأعمال الحفيرة هم من اليهود الشرقيين، وأن هذا يؤدي إلى إحساسهم بالظلم الواقع عليهم، وصرح الدكتور موشين من كبار اليهود الشرقيين بأن الاضطهاد العنصري ضد اليهود الشرقيين اضطهاد حقيقي وليس مختلفا (٢).

(١) أنظر المجتمع العربي للمؤلف.

(٢) أنظر نهاية إسرائيل لصبري أبو المجدد ص ٤٨ - ٤٩.

ويتضح من دراسة المؤلف الحافل الذي وضعه Hosmer عن اليهود أن ما يعانيه المجتمع اليهودي الآن من فرقة وتشعب، عميق الجذور، يرجع أصله إلى عهد العودة من سجن بابل، ويقرر Hosmer أن المجتمع اليهودي عقب العودة من هذا السجن كان مقسما قسمين بينهما حاجز حاد، وكان أحدهما يكون الطبقة العليا ويكون الثاني الطبقة السفلى، وكان القسم الأول يصف نفسه بأنه الجنس المقدس أو (البذور المقدسة) التي لم تختلط بدم أجنبي وعادت من بابل لتعيد بناء الهيكل، ومن هذا القسم يختار كبار القسس وكبار الرجال بالمدن، أما القسم الثاني فيشمل أولئك الذين قيل إن دماءهم اختلطت بدماء أجنبية، ويتحتم أن يقنع هؤلاء بالمهن الحقيرة وبالحياء في القرى، ولا ينافسون أفراد القسم الأول في امتيازاتهم ولا في القيادة التي هي حق من حقوقهم (١).

وقد عقد الطلاب الفلسطينيين ندوة عالمية في أواخر مارس وأوائل أبريل سنة ١٩٦٥ دعى إليها كثير من الكتاب والمفكرين من شتى أنحاء العالم، وتدارس المجتمعون قضية فلسطين وعروبته والطغيان الصهيوني بها، وما يلقاه من تأييد الاستعمار وعونه المادي والأدبي، وفي هذا المؤتمر تحدث المدعوون وظهرت آراء لهم، يجدر بنا هنا أن نشير إلى بعضها، فهي وثيقة الصلة بتلك النقطة التي تشرحها.

فمن بين المجتمعين قس أمريكي، هو الدكتور (هور أو جل) الذي زار إسرائيل ورأى هناك يهود الشرق ويهود الغرب، وشاهد ما بين الطائفتين من خلاف، فأعلن قوله: وجدت في إسرائيل أقواما مختلفين، نجحوا في إقامة مزارع ومدن، وفشلوا في إقامة وطن موحد، ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي هزه في إسرائيل وإنما هزه أيضا اختلاف القيم والمبادئ والأخلاق، مما

(١). ٧٥. The Jews P: James Hosmer

جعلله يقرر أن استمرار هذه الدولة فيه قضاؤها على نفسها.
ومن بينهم الكاتب البريطاني (نيفل باربو) الذي قال: إسرائيل لن
يمكنها الاستمرار كدولة أوربية، تعيش فوق أرض عربية... إن هذا
استعمار صريح.

أما (أنتوني ناتنج) الوزير البريطاني السابق، فقد كان رأيه مشروحا
وطويلا، وذلك نتيجة لعمق صلته بالمشكلة، ومتابعة تطوراتها، فقد زار
إسرائيل، وزار البلاد العربية، وله اتصالات لم تنقطع بمنظمات اللاجئين ومن
هنا كان رأيه جديرا بالدراسة والتفكير.

ورأى (أنتوني ناتنج) يتلخص في أن الجنس الأوربي من اليهود غير
مستقر في إسرائيل، وأن هؤلاء الأوربيين لم يجدوا مطلقا أماكنهم هناك،
ولم ولن يشعروا بأي استقرار بالرغم من كونهم الجنس الحاكم أو المسيطر.
ويعلل هو ذلك بالأوضاع التي فرضت عليهم الهجرة، وتغير هذه الأوضاع
الآن، فقد هاجروا من أوربا تطاردتهم ذكرى معسكرات الاعتقال ومآسي
الحرب والحطام.. إلى إسرائيل الموعودة حيث (أرض الأحلام) وحيث
الفرص العديدة، والمستقبل الجديد، بالإضافة إلى الحماية والأمان. ويقول
أنتوني ناتنج إن معظم هؤلاء قد أصيبوا بخيبة أمل شديدة، فإنهم لم يجدوا
الفرص التي توقعوها، ولا المستقبل الأفضل، معظمهم كان من أصحاب المهن،
ولكن لم تستوعبهم مجالات العمل في إسرائيل، فتحولوا على الرغم منهم إلى
الزراعة وفلاحة الأرض في المستعمرات التعاونية. وتمر سنوات وسنوات ثم
يتأكدون تماما أن اللجنة الموعودة لم تكن إلا سرايا، وأن معظمهم لا يحتل
مكانه الصحيح، وفوق ذلك إحساس مريع بالغبطة. وبعدم الاستقرار،
وبالتفكك. وفي نفس الوقت تنتعش أوربا من جديد وتتسع فيها مجالات العمل.

ويؤكد أنتوني ناتنج أن الرغبة في العودة إلى أوروبا قد تحركت، وأن هناك أفواجا قد عادت إلى أوروبا بالفعل، وهو يدلل بهذا الرأي على أن تجربة دولة بأجناس مختلفة تجربة فاشلة، وقد سبق فشلها في التاريخ عندما غزا الصليبيون الشرق وعاشوا فيه وأقاموا دولة استمرت مائتي عام، وانتهت بعودتهم إلى أوطانهم من جديد.

وعلى هذه الأسباب السابقة يبني (أنتوني ناتنج) نظريته التي تتنبأ بتقلص الجنس الأوربي من ناحية، وامتصاص الجنس العربي لما بقي في فلسطين من أجناب من ناحية أخرى في تطور تدريجي، ويقرر ناتنج أن من الطبيعي أو من المحتم أن تستوعب فلسطين أبناءها المشردين خارجها، وأن تلفظ الأجناب الذين لا ينمأون في الحياة الجديدة، ثم تنشأ دولة فلسطين من حكومة عربية إقليمية مزدوجة العنصر، يعيش فيها العرب واليهود جنبا إلى جنب (١).

اليهودية والصهيونية

تحدثنا من قبل عن اليهود واليهودية، ونريد هنا أن نبين العلاقة بين اليهودية وبين الصهيونية، فهذه العلاقة من النقاط المهمة التي لم تتضح تماما لدى كثير من الباحثين والكتاب.

والصهيونية (Zionism) نسبة إلى جبل صهيون الذي يقع في الجنوب من بيت المقدس، وقد اقتحمه داود إبان ملكه، واستولى عليه من اليوسيين الذين كانوا يقطنونه (وأخذ داود حصن صهيون،... وأقام داود في الحصن وسماه (مدينة داود (٢)) وأصبح صهيون مكانا مقدسا

(١) صحيفة أخبار اليوم في ٣ / ٤ / ١٩٦٥.

(٢) صموئيل اثناني ٥ : ٧ - ٩.

لاعتقاد اليهود بأن الرب يسكن فيه، فقد ورد في المزامير: رنموا للرب الساكن في صهيون (١).

وعلى هذا فالصهيونية في أبسط تعاريفها هي استقرار بني إسرائيل في فلسطين أي في جبل صهيون وما حوله، وهي كذلك تأييد ذلك بالقول أو بالمساعدة المالية أو الأدبية، فالصهيوني هو اليهودي الذي يؤثر أن يعيش في فلسطين، وهو كذلك من يساعد اليهود ماديا وأدبيا ليستوطنوا فلسطين. ويرى اليهود أن موسى كان أول قائد للصهيونية، وأو من شيد صرحها ووطد دعائمها، فهو الذي قاد بني إسرائيل ليدخل بهم فلسطين عقب خروجهم من مصر (٢)، ولم يدخل موسى أرض الميعاد ولكن حلفاءه دخلوها كما شرحنا من قبل، وهبت أعاصير ضدهم حين أقحموا أنفسهم في هذه البلاد، وأخرجوا منها عدة مرات، وفي كل مرة كان فريق منهم يتطلع للعودة لأرض الهيكل وللحياة في صهيون كما ذكرنا من قبل، وهؤلاء هم الصهيونيون. ويعد خروجهم سنة ١٣٥ م اجتثاثا لدابريهم وتدميرا لجذورهم حتى أن الفتح العربي عندما جاء بعد ذلك بخمسة قرون (٦٣٦) لم يكن بإيلياء (بيت المقدس) يهودي واحد، إذ كانت الأطماع في الاستقرار بفلسطين قد زالت، فارتضى اليهود الحياة في موطن الهجرة، وبخاصة في البلاد الإسلامية حيث تمتعوا بما يكفله الإسلام لغير أتباعه في المجتمعات الإسلامية من حقوق (٣)، وتوقف بذلك حركة الصهيونية.

(١) مزامير ٩: ١١.

(٢) ايلي ليفي أبو عسل: يقظه العالم اليهودي ص ١٦.

(٣) المجتمع الإسلامي ص ١٤٦ - ١٥٤ وانظر ما دونه Hosmer عن تسامح المسلمين مع اليهود في كتابه The Jews ص ١٣٨.

ومر الزمن ولم يبد اليهود قط أي لون من ألوان الولاء للبلاد التي عاشوا بهما، واشتركوا في مؤامرات ضدها كما ذكرنا من قبل، فتعرضوا لحركة اضطهاد عنيفة في أكثر البلاد التي نزلوا بها، وكان من أشدها قسوة المذبحة التي نزلت بهم في روسيا سنة ١٨٨٢ (١)، وعلى إثرها بدأت حركة الصهيونية من جديد، وأدرك اليهود مرة أخرى أنه ليس ثمة عيش لهم إلا في أرض أسلافهم، أرض الميعاد، وكان باعث الحركة الصهيونية الجديدة يهوديا يدعى (سيمحا بينكر) الذي أخذ يدعو في روسيا لهذه الحركة، وقد تألفت على إثر دعوته جمعية سميت (جمعية عشاق صهيون)، ويقول وايزمان في مذكراته إن الحركة الصهيونية في حقيقتها وجوهرها نشأت في روسيا، وإن يهود روسيا كانوا العمود الفقري للكيان اليهودي في فلسطين منذ قيام الحركة (٢). وأخذ اليهود يتسللون من روسيا، واتجه أكثرهم إلى الولايات المتحدة، وأراد بعضهم الاتجاه إلى فلسطين ولكن الحكومة التركية أصدرت قانونا يحرم على اليهود دخول فلسطين، وفي الوقت نفسه منعت حكومة القيصر بروسيا الدعوة للهجرة، وعلى الرغم من كل ذلك استطاع نفر قليل من الشبان أن يصلوا إلى فلسطين سنة ١٨٨٢ حيث أنشأوا أولى المستعمرات الزراعية بالقرب من يافا، وأطلقوا عليها اسم (ريشون ليزبون) أي الأولون في صهيون، ويسمى بن جوريون (الهجرة الأولى) أما الهجرة الثانية فكانت نتيجة الثورة الروسية التي قامت سنة ١٩٠٥، وقد تمكن القيصر من القضاء عليها، ويقول بن جوريون إن هذه الثورة لو نجحت لأدت إلى رفع الاضطهاد عن اليهود وبالتالي لاستقر يهود روسيا بها، ولكن فشلها دفع اليهود إلى ما يسميه

(١) عن هذه المذبحة اقرأ: ١٠٩. A History of the Jewish People by Margolis and Marx P

(٢) مذكرات وايزمان ص ١٤.

بن جوربون بالهجرة الثانية، وكان بن جوربون من مهاجري هذه الموجة (١) وتلا ذلك هجرات من الدول المختلفة بأوروبا وبخاصة رومانيا، حيث كان اليهود يعدون أنداذا للخارجين على القانون وتبعاً لهذه الهجرات أنشئت عدة مستعمرات في مناطق جودا والخليل والسامرية، وقد تعرضت المستعمرات الصهيونية إلى كثير من الكساد وأوشكت على الانهيار لولا المساعدات الضخمة التي قدمها أثرياء اليهود وبخاصة البارون آدمون دي روتشيلد (٢). وألفت في بعض بلاد أوروبا جمعيات مماثلة لجمعية عشاق صهيون التي ألفت في روسيا، ثم جاء هرتزل الصحفي النمساوي الذي يعتبر أبا للصهيونية الحديثة وتنسب له خطوتان مهمتان، أولادهما تتمثل في كتابه (الدولة اليهودية) الذي نشره عام ١٨٩٥ يدعو فيه إلى تجميع اليهود في مكان ما في العالم، وعن ذلك يقول: يكفي أن يعطونا أية قطعة من الأرض تتناسب وحاجات شعبنا وتكون لنا السيادة عليها، فإن هدفنا ليس هو الأرض المقدسة بل أية قطعة من الأرض تخصص لنا (٣)، أما الخطوة الثانية فهي الدعوة لمؤتمر يهودي عام يعقد لبحث نظرية (الدولة الجديدة)، وقد عقد هذا المؤتمر في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ حيث تبني هذه النظرية على أن تكون الدولة الجديدة في فلسطين، ومن هنا سميت هذه الحركة التي تعمل على جمع اليهود في فلسطين، حول جبل صهيون، بالحركة الصهيونية، فأصبحت تجديداً للفكر الصهيوني القديم الذي بدأ في روسيا والذي ذكرناه آنفاً (٤).

(١) بن جوربون: إسرائيل وسنوات التحدي.

(٢) إسرائيل كوهين: هذه هي الصهيونية ص ٣٣ وما بعدها.

(٣) هرتزل: الدولة اليهودية ص ٤٠.

(٤) A History of the Jewish People p: Magolis and Marx

أنظر ٧٠٦

ولن نستمر هنا في حديثنا عن مراحل تكوين إسرائيل، فقد وفينا ذلك الموضوع بحثا في دراستنا السابقة، ولكننا هنا نواصل كلامنا عن مراحل التطور المتصل بالصهيونية.

وأول ما يلاحظ الباحث في هذا المجال أن الصهيونية عقب إعلانها في حركة (عشاق صهيون) أو في (الحركة الصهيونية) اتخذت لها مفهوما أو مفاهيم محددة، ومن أهمها إحياء اللغة العبرية وجعلها اللغة الرسمية للجماعة الصهيونية، فكل من اعتنق فكرة الصهيونية كان عليه أن يبادر بتعلم اللغة العبرية دون إبطاء، ويقول شختر في تبيان ضرورة اللغة العبرية لليهود (اللغة العبرية هي الخزانة التي أودعنا فيها كل نفيس من حياة بني إسرائيل الروحية) ولولاها لفصلنا من الشجرة الكبرى التي هي بمثابة الحياة للمتصلين بها، إن اليهود الإغريقين هي الطائفة الوحيدة المعروفة في التاريخ بمحاولتها هذه التجربة للتخلص من اللغة العبرية، وقد خاب فآلها وانتهت إلى الهلاك، سارت في طريق الاضمحلال، وأخيرا ارتدت جملة عن الدين اليهودي، فلنتجنب مغالطة أنفسنا، ليس هناك أي مستقبل لليهود الذين يقاومون اللغة العبرية) (١)، كما اتخذت الصهيونية فكرة التعصب العنصري والديني، وفكرة تقوية الشعور القومي لدى اليهود، وإحياء التاريخ اليهودي، وتقاليد اليهود وعاداتهم، واتخاذ القهر ضمن الوسائل المباحة للوصول إلى غايتهم، وهكذا أصبح للحركة الصهيونية (إيديولوجية) خاصة إذا استبحنا لأنفسنا استعمال هذا التعبير وكانت الجامعة العبرية من نتائج هذا الاتجاه، إذ قصد بها أن تكون المعهد الذي يعمل لإحياء اللغة العبرية. ويتبنى تنمية الشعور القومي وفكرة

(١) في الفكر اليهودي ص ١٧.

التعصب العنصري. وقد وضع اللورد ألبني أساسها سنة ١٩١٨، وافتتحها بلفور ١٩٢٥ (١).

وخطوة ثانية خطتها الحركة الصهيونية، هي اتخاذ مختلف الحيل والسبل للتقليل من استعمال كلمة فلسطين ليدل عليها النسيان، وذلك باستعمال تعبيرات أخرى للدلالة على هذه المنطقة، بعضها له صلة بصهيون وبعضها له صلة بماضي اليهود بهذه البلاد، ومن أبرز التعبيرات التي استعملت تعبيران هما (أرض صهيون) و (إسرائيل) وقد رجح التعبير الثاني عند قيام الدولة اليهودية لأن الصهيونية بفلسطين عرفت بالعنف وحركات القسوة والتدمير، فاقضت السياسة اليهودية أن تتحاشى استمرار استعمال هذا التعبير خداعا للناس، وإيهاما لهم بأن الدولة الجديدة لن تتخذ أساليب الصهيونيين، والحقيقة أنه ليس هناك أدنى فرق بين الدولة الجديدة وبين الصهيونية.

وخطوة ثالثة خطتها الحركة الصهيونية، وبرزت بعد قيام دولة إسرائيل وكان بن جوربون رائدها، هي أنه ضيق حدود الصهيونية، إذ أعلن أنه لا يعد صهيونيا إلا اليهودي الذي يسارع إلى جبل صهيون مضحيا بكل شيء، مؤثرا الحياة بفلسطين على كل حياة، وإلا اليهودي الذي يحس وهو في أي بلد آخر غير إسرائيل أنه في المنفى، وأنه آن الآوان لانتهاه عصر النفي والتشرد. ويقول بن جوربون... أما أولئك اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءا من الشعب الأمريكي أو الإنجليزي أو الفرنسي، أولئك اليهود الذين لا يشعرون أنهم يعيشون في منفى، أولئك اليهود الذين لا يرون أن مستقبلهم ومستقبل أولادهم وأحفادهم لا يمكن أن يوجد إلا في إسرائيل، هؤلاء اليهود جميعا إنما يدوبون تدريجيا في حضارة غير يهودية، ولغة غير يهودية، إن هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم كذبا لقب الصهيونيين بحكم انتمائهم إلى منظمات تحمل هذا الاسم، هم في الحقيقة خطر على مستقبل اليهودية.

(١) مذكرات وايزمان ٤٦، ٦٦.

ويرى بن جوريون أن ما يربط بين اليهود ليس الدين اليهودي بدليل أن الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود لا دينيون، أي لا يؤمنون بوجود الله، وليس العنصر فإن نقاء العنصر بعد هذا التشرذ الطويل ليس ممكنا، وليس اللغة لأن اللغة العبرية قد اختلفت تقريبا ويتكلم اليهود لغات متعددة، وإنما يربط بين اليهود رباط لا يتخلف هو رؤيا العودة، هو الإيمان بأن الخلاص هو في العودة إلى جبل صهيون، حيث أقام داود معبده الأول (١). وتتخذ جولدا ماير نفس الاتجاه، فهي تقول في محاضرة مطبوعة: (بعد قيام صهيون لا يمكن أن يعد صهيونيا إلا ذلك الذي يحمل حقائبه ويأتي على الفور.

(جميل جدا أن يعطينا اليهود في الغرب تأييدهم وحماسهم وأموالهم، ولكن هذا لا يكفي، فمن بعيد لا يمكن أن تتم زراعة النقب، وبقاء إسرائيل يتوقف على ما إذا كان ممكنا أن تزرع صحراء النقب وجبال الجليل، إنني لا أستطيع أن أفصل أمن إسرائيل عن تعمير النقب والجليل، إنني كلما سمعت أغاني إسرائيل يرددتها اليهود في نيويورك ولوس انجلوس وشيكاغو رقص قلبي طربا، ولكن ترديد الأغاني عن النقب في نيويورك أو بوسطن لا يعمر النقب إنما تعمرها هذه الأغاني إذا كانت تقنع الشباب اليهودي بالهجرة إلى النقب، وإلا فسوف يبقى اليهود يعيشون في أمريكا ويغنون عن النقب في أمريكا، ولكن النقب سوف يبقى خاليا مهجورا (٢).

ومع الحركة الصهيونية بدأ التدبير الواسع الذي يرمي ليسيتر اليهود على العالم، فقد كان قرارهم حول فلسطين هو القرار العلني لمؤتمرهم في

(١) بن جوريون: دراسات ومحاضرات مطبوعة نقلا عن (إسرائيليات) للأستاذ أحمد بهاء الدين ص ٥٣ - ٥٤.
(٢) المرجع السابق ٥٦.

بال، أما القرارات السرية لهم فتتمثل في (بروتوكولات حكماء صهيون) وستكلم عنها عند الكلام عن (مصادر الفكر اليهودي). ولكن فحواها أن يتمكن اليهود من الاستئثار بحكم العالم، وأن تكون فلسطين مركزا للحكومة اليهودية التي تسيطر على الشرق والغرب، فاليهود صفوة الخلق ولهم زعامة الجنس البشري، وليس للناس إلا السمع والطاعة لكل ما يشاء اليهود. وبمرور الزمن وخلال حيل اليهود المختلفة استطاع هؤلاء أن يضموا إلى صفوفهم كثيرا من قادة العالم من غير اليهود. فقد قدموا المال للمعسر وعابد المال، وقدموا الجمال لهواة الجمال، ولعبوا بأصواتهم في الانتخابات الأمريكية، وخدعوا الغرب فأوهموه أنهم سيكونون في خدمته... فاستجاب لهم كثير من القادة وأولي الأمر من أمثال تشرشل وإيدن وترومان وإيزنهاور، وكثيرا ما كان تشرشل يقول إنه صهيوني عريق وإنه يفخر بذلك. ولا زال موكب الصهيونية يسير، ولكن القوى العربية والإسلامية قصرت خطواته، وهي تعمل جاهدة لتعيد هذا الموكب القهقري، وتضع مكانه العرب الذين يحملون رسالة الحب والسلام.

الباب الثاني
أنبياء بني إسرائيل وعقيدتهم
من القرآن الكريم

أنبياء بني إسرائيل
كما صورهم القرآن الكريم
تحدث القرآن الكريم عن أنبياء بني إسرائيل أو أكثرهم، فصورهم في
صورة كريمة. وأبرزهم ينطبق عليهم القانون الإلهي في اختيار الرسل، ذلك
الناس (١)) فأنبياء بني إسرائيل ككل الأنبياء صفوة أخيار، وعندما تحدث
الفكر الإسلامي عن صفات الرسل أثبت لهم جميعا علو الفطرة، وصحة العقول
والصدق في القول، والأمانة في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه، والعصمة من
كل ما يشوه السيرة النبوية. وألزم أن يعتقد الناس أن الرسل ممدودة أرواحهم
بمدد من الجلال الإلهي لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطوا عليهم سطوة
روحانية (٢).

وعلى هذا فالحديث عن أنبياء بني إسرائيل مستقى من القرآن الكريم ومن
تفاسيره وشروحه التي دونها المسلمون، يبرز هؤلاء الأنبياء في إطار من
الفضائل والصفاء.

وعلى عكس ذلك ما سيبدو لنا فيما بعد عندما نتحدث عن أنبياء بني
إسرائيل معتمدين على مصادر أخرى غير القرآن الكريم، وبخاصة المصادر
اليهودية، فسرى أن بني إسرائيل لم يراعوا عند الحديث عن أنبيائهم
إلا ولا ذمة، ولم يبدوا في حديثهم أي تقديس لهم أو إجلال، فنسبوا إلى
هؤلاء الأنبياء ولأسرهم ما يدنس تاريخهم وما ينبو عن الذوق.
والفرق بين القرآن الكريم وبين المصادر اليهودية في هذا الموضوع يبدو أكثر

(١) سورة الحج الآية: ٧٥.

(٢) الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: رسالة التوحيد ص ٧٩ - ٨٠.

وضوحاً عند عرض مسائل محددة غير عادية، حدثت من بعض هؤلاء الأنبياء أو اتصلت بسيرتهم، فقد عالجهما الفكر الإسلامي بتؤدة وتقدير، واتجه في بحثها إلى تأويل لا يחדش سمعة هؤلاء الأنبياء ولا يمس كرامتهم، ولكن المراجع اليهودية ذكرتها متبينة جانب السوء والشر، فنسبت لهؤلاء الأنبياء ما لا يمكن أن ينسب لأمثالهم، وستأتي هذه الموضوعات في سيرنا التاريخي مع هؤلاء الأنبياء.

وتاريخ بني إسرائيل المائج يبدأ من موسى، ويمكن أن نبدأ حديثنا عنده، ولكن من الأفضل أن نذهب إلى ما قبل موسى، ليس فقد لنبدأ حديثنا عن يعقوب (إسرائيل) الذي ينسب له بنو إسرائيل، بل لنبدأ بأصل هذه الشجرة ومطلع هذه الأربعة وهو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، فذلك فيما أرى أتم وأوفى.

وعلى هذا فالأنبياء الذين سنتكلم عنهم في هذا الفصل هم: إبراهيم - إسماعيل - إسحق - يعقوب - يوسف - موسى - هارون - داود - سليمان - وعن كل من هؤلاء الأنبياء سنورد آيات القرآن التي تصور اتجاهاته الفكرية والخلقية، ثم نشفعها ببعض التعليقات والدراسات: إبراهيم:

يقول الله تعالى في سورة الشعراء
واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، قال: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقني فهو يهدين، والذي يطعمني ويسقني، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين، رب

وهب لي حكما وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق والآخريين واجعلني
من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبي إنه كان من الضالين، ولا تحزني يوم
يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم (١).

ويقول في سورة مريم.

واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا، إذ قال لأبيه يا أبت لم
تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا، يا أبت إنني قد جاءني من العلم
ما لم يأتك، فاتبعني أهدك صراطا سويا، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان
كان للرحمن عصيا (٢).

ويقول في سورة إبراهيم:

وإذ قال إبراهيم: رب اجعل هذا البلد آمنا، واجنبنني وبني أن نعبد الأصنام (٣).
وهكذا يصف القرآن الكريم إبراهيم أجمل وصف، ويضعه في مكانة
سامية بين الأنبياء، ويعلق الباحثون المسلمون على مواقف إبراهيم تعليقات
كلها إجلال وتقدير، فهم يرون (أن العقيدة الحققة تغلغت في نفسه، واستولت
على فكره، واستغرقت كل خطوات قلبه، وملكت عليه مشاعره ووجدانه،
فهو يستهين بالنار يلقي فيها، ويتقبل كل عذاب دون أن يتراجع أو يتقهقر،
وقد كانت ثورته على الأصنام كلامية وعملية، وكان دفاعه عن عقيدته قويا
دون أن يهاب سطوة ملك أو تجمهر جماهير، وهو مع هذا كان رقيق القلب
يحاول أن يستغفر لأبيه مع علمه بضلاله (٤).

(١) سورة الشعراء الآيات ٦٠ - ٨٩.

(٢) سورة مريم الآيات ٤١ - ٤٤.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٥.

(٤) الأستاذ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ١٥١ - ١٥٢ بتصرف.

ومن المسائل الشائكة التي تتصل بإبراهيم وتختلف فيها وجهة النظر الإسلامية مع وجهة النظر الإسرائيلية مسألة موقف إبراهيم من سارة زوجته عندما وفد بها إلى مصر، وأحس بأنها ستكون مطمعا للحكام والسادة، وسنورد الآن وجهة النظر الإسلامية عن هذه المسألة كما ذكرها رجال من أدق الباحثين المسلمين (١):

رحل إبراهيم إلى مصر عندما ضاقت به سيل العيش في الشام، وكانت تصحبه زوجته سارة، وكان المسيطر على أمور مصر آنذاك ملكا من العماليق الهكسوس، وكانت سارة ذات جمال باهر، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وأغراه بجمالها، وزين له حسنها، وحب إليه الاستحواذ عليها، فصادت هذه المقالة رغبة في نفسه، فدعا إبراهيم إليه، وسأله عما يربطهما من سبب، وما يصل بينهما من قرابة، ففطن إبراهيم إلى مأربه، وعرف مقصده، وخاف إن أخبره أنها زوجته بيت الشر له، وعمل على الإيقاع به لتخلص له من دونه، وليستأثر بها من بعده، فقال إبراهيم له: هي أختي (يقصد أختي في الدين واللغة والإنسانية). فهم الملك أنها ليست بذات بعل، فأمر أن يذهبوا بها إلى قصره، ويسوقوها إلى مخدعه، ورجع إبراهيم إلى زوجته، فأخبرها بقصته، وطلب إليها أن تكون مصدقة لقوله، مؤكدة لخبره، ثم أسلمها لعين الله ترعاها وتحفظها. أدخلت سارة إلى قصر الملك، وزينت بفاخر الثياب وثمانين الحلبي، ولكنها لم تعبأ بهذا الزخرف البراق، ولا بذاك البذخ الخلاب، ولم تعن بما أحيطت به من نعمة، وما رأت من سعة السلطان وبسطة العيش، ولم ينسها كل ذلك الوفاء لزوجها والاستمساك بدينها، وجلست مكتبة حزينة، بل انتبذت مكانا قصيا.

(١) الأستاذ محمد جادل المولى وآخرون: قصص القرآن ص ٤٩ - ٥١.

ولما أقبل الملك عليها ورأى ما بها من لوعة وأسى، حاول أن يخفف من حزنها ويؤنس وحشتها، ويزيل اكتئابها، فجفلت، وأحس الملك اضطرابا في نفسه ووجيبا في قلبه فابتعد عنها حتى تمالك قواه، ثم أراد أن يعيد الكرة فعاد اضطرابه وخوفه، فتركها وآوى إلى فراشه واستسلم للنوم، ورأى في نومه رؤيا استبان بها الحق، وعرف أن لها زوجا، وأحس بلزوم أن يعيدها له دون أن يمسه بسوء. فلما أفاق من نومه أطلق سراحها ووهبها (هاجر) خادمة لها، كما وهبها بعض المال والماشية.

فهل ترى محنة أشد وفتنة أعظم من ذلك؟ رجل غريب يفد إلى بلد سعيا وراء الرزق فتسلب منه زوجته: ويفرق بينه وبين أهله، ولكن الذي نجى إبراهيم من حر النار وسعيرها حفظه من وسمة العار ونجاه من العدوان. ذلك هو الفكر الإسلامي تجاه هذه القصة، فماذا يقول عنها اليهود؟ إن الإجابة عن هذا السؤال سترد في الباب الثالث من هذا الكتاب.

ابنا إبراهيم، وقد رزق بهما بعد أن بلغ من الكبر عتيا، فقد كانت سارة عقيما لا تلد، وكان يحزنها أن ترى بعلها الوفي يتطلع إلى النسل وقد أصبحت هي بأمتها (هاجر) التي قدمها لها حاكم مصر، وتمنت سارة أن تنجب (هاجر) طفلا تقر به عين أبيه ونشرح له نفس سارة، فانصاع إبراهيم لرأيها ودخل بها جرحا. أنجبت هاجر غلاما زكيا هو إسماعيل، فانتعشت له نفس إبراهيم، ولعل سارة قد شاركت إبراهيم في سروره حينها، وشايعته زمنا في بهجته، ولكن الغيرة لم تلبث أن دبّت إلى قلبها، وعقدت عليها الكآبة سحابة مطبقة، فأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام. ولا تحتمل رؤية هاجر، وطلبت من إبراهيم أن يبعد

عنها الغلام وأمه بحيث لا يصل صوتهما إلى سمعها، ولا تقع عليها عينها. أذعن إبراهيم لإرادتها وكأن الله أوحى إليه أن يطيع أمرها، فركب دابته واصطحب الغلام وأمه، وسار، وطال به السير، وامتد به الطريق، حتى وقف في تلك البقعة الجرداء، وترك لهما - كما جاء في رواية البخاري - جوابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم اتجه إبراهيم عائدا، فنادته هاجر: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟ فلم يلتفت لها إبراهيم. فسألته الله أمرك بهذا! قال: نعم. قالت: إذا لن يضيعنا. وكان إسماعيل وأمه بذرة العمران الذي شمل هذه المنطقة فيما بعد على ما فصلته كتب التاريخ (١).

ولما ينس إبراهيم ابنه فكان يفد إليه لماما ويزوره من حين إلى حين، فلما شب إسماعيل وأطاق السعي والعمل، رأى إبراهيم في نومه أنه يؤمر بذبح ولده، ورؤيا الأنبياء تعد بمثابة الوحي المباشر، فارتحل إبراهيم حتى لقي ابنه، ولنلجأ إلى القرآن الكريم لنستكمل هذه الحادثة. (قال: يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال: يا أبت، افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتاء للجيبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم، كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين، وباركنا عليه وعلى إسحاق (٢).

(١) أنظر صحيح البخاري وموسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ ص ٦١ وما بعدها من الطبعة الخامسة، وقصص القرآن للأستاذ محمد جاد المولى وآخرين ص ٥٢ - ٥٣.
(٢) سورة الصافات الآيات ١٠٢ - ١١٣.

وهكذا نجا إسماعيل من الذبح، ومن الواضح أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحق كما تذكر التوراة، فبالنسبة للاستدلال بالقرآن نجد أن البشرى بإسحاق جاءت بعد قصة الذبيح، أي أن إسحاق لم يكن قد ولد بعد عندما حدثت هذه القصة، وهذا يؤكد أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، ويؤكد كده كذلك نسق الآيات التي وردت مبشرة بمولد إسحاق، فقد ارتبطت بشارة المولد بأن الوليد سيكون نبيا وبأنه سيكبر ويتزوج ويولد له ولد يسمى يعقوب، قال تعالى:

- وبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب (٢).

ومن التناقض أن يكلف الله إبراهيم بذبح غلام وعد الله أنه سيكون نبيا وأنه سيتزوج ويعقب.

وبالنسبة للتوراة يلحظ الباحث المدقق أن ما ورد بها عن تحديد الذبيح بأنه إسحق عمل مصنوع لم تتقن صنعته، فقد جاء في الأصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين (إن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم. فقال: هأنذا، فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق. واذهب إلى جبل الموريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك... (٣)) ووضع الاسم، (إسحق) مع كلمة (وحيدك) تناقض ظاهر لأن إسحق لم يكن وحيدا لإبراهيم في يوم من الأيام، فقد ولد وعمر إسماعيل أربع عشرة سنة كما نصت التوراة، وبقي إسماعيل وإسحق معا حتى مات إبراهيم ودفناه معا في مدينة حبرويه (الخليل) (٤).

ودليل آخر نسوقه على كون الذبيح إسماعيل لا إسحق، ذلك هو أن كاتب التوراة من اليهود دأبوا على محاولة إسناد الفضائل إلى أجدادهم، فإذا كان في قصة الذبح طاعة وامثال فإنهم ينسبونها لإسحاق، وسنراهم

-
- (١) سورة الصافات الآية ١١٢. (٢) سورة هود الآية ٧١.
(٣) سفر التكوين الأصحاح الثاني والعشرين الفقرات ١ - ٣.
(٤) سفر التكوين الأصحاح الخامس والعشرين الفقرات ١ - ٣.

كذلك يحاولون أن ينقلوا بركة إسحق إلى جدهم يعقوب بدلا من أخيه الأكبر عيسو على ما سيأتي:

يعقوب ويوسف:

إن ما ذكره القرآن الكريم عن يعقوب يضعه في مكانة سامية من الحكمة واليقين، تعال بنا نقتبس من آي الذكر الحكيم ما يبرهن على هذا الرأي:

- إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا، والشمس

والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك

فيكيدوا لك كيذا إن الشيطان للإنسان عدو مبين (١).

- وجاءوا على قميصه بدم كذب، قال (يعقوب) بل سولت لكم أنفسكم

أمرا فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون (٢).

- وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة،

وما أغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلا لله، عليه توكلت، وعليه فليتوكل

المتوكلون، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من

شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن

أكثر الناس لا يعلمون (٣).

- قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله (٤).

أما عن يوسف فإن السورة المسماة باسمه تسجل له قدره في العلم والحكمة

والعفة وضبط النفس قال تعالى:

- ولما بلغ أشده آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين،

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب، وقالت هيت

لك. قال: معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون،

(١) سورة يوسف الآيتان ٤ - ٥.

(٢) نفس السورة الآية ١٨.

(٣) نفس السورة الآيتان ٦٧ - ٦٨.

(٤) نفس السورة الآية ٨٦.

ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه
السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين (١).

قال: رب، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني
كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه فصرف عنه
كيدهن إنه هو السميع العليم (٢).

ومن تعليقات الباحثين المسلمين على يوسف نقبتس العبارة الآتية: قد
تقلب يوسف في حالي البؤس والرشاء، وتداولته أيدي ريحين: زعزع ورشاء،
وهو كالذهب الابريز لا يزيد على الثقلب في النار إلا صفاء، أو كالياقوت
لا تؤثر فيه النيران، فبينما هو في كنف يؤثره بالكرامة ويحوطه بالمحبة، إذا
هو في يد إخوة يسومونه الإهانة والمذلة، ويلقونه في غيابة الجب ظالمين، ثم
يشم ريح الحياة من جديد ولكنها حياة رق وعبودية، ثم ينتقل منها إلى عزيز
مصر حيث يرى الترف والخير والغنى ولكن مع الغواية ودوافع الخطيئة،
بيد أنه ينتصر على نفسه، ويتخذ العفة ملجأه وإن دفعت به إلى السجن... (٣).

موسى وهارون:

تكررت قصة موسى وهارون في القرآن كما لم تتكرر قصة أخرى،
وقد بين الله في القرآن الكريم كيف رعى موسى منذ طفولته المبكرة،
ونشأه أطيّب تنشئة، واصطفاه لرسالته، وشد أزره بأخيه هارون
عندما طلب موسى ذلك، وأيده بأقوى المعجزات، وفي خلال القصة
فيض من الثناء على موسى وهارون ووصف لموسى بأنه مناضل في الحق،

(١) سورة يوسف الآيات ٢٢ - ٢٤.

(٢) نفس السورة ٣٣ - ٣٤.

(٣) الأستاذ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ١٨٠ يتصرف.

دءوب، لا يخاف في الله لومة لائم: فإذا أخطأ موسى غفر الله له خطيئته وحرصه من عواقبها، ولنقتبس من أي الذكر الحكيم بعض الآيات بينات تتصل بموسى وهارون:

- وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي، ولا تحزني، إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين (١).
- ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكزه موسى فقضى عليه، قال: هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين، قال: رب، إنني ظلمت نفسي فاغفر لي، فغفر له، إنه هو الغفور الرحيم (٢).
- قال: رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا، قال: قد أوتيت سؤالك يا موسى (٣).
- قال: يا موسى إنني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء (٤).

وتعرض موسى لإيذاء بني إسرائيل، فقبل إنه دبرت ضده مؤامرة ليرمى بالزنا في حفل من الناس، وقيل إنه اتهم بقيلة مائة أو غيرها من العيوب الجسمانية، وقيل إنه اتهم يقتل هارون أخيه، وقد تصدى القرآن الكريم للدفاع عنه وإثبات براءته.

(١) سورة القصص الآية السابعة، وانظر تعليق البلغاء العرب على هذه الآية في (المجتمع الإسلامي) للمؤلف ص ٢٠٩ - ٢١٠ من الطبعة الرابعة.
(٢) سورة القصص الآيتان ١٥ - ١٦. (٣) سورة طه الآيات ٢٤ - ٢٦.
(٤) سورة الأعراف الآيتان ١٤٤ - ١٤٥.

قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً (١).

داود:

اجتمع لداود النبوة والملك، وحباه الله من النعم أشرفها. ومن الفضل والتوثيق أكثره وأعظمه، وقد تحدث القرآن عن ذلك في آيات عدة نقتبس هنا بعضها:

- وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء (٢).
- ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أربى معه، والطير، وألنا له الحديد، أن أعمل سابغات وقدر في السرد، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير (٣).
واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (٤).

وهناك قصة تتصل بداود وأحدرعاياه واسمه (أوريا) وامرأة اسمها (سابع) وسرى فيما بعد أن بني إسرائيل يصورون اتصال داود بسابع في صورة الزنا، كما يصورون داود مدبراً للمؤامرات ليتخلص من زوجها، ولكن الفكر الإسلامي الذي يسمو بالأنبياء عن الرذائل والنقائص صور هذه المسألة في صورة تنأى عن الكبائر، ولم يرها إلا هفوة استحقت نوعاً عن العتاب والتعليم من الله، لنبيه ومصطفاه.

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٩. (٢) سورة البقرة الآية ٢٥٠.
(٣) سورة سبأ الآيتان ١٠ - ١١. (٤) سورة ص الآيات ١٧ - ٢٠.

وقصة ذلك - في نظر المسلمين - أن أوريا كان قد خطب سابغ لتكون زوجة له، ولكنه استدعى للحرب قبل أن يتم عقد الزواج، وطالت غيبته عن خطيبته وأهلها، فأعجب بها، فخطبها من أهلها فاستجابوا له، وتم الزواج بينهما، وهي أم سليمان.

هل كان من اللائق أن يتزوج داود امرأة ارتبطت بغيره رباط ما، مع أن عنده من الزوجات والسراري عددا كبيرا؟ ذلك ما عوتب عليه داود بطريق غير مباشر حيث هبط عليه ملكان في صورة رجلين يشكو أحدهما الثاني بأنه له تسع وتسعون نعجة ومع ذلك يطمع في نعجة واحدة يمتلكها الشاكي، ويستغل الطامع نفوذه وفصاحته لينال مأربه، ويحرم أخاه من نعجته الوحيدة وحكم داود، بأن هذا ظلم لا بد أن يقاوم، وابتسم الملكان ابتسامة لها معنى، واحتفيا وهناك صوت ينبعث: لماذا إذا ضمنت (سابغ) إلى عشرات النساء عندك وحرمت منها أوريا؟ وأدرك داود أنه زل، فانكب يستغفر الله ويرجو عفوه، فغفر الله له، وقص القرآن هذه القصة. وبها مزيج من العتاب والتربية والاستغفار والعتاب، قال تعالى:

وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم. قالوا: لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض: فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط وأهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فقال: أكفلنيها. وعزني في الخطاب، قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم. وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه، وخر راكعا وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب (١).

(١) سورة ص الآيات ٢١ - ٢٥.

سليمان:

ورث سليمان ملك أبيه، ومنحه الله من أفضاله ونعمه ألوانا تدعو للدهشة والعجب. وقد ذكر القرآن الكريم صور هذه المنح العظيمة، وفيما يلي قبس من هذا الفيض الرباني الزاخر نقتبسه من الذكر الحكيم:

- وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلما، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون، ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (١).

ويقول المفسرون عن حكم داود وسليمان في الحرث إن زرعنا ناضجا أكلته ليلا غنم لغير أصحابه، فشكا أصحاب الزرع غرماءهم إلى داود وعنده سليمان، فحكم داود بالغنم لأصحاب الزرع عوضا عن التلف. قال سليمان: غير هذا أرفق، فسئل: ماذا يرى؟ فقال تدفع الغنم لصاحب الزرع عاما ينتفع بألبانها وأشعارها وأولادها، وفي خلال هذا العام تدفع الأرض لصاحب الغنم ليعيد زرعها وتنميتها. وبعد العام يسترد كل ماله. وأخذ داود بذلك.

- وورث سليمان داود وقال: يا أيها الناس علمنا منطلق الطير، وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون (٢).

(١) سورة الأنبياء الآيات ٧٨ - ٨٢.

(٢) سورة النمل الآيات ١٦ - ١٧.

- ولسليمان الريح عدوها شهر ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر،
ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من
عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتمثيل وجفان كالجواب وقدور
راسيات، اعملوا آل داود شكراً، وقليل من عبادي الشكور (١).
* * *

وبعد، هؤلاء هم أنبياء بني إسرائيل في آيات القرآن، رسل مصطفىون،
وقادة صالحون، جاءوا ليكفحوا الشر في قومهم، وليقودوهم سواء السبيل،
ولكن بني إسرائيل كانوا غلف القلوب فما انتفعوا بالارشاد، ولا اتبعوا
الهدى، بل ضلوا سواء السبيل، ومالأوا الدنيا تمردا وشرورا، كما رأينا وكما
سنرى فيما بعد.

(١) سورة سبأ الآيتان ١٢ - ١٣.

عقيدة بني إسرائيل
كما صورها القرآن الكريم

ويجئ الآن دور الحديث عن عقيدة بني إسرائيل، وكما أعطى القرآن الكريم صورة طيبة لأنبياء بني إسرائيل، فإنه كذلك تحدث عن العقيدة التي كلفوا بها فصورها سليمة صادقة صافية، لا تختلف عن عقيدة المسلمين، قال تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط (١)). فالعقيدة الأصيلة لبني إسرائيل كانت الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، إله الناس جميعا، خالقهم وراعاهم، العالم بكل شئ، والقادر على كل شئ، والإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر، وما يتصل بذلك من الحساب والثواب أو العقاب...

ونسوق فيما يلي من آي الذكر الحكيم ما يوضح هذه الصورة، قال تعالى على لسان إبراهيم:

- إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين، وحاجه قومه، قال أتحاجوني في الله وقد هدان، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شئ علماً، أفلا تتذكرون؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم إلا من وهم مهتدون، وتلك حجتنا آتينها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم، ووهبنا له إسحاق ويعقوب

(١) سورة النساء الآية: ١٦٣.

كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف
وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا
وكلا فضلنا على العالمين (١).

وتوضح هذه الآيات إيمان إبراهيم بالله الذي فطر السماوات والأرض،
ومقاومته لقومه عندما حاجوه في ذلك، وتأكيد أنه الله وسع كل شيء علما،
كما توضح أن أبناء الأنبياء نالوا من الهدى والرشاد ما نال أبوهم إبراهيم (كلا
هدينا ونوحا هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان...).

وهناك مجموعة أخرى أو مجموعات من آيات القرآن تشهد لإبراهيم وبنيه
أنهم آمنوا بالإله الواحد القهار، نسوق منها قوله تعالى:

- ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في
الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب
العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين
فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال
لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل
وإسحق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون (٢).

ومن العقائد التي كان على بني إسرائيل أن يتبعوها، إيمانهم بالبعث متبعين
في ذلك سنة أبيهم إبراهيم، قال تعالى: وإذ قال إبراهيم: رب، أرني كيف
تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي. قال: فخذ
أربعة من الطير فصرنهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا: ثم
أدعهن يأتينك سعيًا، واعلم أن الله عزيز حكيم (٣).

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٩ - ٨٦.

(٢) سورة البقرة الآيات ١٣٠ - ١٣٣.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٦٠.

ويشرح الأستاذ محمد جاد المولى وزملاؤه هذه العقيدة بقولهم (١): قد كان إبراهيم مفعم القلب بالإيمان بربه، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه، مؤمناً بما أوحى إليه من بعث الناس بعد موتهم، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم، ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً، وثقة و يقيناً، وتطلع إلى أن يلمس البرهان البين على البعث، ويرى الحجة الواضحة على النشور، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بعد موتهم، ويعيثرهم بعد فناء أجسامهم، فقال الله له: أولم تؤمن؟ قال: بلى، قد أوحيت إلي وأمنت وصدقت، ولكن تاقت نفسي إلى المشاهدة ليطمئن قلبي ويزداد يقيني. فاستجاب الله دعاءه وآتاه سؤله، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعها إرباً ويفرق أشلاءها بأن يجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً بإذن الله. وفعل إبراهيم ذلك وعادت الأشلاء تتجمع، وسعت إليه الطيور الأربعة، وزاد يقين إبراهيم، وامتلاً قلبه اطمئناناً. وتكررت عقيدة التوحيد والإيمان باليوم الآخر منسوبة إلى غير إبراهيم من أنبياء بني إسرائيل والصالحين منهم، قال تعالى على لسان يوسف: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢).

(١) قصص القرآن ص ٣٢.

(٢) سورة يوسف الآيات ٣٧ - ٤٠.

وعن التوحيد واليوم الآخر والحساب يقول الله تعالى مخاطبا موسى:
(إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاتبعني وأقم الصلاة لذكري، إن الساعة آتية
أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها
واتبع هواه فتردى (١) ويقول الله تعالى على لسان موسى واصفا الله جل وعلا
بأنه خالق كل شيء ومانحه الهدى (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم
هدى) (٣). وعن علم الله سبحانه وتعالى يقول القرآن الكريم على لسان موسى
(إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما (٣).
وعن الحياة الدنيا ومتاعها، والحياة الآخرة وما بها من جزاء يقول الله
تعالى على لسان موسى: (يا قوم، إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة
هي دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن عمل صالحا من ذكر
أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤).
وهكذا كانت العقيدة التي نادى بها أنبياء بني إسرائيل، متفقة تماما مع
عقيدة المسلمين، تهتم بوحدانية الله إله الكون، وإسناد الصفات المقدسة إليه
سبحانه، كما تهتم باليوم الآخر والحساب وغيرهما من المعتقدات.
* * *

هذه فكرة واضحة عن أنبياء بني إسرائيل وعقيدتهم من وجهة
النظر الإسلامية، ولكن بني إسرائيل ثاروا في وجه أنبيائهم، ورفضوا

(١) سورة طه الآيات ١٤ - ١٦. (٢) سورة طه الآية ٥٠.
(٣) نفس السورة الآية رقم ٩٨. (٤) سورة فاطر الآيتان ٣٩ - ٤٠.

الاستجابة لهم، وأطرحوا العقيدة التي جاء بها هؤلاء الأنبياء، ثم هاجموا الأنبياء، وقتلوهم أحيانا، واستبد بهم الضلال والجحود، فعبدوا غير الله وأنكروا البعث، ونسبوا لأنبيائهم ما لا يمكن أن يصدر من أنبياء، ويحدر بنا ونحن لا نزال مع القرآن أن نستعرضه لنقتبس منه بعض الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل ووصفت أخلاقهم وصفاتهم، قال تعالى:

... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١).

- ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة (٢).

- أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون (٣).

- أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون (٤).

- يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون (٥).

- وضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٦).

(١) سورة البقرة الآية ١٦. (٢) سورة البقرة الآية ٧٤.
(٣) سورة البقرة الآية ٨٥. (٤) سورة البقرة الآية ٨٧.
(٥) سورة آل عمران الآية ٧١. (٦) سورة آل عمران الآية ١١٣.

- من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا
واسمع غير مسمع، وراعنا، ليا بألسنتهم وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا
وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم
فلا يؤمنون إلا قليلا (١).

- فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق،
وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا (٢).

- فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم
عن مواضعه، ونسوا حظا مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم
إلا قليلا منهم... (٣).

- وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم، ولعنوا بما قالوا،
بل يدها مبسوطتان يتفق كيف يشاء، وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك
من ربك طغيانا وكفرا، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة،
كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فسادا والله
لا يحب المفسدين (٤).

- لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم،
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس
ما كانوا يفعلون (٥).

- واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار، ألم يروا
أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين (٦).

(١) سورة النساء الآية ٤٦. (٢) سورة النساء الآية ١٥٥.

(٣) سورة المائدة الآية ١٣. (٤) سورة المائدة الآية ٦٤.

(٥) سورة المائدة الآيتان ٧٨ - ٧٩. (٦) سورة الأعراف الآية ١٤٨.

– إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا،
وكذلك نجزي المفترين (١).

– اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم (٢).

وسرى في الفصل التالي تفاصيل الانحراف انحدر إليه بنو إسرائيل
عند كلامهم عن أنبيائهم وعقيدتهم.

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٣. (٢) سورة يوسف الآية ٤٠.

الباب الثالث
أنبياء بني إسرائيل وعقيدتهم
من غير القرآن الكريم

أنبياء بني إسرائيل
من غير القرآن الكريم

يتحتم علينا أن نخصص مكاناً في مطلع هذا البحث لنذكر فيه مقدمة ضرورية له، فنحن المسلمين نجل كل الأنبياء ونعظمهم، بيد أننا في دراستنا العلمية نجد عن بعضهم آراء لا تتفق مع عقيدتنا عنهم، ولكننا مع هذا نلتزم بذكرها لنتمكن من إعطاء صورة متكاملة عن كل منهم تمثل كل الجوانب وألوان التفكير، فما ذكره المستشرقون من غمزات عن نبينا محمد صلوات الله عليه في تعدد زوجاته، وموقفه من القبلة، ومن اليهود... ذكرناه وناقشناه (١)، وفي كتابي عن (المسيحية) تحدثت عن المسيح في رأي المسلمين، ثم عن المسيح في رأي المسيحيين، فصورته في الأولى كما صورته القرآن بشراً رسولاً... وفي الثانية أوردت أقوال المسيحيين عنه التي تصوره ابن الله نزل إلى الأرض وضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر... وأنبياء بني إسرائيل صورهم القرآن تلك الصورة الطيبة التي سبق أن أوردناها، ولكن البحث لا تكتمل عناصره حتى نورد عنهم ما ذكرته التوراة وما ذكرته المراجع الأخرى، على نمط ما فعلنا مع محمد ومع عيسى، ولن نحتاج في العرض الذي سنقوم به إلى مناقشة ما سنورده من آراء، لأن الرأي الإسلامي قد أوردناه بادئ ذي بدء وهو الذي نرتضيه، فنحن في هذا الباب الذي نأخذ فيه، نسرد آراء الآخرين حتى لا يكون البحث مبتوراً، وبخاصة أن أكثر ما سنورده مقتبس من الكتاب المقدس لدى اليهود،

(١) اقرأ الجزء الأول من (موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية) وقرأ كذلك كتاب (الإسلام) من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف.

والمسلمون يرون أنه محرف، وليت شعري لقد حرفه اليهود (١) لا ليرفعوا من مكانة أنبيائهم وعقيدتهم، بل ليطعنوا الأنبياء وينحطوا بالعقيدة، وهذا هو الذي دعا كثيرين من الباحثين إلى الأخذ بما ورد في التوراة متبعين المبدأ العام الذي يرى أن التحريف يكون لصالح من حرف ولا يكون لإدانته. فإذا كان رجل مدينا لرجل بعشرة جنيهاً وحرف الدائن صك الدين فإن الطبيعي أن يزيد الدين وليس طبعياً أن يحرفه بالنقص ليحلب الخسارة على نفسه. على أي حال فإن هذا البحث به صورتان متناقضتان، إحداهما مقتبسة من الذكر الحكيم تمثل رأي المسلمين وقد سبق إيرادها، والأخرى مقتبسة من التوراة ومن المراجع الأخرى نذكرها على مسؤولية كتابها استكمالاً لعناصر الدراسة دون أن نؤيدها أو نوافق عليها، وحسبنا هذا التقديم الضروري عن هذا الباب بوجه خاص وعن المواقف المماثلة بالكتاب كله بوجه عام (٢).

وقبل أن نأخذ في هذا، ينبغي لنا أن نوضح أن تاريخ العبريين يذكر عدداً كبيراً من الأنبياء قاموا بين الناس بدور الوعاظ وظهروا بعد انقسام مملكة سليمان، وكان ظهور هؤلاء رد فعل للنظام الطبقي الذي اتسع مداه بين اليهود، فقد كانت هناك جماعة تنعم بالغنى الفاحش، وكان آخرون يتساقطون جوعاً، وكان كذلك رد فعل لانشغال الكهنة بالمال والتقاليد والمظاهر عن الروح الدينية الحقيقية، ومن أجل هذا كثر

(١) أو وضعوه كما سنرى عند الكلام عن العهد القديم.

(٢) يلاحظ القارئ مزيداً من الحيطة والتحرز حول هذه الدراسة، ولكن مما يخلف الحرج أن ما سنقتبسه هنا مأخوذ من الكتاب المقدس وهو مطبوع ومتداول بين أيدينا، ومأخوذ كذلك من مراجع مطبوعة ومتداولة بيننا، وسير ذكرها مع كل اقتباس.

في هذا العصر من أطلقوا على أنفسهم أنبياء وكان هؤلاء - كما يقول Wells (١) - ينتمون إلى أصول وطبقات متباينة، فكان حزقيال مثلا من طائفة الكهنة، وكان ذا عواطف كهنوتية، وكان عاموس راعيا، على أنهم يشتركون في كونهم يثثون في الحياة قوة دينية خارج نطاق القرابين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد... فظلوا بعيدا عن الخطة الدينية الرسمية، ولم يبرح الكهان يتبرمون بالأنبياء تبرما يتفاوت قدره، إذ أنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس في الشؤون العامة، والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغربية، وهم قوم (نصبوا أنفسهم بأنفسهم) ولم يكن لهم من سند يستندون إليه إلا ما يحسون من نور باطني، وفي الكتاب المقدس صيغة ثابتة هي: وعند ذلك جاءت كلمة الرب إلى... ويروى عن عاموس في محاربة الكهنة والأغنياء قوله: إنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح، بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها، وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها، لأنني علمت أن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة، أيها المضايقون البار، الآخذون الرشوة، الصادون البائسين خلف الباب، لذلك يصمت العاقل في ذلك الزمان لأنه زمان ردي (٢).

على أن هؤلاء الذين يطلق عليهم (الأنبياء) لم يكونوا كلهم يستحقون الاحترام، فقد كان بعضهم من المتنبيين الذين يحاولون قراءة قلوب الناس ومعرفة ماضيهم ومستقبلهم، ويتقاضون نظير ذلك بعض الأجور، وكان منهم متعصبون متهوسون يستثيرون مشاعر الناس بالأصوات الموسيقية الغربية أو المشروبات القوية أو الرقص، وينطقون في أثناء غيبوتهم بعبارات يراها

(١) The Outline of History P. ٢٩٤.

(٢) علموس: الأصحاح الخامس ١١ - ١٣.

أصحابهم وحيأ أوحى إليهم، وكان بعضهم لذلك يسخر من بعض (١)، وعن هؤلاء يصيح حزقيال: قل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب، هكذا قال الرب: ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روجهم، ولم يروا شيئا، أنبياءؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب في الحرب... رأوا باطلا وعراقا كاذبة، القائلون وحي الرب، والرب لم يرسلهم... (٢).

وإذا ضربنا صفحا عن المتنبيين والمتهوسين، فإننا يجدر بنا أن نذكر كلمة عن أربعة قيل عنهم إنهم الأنبياء الكبار في هذا العهد، وهم: أشعيا (القرن الثامن ق م): كان من مستشاري الملك حزقيا ملك يهوذا (٧٢٩ - ٦٨٨ ق م) الذي حاصر سنحريب ملك أشور أورشليم في عهده، ولأشعيا نبوءة امتازت بشدة لهجتها، فقد كان يحمل على من يتظاهرن بالورع، مع جمع الأموال والسيطرة على الأقوات وحرمان الفقراء. وعن أشعيا يقول Weech: كان أشعيا من سكان أورشليم، وهو ينتمي إلى الطبقات العليا بين السكان ويحتمل انتسابه للأسرة المالكة، وقد بدأ نبوءته بالرؤيا التي قصها في السفر المنسوب إليه، ومن نبوءاته التي تحققت سقوط السامرية، وهجوم سنحريب على أورشليم، وهو أول من وضح أن يهوه إله عالمي وأن الممالك كلها أدوات في يده، وهو يدفع إحداهما لتقتص من الأخرى على ذنب وقعت فيه، وأشعيا أول من تنبأ بمجيء المسيح (٣).

أرميا (٦٥٠ - ٥٨٠ ق م) تنبأ بسقوط أورشليم، ونادى بالخضوع لملوك بابل، فاضطهده ملوك اليهود واعتدوا عليه، وكان أرميا شديد الحقد

(١) سليمان مظهر: قصة العقائد ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٢) حزقيال: ١٢: ٢ - ٦.

(٣) Civilization of the Near East p. ٦٩.

على قومه يدافع عن بابل ويعلن في المملأ أنها سوط عذاب في يد الله، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى نبوخذنصر، حتى ليكاد من يقرأ أقواله في تلك الأيام أن يتهمه بالخيانة الوطنية، وأن يظن أنه من صنائع بابل المأجورين (١) استمع إليه يقول على لسان ربه: إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة، وبذراعي الممدودة، وأعطيته لمن حسن في عيني، والآن وقد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدي، وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه، وتخدمه كل الشعوب... والأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذنصر ملك بابل، والتي لا تجعل عنقها تحت نيره إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء، يقول الرب: حتى أفنيها بيده، فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعائقيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل. لأنهم إنما يتنبئون لكم بالكذب (٢). وكلام أرميا أبلغ وصف لأنبياء هذا العهد.

ويقول Weech (٣) عن أرميا إنه كان رجلا مثقفا فصيحاً، شديد التأثير بما كتبه هوشع، وقد ندد بأخطاء قومه، وأنذرهم بالعقوبة، وقال أرميا بأن الدين مسألة عقيدة، وليست مسألة طقوس، وخلال حصار أورشليم صاح بأنه لا أمل، ودعا للاستسلام، وعندما سقطت المدينة أخذ أسيرا ولكن سرعان ما أطلق آسروه حرته وأعادوه إلى أورشليم، ليستغلوا فيه اتجاهه لتهدئة قومه، ودعوته لهم بالخضوع للفتاحين الجدد، ثم هاجر إلى مصر مع من هاجروا إليها وهناك لم يسمع له ذكر بعد ذلك. حزقيال (القرن السادس ق م): عاصر فترة سقوط مملكة يهوذا، وكان يشجع قومه على احتمال المتاعب والمحن، ويعلمهم أن ما نزل بهم

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٥٨.

(٢) أرميا: ٢٧: ٥ - ١٠.

(٣) Civilization of the Near East p .٩٠ (٣)

إنما هو من القصاص العادل الذي أوقعه الرب عليهم، وكان يحذرهم من مخاطر رخاء العيش وعبادة الأوثان في البلدان التي ساروا إليها بعد سقوط بلادهم. وكان حزقيال من رجال الذين، وقد أبعده إلى بابل بعد استسلام أورشليم ويبدو أنه هناك منح قدرا كبيرا من الحرية، وكان يلجأ له كثير من الناس ليعرفوا منه أمر المستقبل، إذ كان شائعا أنه يوحى إليه وأن نبوءاته صحيحة، وكانت تنبوءاته كثيفة توحى بالتشاؤم من المستقبل، ولم يهتم الناس بها في بادئ أمره ولكن سرعان ما تحققت نبوءته عن تدمير أورشليم، فالتف حوله الناس وآمنوا بما يقول، وأصبح حزقيال بينهم وكأنه يتمتع بما يمكن أن يسمى الحاسة الزائدة، وكثيرا ما كان يسقط في غيبوبة أو يشمله الذهول، وينسب له أنه نقل الفكر اليهودي من عهده يهوه إلى ما هو عليه الآن، ورفض القول بأن الأبناء يؤخذون بذنوب آبائهم، وأعلن أن كل إنسان يؤخذ بذنبه فقط، واهتم حزقيال بالطقوس الدينية، وقال بالبعث والحساب وبالمسيح الذي سيحى من نسل داود ويصبح ملكا لليهود (١).

دانيال: ويشتهر سفره بالمنامات والرؤى الرمزية التي أعلنت مستقبل الشعب الإسرائيلي، لا سيما من الضربات الحالة عليهم، ووعدهم بالخلاص على يد المسيح.

ولنعد بعد هذا إلى الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم لنروي عنهم بعض الأحداث التي وردت في غير القرآن الكريم منسوبة لهم: إبراهيم:

عن قصة فرعون وإبراهيم وسارة التي سبق أن أوردنا عنها وجهة

(١) ٩١ - ٩٠. Weech. Civilization of the Near East pp:

النظر الإسلامية جاء في سفر التكوين ما يلي: وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذ رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قل لي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك، وحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا فمدحوها لدى فرعون فأخذت إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ما رأى امرأة أبرام، فدعا فرعون أبرام وقال ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت إنها أختي حتى أخذتها لتكون لي زوجة؟ والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب (١).

وعن إله إبراهيم يتكلم المؤرخ Weech فيرى أن الفكر الديني كان بدائيا في عهد إبراهيم، وأن الإله الذي دعا له إبراهيم كان من نوع الآلهة التي كان يعبدها أبوه وآله، وأنه هو يهوه الذي اعتبر إله بني إسرائيل فيما بعد (٢).

ميراث إبراهيم وميراث إسحق:
حرص واضعوا التوراة على أن يسجلوا على إبراهيم أنه حابي ابنه إسحق وأعطاه كل ما كان له، وأما بنو السراي اللواتي كن لإبراهيم فأعطا لهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا إلى أرض المشرق وهو بعد حي (٣)، وإذ كان واضعوا التوراة قد حرصوا على إبعاد إسماعيل

(١) تكوين: ١٢: ١٠ - ١٩

(٢) Civilization of the Near East p .٨٢

(٣) تكوين: ٢٥: ٥ - ٦.

أيضا، فقد نسوا ذلك وعادوا فذكروا ما يدل على أن إسماعيل ظل بجوار أبيه حتى موته، واشترك هو وإسحق في دفنه (١).
وحدث مثل ذلك أيضا بالنسبة ليعقوب وأخيه عيسو ولدى إسحق، فتروي التوراة أن إسحق تزوج من امرأة اسمها رفقة فحملت منه، وتزاحم في بطنها توأمان فمضت لتسأل الرب، فقال لها الرب: في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شعبان: شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد الصغير، فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو، وأصبح بكر أبيه، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب، وكبر الغلامان وكان إسحق يحب عيسو وأما رفقة فكانت تحب يعقوب، وطالما حاول يعقوب أن يحل محل أخيه في البكورية، وتقول التوراة إن يعقوب طبخ طبيخا فأتى عيسو من الحقل وقد أعيا، فقال ليعقوب: أطعمني لأنني قد أعيتت. فقال يعقوب: بعني اليوم بكوريتك، فقال عيسو: أنا ماض إلى الموت فلماذا لي بكورية؟ فقال يعقوب: احلف لي اليوم. فحلف له، فباع بكوريته ليعقوب، فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى، واحتقر عيسو البكورية (٢).
ويستمر سفر التكوين في وصف المحاولات التي قام بها يعقوب لينال ميراث أبيه دون أخيه عيسو، ويصف سفر التكوين أعمال يعقوب بالشطط والكذب لينال ما ليس له، وفيما يلي عبارة سفر التكوين:
وحدث لما شاخ إسحق وكت عيناها عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يا ابني. فقال له: هأنذا. فقال إسحق: إني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي فالآن خذ عدتك، جعبتك وقوسك، واخرج إلى

(١) نفس الأصحاح: الفقرة التاسعة

(٢) تكوين: ٢٥: ٢١ - ٣٤.

البرية، وتصيد لي صيدا، واصنع لي أطعمة كما أحب وأنني بها لأكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت، وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيدا، وأما رفقة فنقلت ذلك ليعقوب ابنها وقالت له: إذهب إلى الغنم وأحضر لي جديين جيدين فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، وتحضرها إلى أبيك ويباركك. فقال يعقوب لأمه: هوذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجلس أملس، وربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة، فقال له أمه: لعنتك علي يا بني اسمع لقولي فقط، فذهب وأحضر الجديين وصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبستها يعقوب ابنها الأصغر وألبست يديه وملاسة عنقه جلود الجديين، وأعطت الأطعمة والخبز إلى يعقوب.

فدخل إلى أبيه وقال يا أبي، فأجاب هأنذا من أنت يا بني؟ فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتني، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك، فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد؟ فقال: إن الرب إلهك قد يسر لي، فقال إسحق ليعقوب تقدم لأجسك أنت هو ابني عيسو أم لا، فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو، فقال له هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو فأكل إسحق وشرب وقال لابنه تقدم وقبلني ففعل فشم رائحة ثيابه واعتقد منها أنه عيسو، فدعا له وباركه قائلا: فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، لتستعبد لك الشعوب وتسجد لك قبائل، كن سيدا لأخوتك وليسجد لك بنو أمك ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين (١).

(١) الأصحاح ٢٧: ١ - ٢٩.

ويستطرد سفر التكوين فيذكر أن عيسو عاد وصنع طعاما وجاء إلى أبيه فعرف ما حدث وطلب من أبيه أن يباركه وصرخ وبكى فقال له إسحق: هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد (١).

وحقد عيسو على يعقوب وحاول قتله فعرفت أمه ذلك فأوصت ابنها بالهرب إلى بيت خاله لابان، وهناك خطب يعقوب ابنة خاله الصغرى (راحيل)، ودفع مهرها سبع سنين عملا لأبيها، ولما أتمها طلب زوجته فأدخله أبوها على ابنته الكبرى (ليئة) وكانت عيناها ضعيفتين، ولما غضب يعقوب لذلك التزوير، طلب منه خاله أن يعمل سبع سنين آخر ليزوجه ابنته الصغرى ففعل، وحدث أن يعقوب وهو عائد إلى فلسطين أن قابله أخوه عيسو فتخوف يعقوب منه، لما يعرف من سابق حقه عليه، ولكن عيسو كان كريما معه، فركض لقاؤه وعانقه (٢). ويعلق Smith. D. W. J على تصرفات يعقوب هذه بقوله: ولا نجد بحال من الأحوال وسيلة لقبول تصرفات يعقوب، فقد كان واضحا أنها غير عادلة وكان يسلك مختلف السبل وينتهز كل الفرص لينال حقوق أخيه، كان مستعدا أن يستعمل أساليب المكر والختل والحيل ليحقق أهدافه، فيعقوب بهذا يعتبر نموذجا حقيقيا لأخلاق اليهود، وعلى هذا تعتبر تسميتهم باسمه ميراثا دقيقا، فقد ورثوا عنه أكثر مما ورثوا عن إبراهيم الذي كان رجل عقيدة وإيمان أكثر منه رجل ختل ودنيا (٣).

الحياة في بيت يعقوب:

وآل الأمر إلى يعقوب بعد كل هذه الحيل، وقارئ التوراة بحد

(١) نفس المرجع: ٣٩ - ٤٠.

(٢) تكوين: ٣٢ و ٣٣.

(٣) ١٥ Ged and Man in Early Israel pp - ١٧ (٣)

أحداثاً عجيبة يدهش الإنسان أن تجرى في بيت رسول، ومن هذه الأحداث أن زوجة يعقوب (راحيل) كانت وثنية، حتى بعد أن مضت عدة سنوات على زواجها منه، وقد بلغ من وثنتها وأخلاقها أنها سرقت أصنام أبيها وفرت بها هاربة من بيت أبيها مع زوجها إلى فلسطين (١)، ومن هذه الأحداث أن راموبين بن يعقوب البكر زنى ببلهة زوجة أبيه وأم أخويه دان ونفتالي، وشاع هذا الخبر حتى سمعه يعقوب (٢)، ومن هذه الأحداث واقعة زنا وغدر يقصها سفر التكوين كما يلي: وخرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض، فرأها شكيم بن حمور رئيس الأرض، فأخذها وزنى بها وتعلقت نفسه بها فكلم أباه أن يطلبها زوجة له، فخرج حمور إلى يعقوب ليطلب ابنته، ولما علم أبناء يعقوب بما جرى لأختهم غضبوا من شكيم لأنه صنع قباحة في إسرائيل وأسروا غضبهم، فلما طلبها حمور زوجة لابنه وأبدى استعداداه لدفع ما يطلبون مهراً، أجاب بنو يعقوب بمسكر قائلين: لا نستطيع أن نعطي أختنا لرجل أغلف، لأنه عار لنا، فإذا اختتتم أعطيناك بناتنا وأخذنا بناتكم ونصير شعباً واحداً، فقبل شكيم ذلك، وكان أكرم بيت أبيه ودعا قومه للاختتان فقبلوا، واختتن كل ذكر، وحدث في اليوم الثالث إذ كان الجميع متوجعين أن هجم أبناء يعقوب على محلة شكيم فقتلوه وقتلوا أباه وأهله ونهبوا المدينة، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت (٣).

ومن الأحداث التي وقعت في بيت يعقوب مسألة حقد إخوة يوسف عليه، والتآمر للتخلص منه بالقتل أولاً ثم بالعدل عن القتل إلى إلقائه في

(١) تكوين ٣١: ١٩.

(٢) تكوين ٣٥: ٢٣.

(٣) تكوين: الأصحاح الرابع والثلاثون.

البئر... وقد سبق أن أشرنا إلى هذه القصة وهي لا تختلف في التوراة عما سبق أن أوردناه (١).

موسى وهارون:

برسم المؤرخ العالمي Weech صورة لموسى ننقلها فيما يلي: ظهر موسى بين بني إسرائيل وهم يعيشون غرباء مضطهدين في المجتمع المصري، فقادهم موسى وخرج بهم من مصر، وكان لهم قائدا ومشرعا وإماما، ويرجع إليه ما عرف لبني إسرائيل من ألواح وكتب، وتجول بهم موسى في التيه حيث عاشوا من جديد حياة البدو الراحل (٢): ودعاهم موسى إلى التوحيد، وكانت عقيدة التوحيد قد ظهرت في العالم قبل ذلك على يد أخناتون في مصر، ويبدو أن موسى وقد أمضى طفولته وصباه وشبابه في مصر - عرف هذه العقيدة وتأثر بها ودعا لها (٣).

ويقرر Hosmer أن مكانة موسى جاءت من كفاءته التي استطاع بها أن يقود بني إسرائيل ويخرجهم من مصر، ثمن من مقدرته على إملاء التوراة التي كانت قانون هذه الجماعة بعد أن لم يكن لها قانون، كما كانت القاعدة التي قام عليها بناء الدولة من الناحية السياسية (٤).

ومن أبرز الأحداث التي تتصل بموسى وبربه وشعبه - على ما تذكره التوراة - مسألة سرقة بني إسرائيل حلي المصريين تنفيذًا لوصية الرب التي أوصى بها موسى وبلغها هذا إلى قومه فعملوا بها، وفيها يلي كلمات التوراة: وأعطى - أي أنا الله - نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حينما

(١) تكوين: الأصحاح السابع والثلاثون.

(٢) P. Civilization of the Near East .٥٣

(٣) .ibid p ٨٨

(٤) James Hosmer: the Jews p ١٤

تمضون أنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب. كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين (١)، وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين (٢).

ويعلق الأستاذ محمد عزة دروزة على هذا النص بقوله: ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب يدل على ما كان وظل يتحكم في نفوس بني إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد بدون ريب في رسوخ هذا الخلق العجيب في ذرايعهم ثم من دخل في دينهم من غير جنسهم (٣). أما هارون فإنه - بناء على ما ورد في التوراة - استجاب لقومه حينما استبسطوا موسى وطلبوا منه أن يقيم لهم إليها يعبدونه، وفيما يلي نص التوراة: ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى، الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبناتكم وأتونني، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم، وصوره بالإزميل، وصنعه عجلا مسبوكا، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بني مذبحا أمامه، ونادى هارون وقال: غدا عيد للرب

(١) خروج: ٣: ٢١ - ٢٢.

(٢) خروج ١٢: ٣٥ - ٣٦.

(٣) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ج ١ ص ٧٨ - ٧٩.

فبكروا في الغد، واصعدوا محرفات، وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب (١).

داود:

أول شيء يمكن أن نقتبسه من الكتاب المقدس عن داود أن نسبه ليس إسرائيليًا خالصًا، وسفر راعوث يحكي لنا قصة هذا النسب، واسم السفر مقتبس من اسم امرأة من مؤاب اسمها راعوث، وخلاصة هذا السفر أن إسرائيليًا من بيت لحم ومن سبط يهوذا نرح إلى مؤاب مع زوجته وولديه تحت ضغط الجوع، ثم مات الرجل، وبعد فترة تزوج الولدان من فتاتين من مؤاب إحداهما اسمها عرفة والثانية اسمها راعوث، ثم مات الولدان، وأرادت أمهما العودة إلى بيت لحم فحاولت أرملتا ابنيها العودة معها، ولكن المرأة نصحتهما بالذهاب إلى أهلها، فقبلت عرفة ورفضت راعوث، وأصرت على أن تصحب حماتها، وفي بيت لحم تزوجت راعوث من رجل من أقارب حماتها اسمه بوعز، فولدت له ولدا سمى عوبيد، وكبر هذا من رجل من أقارب حماتها اسمه بوعز، فولدت له ولدا سمى عوبيد، وكبر هذا وتزوج وولد له ولد سمى يسي وهو والد داود (٢). وأهمية هذا النسب خطيرة بالنسبة للفكر اليهودي، فإن القوانين اليهودية تعتبر السلالة من ناحية الأم هي السلالة التي يعتمد عليها في نقاء الدم اليهودي، ويعتبر (غير نظيف) عند اليهود من اختلط دمه، وغير يهودي من كانت أمه غير يهودية (٣).

(١) خروج ٣٢: ١ - ٦.

(٢) أنظر سفر راعوث.

(٣) نصرت جريدة النيويورك تايمز الأمريكية في عددها الصادر بتاريخ ١٩ يناير سنة ١٩٦٥ قصة امرأة تدعى ريتا كان أبوها يهوديًا، وشبت في ألمانيا يهوديًا، واضطهدها النازيون لأنها يهودية، واعتقلها الإنجليز في قبرص لأنها يهودية، وجاءت إلى إسرائيل - كيهودية، وعاشت في أحد المعسكرات اليهودية، وتزوجت يهوديًا وعاشت تمارس الشعائر اليهودية، ثم - فجأة - أعلنت وزارة داخلية إسرائيل أن ريتا غير يهودية، لأن الوزارة عرفت ما يدل على أن أمها ليست يهودية (أنظر إسرائيليات للأستاذ أحمد بهاء الدين ص ١٩٨).

ويعتبر عهد داود وسليمان عهد الاستقرار النسبي لبني إسرائيل، وقد كان كل منهما ملكا على مملكة العبريين، ومن أجل هذا كتب عنهما المؤرخون أكثر مما كتبوا عمن سبقوهم من قادة بني إسرائيل، وتبعاً لذلك ستكون اقتباساتنا عنهما ليست من الكتاب المقدس فحسب بل مما كتبه المؤرخون كذلك.

ويصف ول ديورانت داود بقوله: وقد استطاع الأدب في هذا العصر البعيد أن يرسم له صورة كاملة، صورة واقعية فيها كل ما في النفس الحية من عواطف وانفعالات متعارضة: فهو قاس غليظ القلب كما كان الناس في وقته وكما كانت قبيلته، وكما كانت الصفات التي خلعتها على إلهه، ولكنه مع هذا كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح، كان يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الآشوريين، ويأمر ابنه سليمان بالقتل ويشجعه عليه، ويأخذ امرأة أوريا لنفسه من غير حياء، ويرسل زوجها إلى الصف الأول في ميدان القتال ليتخلص منه (١).

وبمناسبة الحديث عن زوجة أوريا يجدر بنا أن نعود إلى الكتاب المقدس لنقتبس القصة كاملة، ففيها - بناء على رواية الكتاب المقدس - أحداث موعلة في القسوة وبعيدة عن العفة، وفيما يلي كلمات الكتاب المقدس: أرسل داود قائده يؤاب وجنوده ومن بينهم جندي اسمه أوريا، فحربوا بني عموم وحاصروا ربه، وأما داود فأقام في أورشليم، في المساء قام داود عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم للطهارة من طمثها وكانت جميلة المنظر جداً، فأرسل لها

داود وأخذها ودخل بها، وعندما جاء موعد الطمث لم تحض، فأدركت أنها حملت من داود إذ كان زوجها بعيدا في المعركة، فأرسلت إلى داود وقالت إني حبلي، فأرسل داود إلى يؤاب يقول أرسل إلى أوريا، فأرسله، فسأله داود عن سلامة يؤاب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود له: انزل إلى بيتك واغسل رجلك، ولكن أوريا لم يذهب إلى بيته ونام على باب الملك مع عبيد سيده، ولما عرف داود ذلك سأله عن السبب فأجاب أوريا: إن الثابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يؤاب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتى إلى بيتي لأكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك لا أفعل هذا الأمر. فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك، وفي الصباح كتب داود مكتوبا إلى يؤاب وأرسله مع أوريا، وفي هذا المكتوب يقول داود: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، ففعل يؤاب، ودفع أوريا وجماعة معه حتى دنوا من سور المدينة ثم تفهقر يؤاب عنهم فماتوا جميعا، وأرسل يؤاب بذلك إلى داود، وقال يؤاب للرسول: إن غضب الملك لأننا دنونا من المدينة وتعرض رجالنا لمقذوفات السكان من خلف الأسوار؟ فقل له: إن أوريا قد مات. فلما سمعت امرأة أوريا أن بعلها قد مات ندبته، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا [هو سليمان]. ويختتم الأصحاح بقوله: وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب (١). ويتحدث العهد القديم عن حادثة مدبرة وقعت في بيت داود، وهاك كلمات هذا الكتاب: كان لأبشالوم بن داود شقيقة جميلة اسمها ثامار، وقد أحبها وتتم بها أخ لها من أبيها اسمه أمنون، وحدث أن أمنون مرض

(١) صموئيل الثاني: الأصحاح الحادي عشر.

وطلب من أبيه أن تحضر أخته لتعد له طعاما وتطعمه، ولما حضرت أخته أخلى المكان وزنا بها على الرغم منها، وخرجت ثمار صارخة باكية، ولما عرف أبشالوم شقيقتها هذا الأمر دبر في نفسه مكيدة لينتقم من أمنون، فدعاه هو وإخوته إلى الطعام، وأوصى عبيده أن يثقلوا الطعام والشراب لأمنون حتى يسكر ثم يقتلوه... (١).

سليمان:

نال سليمان من عناية الباحثين والمؤرخين نصيبا كبيرا، فقد كانت دولة اليهود في أول عهده في أقصى قوتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عصر سليمان اتجه إلى الملاذ والترف أكثر من اتجاهه إلى خدمة الدين والمبادئ، وبين أيدينا مجموعة زاخرة من المعلومات عن هذا العصر نرويها من الكتاب المقدس ومما كتبه المؤرخون والباحثون:

لما آل الملك إلى سليمان، قتل جميع منافسيه ليسترخ من متاعبهم، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه إلهه الذي أحب الملك الشاب ووهبه حكمة لم يهبها أحدا من قبله ولا من بعده (٢)، ويذكر سفر الملوك الأول أنه قتل أخاه أدونيا، وقتل يئاب قائد جيشه وهو ممسك بقرون المذبح مستجيرا، وقتل شمعي أحد كبار الرجال في مملكة أبيه (٣).

ويصف غوستاف لوبون سليمان بقوله: وقد عاش سليمان حاكما شرقيا حقيقيا بكثرة آلهته، وبدائرة حريمه المشتملة على مئات النساء، وبثيابه

(١) صموئيل الثاني الأصحاح الثالث عشر.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة: ج ٢ ص ٢٣٢ وقرأ الملوك الأول الأصحاح الثالث: ١٢.

(٣) الملوك الأول: ٢: ٢٨.

الزاهية، وبقصوره، وحرسه الأجنبي، وهو الذي شاد الهيكل عن زهو لا عن زهده، وذلك تقليدا لأبهة ملوك مصر وآشور واستنساخا لطرزهما البنائية، وانهمك سليمان فيا لا عهد لأسباط بني إسرائيل به من ضروب الملاذ الآسيوية، فلم يفكر في غير التمتع بعمل داود تمتع ذي أثره، فأثقل كاهل الشعب بالضرائب، ليقوم بنفقات شهواته، معدا بذلك مقبل الفتن (١).

وقد تحدث ول ديورانت عن سليمان حديثا طويلا، وفيما يلي مقتبسات قصيرة مما قاله عنه: استخدم سليمان ثروة بلاده في ملاذه الشخصية، وأخص ما استخدمها فيه، إشباع شهواته في جمع السراري، وإن كان المؤرخون ينقصون زوجاته السبعمئة إلى ستين أو سراريه الثلاثمئة إلى ثمانين، وقسم بلاده إلى اثني عشر قسما إداريا، وتعهد أن تكون حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثني عشر، وكان يرجو من وراء ذلك أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم، وأن يؤلف منهم شعبا واحدا، ولكنه أفلس في هذا وأفلس بلاد اليهود معه، ورغبة في جمع الأموال فرض سليمان الأتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين، كما فرض جزية الرؤوس على جميع رعاياه، وطالب كل قسم من أقسام دولته بقدر من المال، وأعاد للدولة احتكارها القديم لبعض صنوف التجارة (٢).

وفي الحديث عن الحياة الاجتماعية في عاصمة بني إسرائيل وبخاصة في عهد سليمان يقول ول ديورانت: كان على الفتاة أن تثبت ليلة عرسها أنها عذراء وإلا رجمت حتى تموت، ولكن الزنا كان على رغم هذا منتشرًا بين اليهود، ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة، ولما كان

(١) اليهود في تاريخ الحضارات الأول ص ٢٩ وانظر.
Civilization of the Near East p: Weech .٨٦

(٢) قصة الحضارة: ج ٣: ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

القانون لم يحرم الاتصال بالعاشرات الأجنبية، فإن المؤابيات والمدينيات وغيرهن انتشرن في الطرق العامة، حيث كن يعشن في مواخير وخيام) ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة، ولما كان سليمان لا يتشدد كثيرا في هذه الأمور فإنه قد تساهل في تطبيق القانون الذي كان يحرم على هؤلاء النساء الكنى في أورشليم، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه ماخورة للزنا والفجور، كما وصفه مصلح غضوب (١).

وينسب الكتاب المقدس انحرافات دينية لسليمان، ومن هذا الكتاب نقتبس بعض عبارات عن ذلك:

جاء في الأصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول ما يلي: وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحِيثيات، من الأمم الذين قال عنهم الرب ليني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء المحبة وكان له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أمّلت قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه، حينئذ بني سليمان مرتفعا لكموش رجس المؤابيين على الجبل المواجه لأورشليم، وكذلك مرتفعا لمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نساءه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب (١).
ويعلق Wells على عبارة الكتاب المقدس بقوله إن إقامة سليمان هيكل أورشليم ورؤياه لربه ومحادثته له في مستهل حكمه، لم تحل دون ابتداعه في أواخر أيامه ضربا من العبث بالأمر الدينية فإنه أكثر من الزواج وأخذ يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية، فهو يقدم القربان لربه صيدا (عشتورت)، ولرب مؤاب (شموس (٢)) وغيرهما، والواقع أن وصف الكتاب المقدس سليمان يصوره لنا ملكا متقلبا كغيره من الملوك، لا يفضل البتة أيا منهم في موضوع تمسكه بالدين، كما يصور لنا قومه شعبا معتقدا بالخرافات، وذا عقلية مبيلة (٣).
ويتفق ول ديورانت مع ما اقتبسناه آنفا من الكتاب المقدس عن انحرافات سليمان فيقول: ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به، وأخذت عنايته بالدين تقل على مر الأيام، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل، ولشد ما يلومه كتاب أسفار التوراة على شهامته، إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية التي كانت تعبدها زوجات الأجنبية (٤).
بقي أن نشير هنا إلى ما سبق أن أوردناه، عن قسوة سليمان على بني إسرائيل، تلك القسوة التي جعلتهم يقولون لرحبعام ابنه وخلفه على العرش: إن أباك قسى نيرنا، وإن عليك أن تخفف من عبوديه أبيك

(١) الملوك الأول: ١١: ١ - ١٠.

(٢) يلاحظ أننا ذكرنا أكثر من إله لصيدا ولمؤاب وعمون وليس ذلك سهواً، فتعدد الآلهة كانت طبيعة العصر.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية: ج ٣ ص ٢٨٥.

(٤) قصة الحضارة: ج ٢ ص ٣٣٧.

الشاقة ونيره الثقيل الذي وضعه علينا. وذلك واضح الدلالة عن أن عهد سليمان كان شديد الوطأة على بني إسرائيل وأن مشاريعه قد حملتهم جهدا عظيما وتكاليف باهظة، وقد كان بنو إسرائيل جادين في طلبهم من رحبام فلما رفض رحبام طلبهم، ثاروا عليه وانقسمت المملكة وباع الثائرون يربعام ملكا عليهم كما سبق القول.

وبعد، فهذه صورة سريعة عن أنبياء بني إسرائيل من غير القرآن الكريم توضح اتجاه الكتاب والباحثين وبخاصة كتاب الكتاب المقدس عن هؤلاء الأنبياء.

عقيدة بني إسرائيل
من غير القرآن الكريم
من الناحية الواقعية التاريخية يتضح أن بني إسرائيل أهملوا المصدر
الحقيقي للعقيدة وهو السماء، وانساقوا خلف مصادر أخرى، فقد مرت
ببني إسرائيل أحداث خطيرة، عاشوا في مصر، ووقعوا بين شقى الرجى
في فلسطين، ونفوا إلى بابل، وفي فترة الصراع بينهم وبين الدول، ثم في
فترة التشرّد كتبوا العهد القديم، ووضعوا التلمود، وبروتوكولات حكماء
صهيون، كما سنرى فيما بعد، وأصبحت هذه هي المصادر الواقعية للعقائد
اليهودية، وسنبحث فيما يلي أبرز المعالم لهذه العقائد.
الإله

معبودات بني إسرائيل غير (بهوه):
لم يستطع بنو إسرائيل في أي فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا
على عبادة الله الواحد الذي دعا له الأنبياء، وكان اتجاههم إلى التجسيم
والتعدد والنفعية واضحا في جميع مراحل تاريخهم، وعلى الرغم من ارتباط
وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم، وتعد كثرة
أنبيائهم دليلا على تجدد الشرك فيهم، وبالتالي تجدد الحاجة إلى أنبياء
يجددون الدعوة إلى التوحيد، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على
أي حال، فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح والأحجار، وأحيانا
مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التي كانت لها حضارة وفكر قلدهما
اليهود. ويقول Shot Well. J (١) إن اليهود كانوا في مطلع ظهورهم على

The Religions Revelation of Today P .٣٠ (١)

مسرح التاريخ بدوا رحلا تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين، والاعتقاد في الأرواح، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار (١)، ويقول Reinach إن اليهود اتخذوا في بيوتهم أصناما صغيرة كانوا يعبدونها ويتنقلون بها من مكان إلى مكان (٢)، وقد ظل بنو إسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى وخرج بهم من مصر ويقول Foster Kent (٣) إن موسى حاول أن يكون أمة من الجماعات التي تبعته، وقد وجد ألا مناص من تحديد إله يرعى جموعهم وتعبده هذه الجموع، ويتم بينه وبين بني إسرائيل نوع من المنفعة المتبادلة ويرتبط مصيرهما كل بالآخر ارتباطا دقيقا. وتبعاً لذلك أعلن موسى (يهوه) إلهها لبني إسرائيل، ويرى المؤرخون الغربيون أن موسى استعار القول بالوحدانية من اختاتون، وفي ذلك يقول Weech (٤): إن أول من قال بالوحدانية الخالصة هو اختاتون، ومن المحتمل أن يكون موسى قد عرف وهو بمصر تفاصيل هذا الاتجاه الديني فتأثر به في دعوته ومال إليه. وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الرأي، ولكن بني إسرائيل كما يقول ول ديورانت (٥) لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من عبادة العجل الذهبي لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر، وظلوا زمنا طويلا يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزا لإلههم. وتقرر التوراة قصة العجل الذي عمله لهم هارون فعبدوه بعد أن تأخر موسى في العودة إليهم، وكيف خلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب، وقد أعدم موسى ثلاثة آلاف منهم

(١) See also: Weech: Civilization of the Near East p

p and p .٨٦ .٨٨

(٢) .١٧٦ .Beimach: History of Religion p

(٣) .٤٢ .A History of the Hebrew People p

(٤) .٨٨ .٨٤ Civilization of the Near East p. and p

(٥) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٨.

عقبا لهم على عبادة هذا الوثن (١). وقد بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين، فقد عمل يربعام بن سليمان عجلي ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل (٢)، وقد عبد أهاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد (٣) وسرى فيما بعد مزيدا من التفصيل عن معبودات بني إسرائيل.

وقد كانت الحية معجزة موسى كما هو معروف، ويروي العهد القديم أن موسى عمل حية من نحاس وأن بني إسرائيل عبدوها بعد ذلك (٤)، وكانت الأفعى تعد حيوانا مقدسا لأنها - عندهم - تمثل الحكمة والدعاء والانسباب، فضلا عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان (٥)، وكان من نتيجة معجزة الأفعى التي قدمها موسى ما يرويه ول ديورانت من أن اليهود نظروا إلى موسى وهارون على أنهما ساحران، ومن ثم انتشر السحر بينهم إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة (٦).

وبعد موسى، وفي عهد القضاة، تأثر بنو إسرائيل بمعبودات الكنعانيين تأثرا كبيرا، ويوضح Kent أن إله الكنعانيين (بعل) أصبح معبودا لبني إسرائيل في كثير من قراهم، وفي أحوال كثيرة أصبح للطائفتين معبد واحد به تمثال يهوه وتمثال بعل، بل أصبح يهوه ينادى بعل، وقد ظل ذلك إلى عهد يوشع (٧)

(١) خروج ٢٢: ١٨ - ٢٦.

(٢) الملوك الأول ١٢: ٢٦ - ٢٨.

(٣) ول ديورانت ج ٢ ص ٢٣٨ بالهامش (٤) الملوك الثاني ١٨: ٤.

(٥) Allen. G :١٩٢ Evolution of the Idea of God P

(٦) قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٢٩، وقد أصبح لليهود أقطاب السحر فيما بعد ومنظمي

الجمعيات التي تعتمد على الطلاسم والرموز والأرقام، وأصبحت الفلسفة والتعاليم الروحية

والشعوذة والسحر تكون مزيجا يسمى (الكابالا)، وكانت الكابالا سوط عذاب أطلقه

اليهود ضد المسيحية خلال القرون الوسطى.

(٧) Charles Foster Kent :٩٤ A History of the Hebrew People p

يهوه ومراحل عبادته
يجدر بنا أن نقف وقفة عند (يهوه) الذي شغل دائما فراغا واسعا عند
الكلام عن آلهة بني إسرائيل، وسنتناول الكلام عن يهوه من عدة نواح:
١ - اشتقاق الاسم (بهوه)
يقول الأستاذ العقاد (١) إن اسم (يهوه) لا يعرف اشتقاقه على التحقيق،
فيصح أنه من مادة الحياة، ويصح أن نداء لضمير الغائب أي (يا هو)
لأن موسى علم بني إسرائيل أن يتقوا ذكره توقيرا له، وأن يكتفوا بالإشارة
إليه، وهذا الاتجاه هو ما ذهب إليه Smith، ويضيف هذا احتمالا لاتجاه
آخر، هو أن الكلمة العبرانية المماثلة لكلمة (لورد Lord) هي يهوا وكانت
اللغة العبرية تكتب بدون حروف علة حتى سنة ٥٠٠ م ثم دخلت هذه
الحروف، فأصبحت كلمة يهوا: يا هوفاه Jehovah. وبذلك كلمة (يهوا)
أو (ياهوفا) معناها سيد وإله (٢).
ب - صفات يهوه:
للإله أسماء تختلف - بطبيعة الحال - باختلاف اللغات، ففي اللغة العربية
يسمى الواحد الأحد (الله) وفي اللغة الإنجليزية يسمى (God) وفي اللغة
الإندونيسية يسمى (Tuhan) وهكذا فعل (يهوه) هو اسم الإله عند اليهود
أو في اللغة العبرانية؟

(١) الله ص ١١٣.
(٢) God and Man in Early Israel P ٣٩

إن الإجابة عن هذا السؤال تجيء بالنفي القاطع، لأن الصفات التي ذكرها اليهود ليهوه تبعده كل البعد عما يتصف به الإله عند أي جماعة من جماعات المتدينين، وتجعله هذه الصفات لأمر شدا هاديا، وإنما تجعله يمثل انعكاسا لصفاتهم واتجاهاتهم، ويقول ول ديورانت: (يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهًا، ويؤيد ذلك أن من بين الآثار التي وجدت في كنعان سنة ١٩٣١ قطعا من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق م) عليها اسم إله كنعاني يسمى (ياه أو يا هو) (١) ، فيهوه ليس خالقا لهم، وإنما هو مخلوق لهم، وهو لا يأمرهم، بل يسير على هواهم وكثيرا ما يأتهم بأمرهم، وفي يهوه صفاتهم الحربية إن هم حاربوا، وصفات التدمير لأنهم مدمرون، وهو يأمرهم بالسرقة إذا أرادوا أن يسرقوا، ويعلم منهم ما يريدونه أن يعلم، ولنعد إلى المراجع التي بين أيدينا لنقتبس منها مجموعة من هذه الصفات:

وأولى هذه الصفات هو اضطراب الفكرة التي ترسمها الأسفار عن الإله، فالوصية الثانية من الوصايا العشر تسمو بالإله عن الإحاطة والحصص، إذ تنص على الآتي: (لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت... (٢)) ولكن على الرغم من ذلك ترسم أسفار التوراة الخمسة صورة بشرية محضة للإله (٣)، وستتضح هذه الصورة من فيض الأوصاف التي وصف اليهود بها يهوه، والتي سنروي بعضها هنا.

(١) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٠ وانظر الهامش المنقول عن.

New York Times / ٥ / ١٩٣١ .٣

(٢) خروج: ٢٠: ٤.

(٣) ول ديورانت ج ٢ ص ٢٧٢.

فمن الأوصاف الحسية ليهوه أنه كان يسير أمام جماعة بني إسرائيل في عمود سحب... فقد جاء في سفر الخروج: وارتحلوا من سكوت، ونزلوا في إيثام في طرف البرية، وكان الرب يسير أمامهم نهارة في عمود سحب ليهدبهم في الطريق، وليلا في عمود نار ليضيء لهم (١) ويعلل J. Smith لهذا بأن شبه جزيرة سيناء منطقة بركانية يكثر فيها الدخان المنبعث من البراكين، ومن المحتمل أن يكون عمود السحاب الذي تبعه بنو إسرائيل وظنوا إلههم يسير فيه، ليس في الحقيقة إلا دخانا متجمعا من البراكين دفعته الرياح إلى الإمام (٢).

ومن الأوصاف البشرية المحضة ليهوه ما جاء في التوراة:
- ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشرف بني إسرائيل (٣).
-... فيصنعون لي مقدسا لأسكن في وسطهم (٤).
ويهوه لا يدعى أنه عالم، ويطلب من بني إسرائيل أن يرشدوه، فقد قرر حينما كان بنو إسرائيل لا يزالون في مصر، (أن يحتاز في أرض مصر هذه الليلة ويضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم) (٥) ولكن يهوه لا يريد أن تنزل ضربانه ببني إسرائيل، ولذلك فإنه يطلب منهم أن يميزوا بيوتهم بدماء الكباش المضحاة، بأن يجعلوا الدم على القائمتين والعتبة العليا في البيوت (٦).

(١) خروج ١٣: ٢٠ - ٢١.

(٢) God and men in Early Israel p ٣٥ : Smith.

(٣) خروج ٢٤: ٩ - ١١.

(٤) خروج ٢٥: ٨.

(٥) خروج ١٢: ١٢. (٦) خروج ١٢: ٧.

ويهوه ليس معصوما، وكثيرا ما يقع في الخطأ، ثم يندم على ما فعل، وفي نص التوراة (فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه (١)) وفي نص آخر (وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمت على أني قد جعلت شاوول ملكاً لأنه رجع من ورائي ولم يقيم كلامي (٢)).

والإله يهوه يأمر بالسرقة، وقد سبق أن أوردنا نص التوراة الذي أمر فيه يهوه بني إسرائيل أن (تطلب كل امرأة منهم من جارتها أو من نزيلة بينها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين (٣)).

ويهوه إله قاس مدمر متعصب لشعبه لأنه ليس إله كل الشعوب بل إله بني إسرائيل فقط، وهو بهذا عدو للآلهة الآخرين (٤) كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى، وتصوره المراجع اليهودية كبير الشبه برئيس عصاة فهو يقول: متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتملكها، وطرده شعوبا كثيرة من أمامك: الحيتيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق بهم (٥).

ويقول كذلك: حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالملك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء

(١) خروج ٣٢: ١٤. (٢) صموئيل الأول ١٥: ١٠.

(٣) خروج ٣: ٢٢. (٤) خروج ١٢: ١٢.

(٥) يشية ٧: ١ - ٢.

والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا، فلا تستبق منها نسمة ما (١).

ومن صور القسوة والوحشية التي ينسبها العهد القديم ليهوه ذلك الحوار الذي ورد في الأصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الأول، فقد كان الرب طلب من شاوول ملك إسرائيل تدمير العماليق، بل وتدمير مواشيهم، وهدم بيوتهم، والقضاء على كل ذراريهم، ومشى شاوول بجيش كبير حتى حاصرهم في سيناء وانتصر عليهم وقبض على ملكهم واسمه أجاج وأهلك هذا الشعب كله ودمر ممتلكاته ولم يستبق منها إلا جيد الغنم والبقر ليقدم ذبيحة للرب، ولكن يهوه يغضب من ذلك ويقول: استماع كلام أفضل من الذبيحة، والطاعة أفضل من شحم الكباش. ويندم شاوول على هذا ويقتل أجاج، ويهلك ما كان قد احتفظ به من الأنعام (٢).

وليست قسوة يهوه على أعداء بني إسرائيل وحدهم، بل إنه يقسو أيضا على شعبه ويلعنهم ويتوعدهم إن هم خالفوا شيئا من أوامره ولم يتبعوا كل وصاياه، وننقل لذلك نصا من نصوص التوراة في هذا الشأن، إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص على أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم تأتي عليك جميع اللعنات وتدر كك، ملعونا تكون في المدينة وملعونا تكون في الحقل، ملعونة تكون سلتك ومعجنتك، وملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك، نتاج بقرك وإناث غنمك، ملعونا تكون في دخولك وملعونا تكون في خروجك، يرسل عليك الرب اللعن والاضطراب

(١) تثنية ٢٠: ١٠ - ١٦.

(٢) اقرأ الأصحاح ١٥ من سفر صموئيل الأول.

والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعا من أجل سوء أعمالك إذ تركتني، يلصق بك الرب الوباء حتى يببذك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تملكها، يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك... يضربك الرب بالقرحة والبواسير والجرب والحكة والجنون والعمى وحيرة القلب... ويكون ذلك فيك وفي نسلك إلى الأبد (١).

وفي بعض الأحيان نفذ الرب وعيده، وقص العهد القديم قصة من ذلك كما يلي... من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه، ومد يده عليه، وضربه حتى ارتعدت الجبال، وصارت جثثهم كالزبل في الأزقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد (٢)، وكان بنو إسرائيل يرون ما ينالونه من نصر على أعدائهم منحة يهوه إليهم، كما يروى أن ما يقع عليهم من هزائم ليس إلا انتقاما من يهوه ينزله بهم لمخالفتهم أوامره (٣).

ويقتبس ول ديورانت بعض هذه اللعنات ويعلق عليها بقوله: إن هذه اللعنات لجديرة بأن تكون نماذج في القدح والسب، ولعلها هي التي أوحت إلى الذين حرقوا الكفرة في محاكم التفتيش الإسبانية، أو حكموا على اسبينوزا بالحرمان أن يفعلوا ما فعلوا (٤).

وشتان أن نقارن ما يتوعد به هذا الرب شعبه إن أهملوا بعض ما أوصى به، بالحساب الذي قرره إلها الغفور الرحيم، ذلك الحساب الذي تحمل الآيات الآتية اتجاهاته:

(١) تثنية ٢٨: ١٦ وما بعدها. (٢) سفر أشعيا ٥: ٢٥

(٣) Guignebert: The Jewish World in the Time of

Jesus p. ١٢٣.

وانظر أيضا Foster Kemt: A History of the Hebrew People p. ٣٤.

(٤) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٢.

إن الحسنات يذهبن السيئات (١).
فأمن من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه
فأمه هاوية (٢).

- إن الله يغفر الذنوب جميعا (٣).
وننتقل إلى صفة أخرى من صفات يهوه هي أن التوراة تصور موسى
ذا سلطان عليه، ينصحه فينتصح، ويتخذ موسى وهو ينصحه موقف
المرشد المعلم، فمن ذلك أن يهوه غضب على بني إسرائيل، وقال لموسى:
اتركني ليحمي غضبي عليهم وأنفيهم... فراجعه موسى وقال له:
ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك، ماذا يقول عنك
الناس إذا سمعوا بفعلتك؟... فندم الرب على الشر الذي قال إنه
يفعله بشعبه (٤).

وقد قلنا فيما سبق إن اليهود استعاروا كثيرا من المعبودات التي كانت
معروفة عند جيرانهم، ويوضح لنا غوستاف لوبون أن اليهود لم يستعبروا
من جيرانهم في الاتجاهات الدينية والاجتماعية إلا أحط ما كان عندهم، يقول
غوستاف لوبون: عندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم،
من باديتهم ليستقروا بفلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمة قوية متمدنة من زمن
طويل، فكان أمرهم كأمر جميع العروق الدنيا التي تكون في أحوال
مماثلة، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أحسن ما في حضارتها،
أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارية، ودعاتها وخرافاتهما، فقربوا
لجميع آلهة آسيا، قربوا لعشرون، ولبعل، ولمولك من القرابين ما هو

(١) سورة هود الآية ١٤. (٢) سورة النساء الآية ١١٦.

(٣) سورة الزمر الآية ٣.

(٤) خروج ٣٢: ١٠ - ١٤ وعدد ١٣ - ١٨.

أكثر جدا مما قربوه لإله قبيلتهم (يهوه) العبوس الحقود الذي لم يثقوا به إلا قليلا من الزمن على الرغم من كل إنذار جاء به أنبيأؤهم (١). ذلك موجز من صفات يهوه اقتبسناه من أدق المراجع، لنعطي صورة واضحة عن إله بني إسرائيل.

ح - مراحل عبادة يهوه

عبادة يهوه مرت بثلاث مراحل رئيسية هي:

١ - عبادته قبل بناء الهيكل.

٢ - عبادته في الهيكل.

٣ - عبادته بعد تدمير الهيكل.

وستكلم عن كل من هذه المراحل على حدة:

١ - يهوه قبل الهيكل:

تبدأ المرحلة الأولى من عبادة (يهوه) عندما دعاهم موسى إليه، وكان يهوه عند موسى هو الإله الواحد، رمز له باسم (يهوه) على ما سبق أن شرحنا عند الكلام على اشتقاق الكلمة، ولكن بني إسرائيل لم يستجيبوا لموسى استجابة حقيقية، وسرعان ما عبدوا العجل في حياة موسى وبعده. وعبدوا كذلك الحية المقدسة على ما ذكرنا من قبل.

وفي عهد القضاة (عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، وعبدوا البلعيم والعشتارت وآلهة آرام وآلهة صيدوم وآلهة مؤاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه) (٣).

(١) اليهود في الحضارات الأولى ص ٢٠.

(٢) قضاة ١٠: ٦.

وفي مطلع عهد الملوك يقص الكتاب المقدس أن زوجة داود واسمها ميكال كانت تعبد تماثيل على صورة البشر يرمز بها إلى الله، وقد أخذت الترافيم (اسم أحد التماثيل) ووضعت في الفراش لتوهم أعداء داود أن داود نائم في الفراش، بينما عملت على تهريب داود من رسل شاول الذين كانوا يبحثون عنه ليقتلوه (١).

٢ - يهوه مع الهيكل:

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة ارتباط يهوه بالهيكل، فإن داود جاء واتخذ أورشليم عاصمة له، ثم جاء سليمان وبني الهيكل بها، وتركزت عقيدة بني إسرائيل حول الهيكل، واعتبر الهيكل مقر إلههم الذي طالما دعاهم له الأنبياء والذي سموه (يهوه أو ياهوفا)، وكان تجديد الهيكل وتجسيمه وزخرفته من دواعي استجابتهم لهذا المعبود الذي طالما نفروا منه، وأصبح الهيكل في الواقع رمزا لكل ما كان يدور بخلداهم من معبودات، فهو ليس بعيدا عن الأحجار والأصنام، وهو مسكن الأرواح، وبه المذبح حيث رأس العجل الذي ذكرنا من قبل أن قائد سليمان قتل وهو ممسك بقرونه مستجيرا به (٢). وهكذا عندما نشأت الوحدة السياسية في أيام داود وسليمان، تركزت العبادة في الهيكل في أورشليم فأخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة، وأمسى يهوه إله اليهود الأوحده الذي يعلو على آلهة غيرهم من البشر (٣)، ويعتقد الباحثون في تاريخ الأديان أن هذا الهدف الذي قال به اليهود لم يكن لغرض ديني وإنما كان لغرض دنيوي فكان القصد منه توحيد فكر اليهود لتثبيت دولتهم والمحافظة عليها (٤).

(١) صموئيل الأول: ١٩: ١٠ - ١٦.

(٢) الملوك الأول ٢: ٢٨.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٣.

(٤) أديان العالم الكبرى لخصه عن الإنجليزية حبيب سعيد ص ٨٩.

وهكذا ارتبط اليهود بيهوه، ولكن ما مدى هذا الارتباط؟
إن الإجابة عن هذا السؤال تستدعي شرحا طويلا نوعا ما، لنقطتين
هامتين هما:

أ - خص اليهود أنفسهم بيهوه ولم يسمحوا لغيرهم بعبادته أو الدخول
في ديانتهم.

ب - اعترف اليهود لغير اليهود بآلهة يعبدونها، بل لم يقنع اليهود في
أكثر أحوالهم بيهوه وراحوا يعبدون آلهة هؤلاء.

وفيما يلي مزيد من الشرح لهاتين النقطتين:

أ - فعن النقطة الأولى نقرر أن الوصية الأولى من الوصايا العشر تساعد
على هذا الفهم، فيهوه فيها يقول. (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض
مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي) (١) ففي هذه الوصية
لم يقل يهوه إنه هو الإله الوحيد في العالم، بل اكتفى بأن يقول إن بني
إسرائيل يجب ألا يكون لهم آلهة سواه (٢)، فشعب إسرائيل لم يعرف الإله
الواحد، إله الخلق أجمعين، لم يعرف هذا الإله ولم يعبدوه ولم يثبت على ميثاقه،
وإنما كان يعبد إلهها يسميه إله إسرائيل، ويحسب أن هذا الإله يميزه ويختاره
على عامة الخلق لغير طاعة ولا إيمان، ولا فضيلة ولا إحسان، ولكنها
وثيقة كتبها شعب إسرائيل على إلهه منذ القدم، وهذا الإله مسؤول عنها كما
يسأل المدين عن القرض ورباه، لقد كان إلههم إله عشيرة واحدة يسميها
عشيرته وشعبه وتسميه هي ربها وإلهها دون العالمين (٣).

وتبعاً لذلك كان ممنوعاً على غير اليهود أن يقبلوا في الجماعة اليهودية

(١) خروج ٢٠: ١ - ٢.

(٢) سليمان مظهر: قصة العقاد ص ٣٣.

(٣) عباس العقاد، ما يقال عن الإسلام ص ٣٠٧.

Kent: See Olese :٢٠٤ A History of the Hebrew People p

وأن يدينوا بالولاء لرب بني إسرائيل، فقد نصت التوراة على ما يلي: (لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر، لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد) (١). ويعلق الأستاذ محمد عزه دروزة على هذا النص بقوله: إن الديانة اليهودية ليست دينا تبشيريا ولا إنسانيا عاما، وإن بني إسرائيل كانوا يعتبرون الديانة ديانتهم والإله خاصا بهم، وإن دخول غير اليهود فيها لم يكن تبشيرا بها، وإنما كان من باب السماح لمن يريد - بنفسه وبدون دعوة - أن يدخل في جماعة الرب بشرط مرور عدة أجيال، وفي بعض الحالات نرى الكتاب المقدس يسد باب الله ودينه أمام بعض الناس إلى الأبد (٢).

ديانة عنصرية:

واستكمالا لهذه النقطة يجدر بنا أن نبين إلى أي مدى كانت اليهودية ديانة عنصرية، فقد ورد في كتاب (المطالعات في الأديان العالمية) أن ديانة اليهود ذات ارتباط بشعب معين، كما يؤخذ من تسميتها اليهودية أو العبرية، وهي لهذا تشبه الهندوكية (ديانة الهنود) في أنها ديانة مقفلة أي ليست من ديانات الدعوة، وليست إلا تعبيراً طبيعياً لشعب خاص وجزءاً من ثقافة اجتماعية لا تتقبل الغرباء (٣)، والذي يقرأ الأسفار كلها لا يجد فيها ما يدل على أن موسى أو بني إسرائيل كانوا مأمورين بدعوة غيرهم إلى ديانتهم، وكل ما في الأسفار منصب على كون الديانة اليهودية ديانتهم الخاصة، وكون الرب ربهم الخاص (٤)، ويميل كثير من المفكرين اليهود إلى مزيد من تضيق الدائرة، فلا يعدون

(١) تثنية ٢٣: ٣ ويلاحظ النص أنه مرة يقول حتى الجيل العاشر ومرة يقول إلى الأبد.

(٢) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٣) نقلاً عن (ما يقال عن الإسلام) ص ٥١.

(٤) محمد عزه دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ج ١ ص ٧٢ وتاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ج ٦ ص ٣٤٦.

يهوديا إلا أولئك الذين يعيشون في فلسطين أو يعتبرونها وطنهم وإن بعدوا عنها للضرورة (١)، فاليهودية بهذا تتساوى مع الصهيونية التي سبق أن شرحناها في الباب الأول.

وقفل اليهود ديانتهم عليهم، وأنفتهم من إشراك غيرهم في الانتساب إليها نوع من الأنانية والاحساس بالتعالي والامتياز، يرفع قدرهم عن باقي البشر ويجعل من سواهم همجا أو شبه أنعام (جوييم)، أما أولئك الذين تسربوا إلى اليهودية من غير بني إسرائيل فسرعان ما عدتهم التفكير الإسرائيلي شعبا من بني إسرائيل وأطلق عليهم لقب (اليهود)، فكأنهم ينحدرون من يهوذا، وبهذا اختلطت عندهم الديانة بالنسب.

وقد عاب العالم على ألمانيا النازية جانبها العنصري واعتبارها الشعب الألماني أفضل شعوب البشر، والصهيونية لا تختلف من قريب أو من بعيد عن النازية في هذين الاتجاهين إن لم تزد عنها، ويقول (أرنولد توينبي) إن أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود، فالحركات الصهيونية والنازية سواء في ادعاء هذه الصفة العنصرية، وإن الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبها أسوأ ما في الحضارة الغربية من استعمار وقومية عمياء.

ب - وعن النقطة الثانية يقول Berry: لم يكن لدى العبرانيين تصور للعالم، ولهذا لم يصلوا إلى تصور إله غير محدود، ولقد كان عالمهم محدودا وكان إلههم محدودا كذلك. (٢)
وكان الإسرائيليون يؤمنون بأن للشعوب آلهة أخرى، ويوضح

(١) سليمان مظهر: قصة العقائد ص ٣٢١.

(٢) Religions of the World p ٣١

الكتاب المقدس أن بني إسرائيل عبدوا أنواعا من هذه الآلهة، وقد ندد بها أرميا في سفره، ومنه نقتبس بعض النصوص:

- اسمعوا كلمة الرب يا بيت يعقوب وكل عشائر بيت إسرائيل، هكذا قال الرب: ماذا وجد في آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عني، وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا (١)؟

- وحين تقولون لماذا صنع الرب إلهنا كل هذه؟ أقول لكم: كما أنكم تركتموني وعبدتم آلهة غريبة في أرضكم (٢).

- يقول الرب أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذبا وتبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى (٣)...؟

- يقول الرب: إن آباءكم قد تركوني وذهبوا وراء آلهة أخرى، وعبدوها وسجدوا لها، وإياي تركوا وشريعتي لم يحفظوها، وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من آباءكم، وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى لا تسمعوا لي (٤).

وعلى هذا فمع وجود الهيكل في عهد سليمان كانت عبادة آلهة الأجنبيات منتشرة، وينسب العهد القديم لسليمان نفسه أنه أقام مذابح للآلهة الخارجية التي كانت تعبدها زوجاته الأجنبية (٥)، فبنى مذبحا لعشروت رجاسة الصيدونيين، ولكموش رجاسة المؤابيين، ولملكوم إلهة بني عمون (٦)، وعقب موت سليمان انقسم ملكه بين ابنيه يربعام ورحبعام وهذا التغيير في تاريخ

(١) أرميا: ٢: ٤ - ٥.

(٢) أرميا ٥: ١٩ - ٢٠.

(٣) أرميا ٧: ٩ - ١٠. (٤) أرميا ١٦: ١١ - ١٣.

(٥) ول ديورانت قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٧.

(٦) الملوك الثاني ٣٣: ١٢.

العبرانيين صحبه تغير في عقيدتهم، فإسرائيل في الشمال كانت دولة غنية حظى سكانها بالاستقرار، وقبلوا عادات الكنعانيين وعبدوا إلهتهم (بعل)، أما دولة يهوذا في الجنوب فكانت دولة فقيرة يشتغل سكانها بالزراعة والرعي وظلوا على تبعيتهم لإلههم يهوه، إله الفقراء، وإلى هذه الفترة ينسب الأنبياء (١)، وقد صنع يربعام عجولين من ذهب ووضع أحدهما في بيت إيل وثنائهما في دان وبني عندهما مذابح وقال لشعبه: هذه آلهتكم التي أصعدتكم من مصر، فاذبحوا وعيدوا عندها ولا تصعدوا إلى أورشليم. فاستجاب له الشعب (٢). وقبيل عهد الملك يوشيا كان الهيكل مملوءاً بالمعبودات والأصنام التي تمثل بعل ومولك والشمس والقمر وكل أجناد السماء وكان الشعب يسجد لها، وقد قام هذا الملك بكثير من الإصلاحات فدمر هذه المذابح وأخرج هذه الآلهة من الهيكل، وكان يقصد بذلك أن يعيد الشعب إلى عبادة يهوه ولكن قليلا من استجاب له (٣).

وعن الملك أخزيا بن الملك أخاب يقول الكتاب المقدس: وعمل أخزيا الشر في عيني الرب وسار في طريق أبيه وطريق أمه وطريق يربعام، وعبد البعل وسجد له وأغاظ الرب إله إسرائيل، حسب كل ما فعل أبوه (٤).
ونما سلطان الكهنة وانتشرت التربية الدينية، ولكن ذلك يكف

(١) ٣٣ - ٣٢ Religions of the World pp :Berry.

(٢) الملوك الأول ١٢ : ٢٨ - ٢٩.

(٣) اقرأ الأصحاح الثالث والعشرين من سفر الملوك الثاني.

(٤) الملوك الأول ٢٢ : ٥١ - ٥٣.

لتحرير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان، بل ظلت قتل التلال والحراج مأوى الآلهة الأجنبية، ومشهدا للطقوس الخفية، وظلت جماعات كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة، أو تعبد بعل وعشروت، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور، أو ترقع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبي، أو تملأ الهيكل بضحيح الحفلات الوثنية (١).

٣ - يهوه بعد الهيكل:

هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل عبادة يهوه، وقد صاحبت هذه المرحلة الأسر البابلي، فقد فكر اليهود: أين يهوه الآن بعد أن تحطمت المدينة المقدسة وأحرق الهيكل؟

لقد بدا لهم أن يهوه كان معهم في الأسر، ولكن ألا يزال يهوه مع الذين تخلفوا منهم في فلسطين؟ وألم يسر يهوه مع من ساروا منهم إلى بلاد أخرى في الشمال والجنوب والشرق والغرب؟ وكانت إجابتهم على ذلك بعيدة المدى في الفكر اليهودي، فقد أصبحوا يعتقدون أن يهوه مع كل منهم أنى كان، ومعنى هذا أن يهوه في كل مكان (٢)، وتعد تلك خطوة هامة في تاريخ العقيدة الإسرائيلية، فإنها رفعت الإله عن أن يكون محدودا في مكان لا يتعداه، وتخطت به قيود التجسيم إلى حد ما.

(١) ول ديورانت قصة الحضارة: ج ٢ ص ٣٤٦.

(٢) سليمان مظهر، تاريخ العقائد ص ٣١٧.

نداء الوحدانية عند أشعيا:

تلك هي مراحل الارتباط بين بني إسرائيل وبين إلههم يهوه، وفي خلال الأسر البابلي هب أشعيا بدعوة جديدة كانت تطورا للمرحلة السابقة، ونجد في هذه الدعوة ملامح الوحدانية الحقة، إذ أخذ يتحدث عن إله لا عهد للأسفار به، إنه الإله الواحد، إله العالمين، خالق الكون ورازقه، المحب العطوف، الذي لا يهوى التدمير ولا يحب الأذى، وتبعاً لذلك هاجم أشعيا الأصنام، وسفه عبادتها، تعال بنا نورد فيما يلي فقرات من هذا السفر لتفصل لنا هذا الاتجاه الجديد:

- أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض، أنت صنعت السماوات والأرض، إن ملوك أشور قد خربوا كل الأمم وأرضهم، ودفعوا آلهتهم إلى النار، لأنهم ليسوا آلهة، بل صنعة أيدي الناس خشب وحجر، والآن خلصنا يا رب لنعلم ممالك الأرض أنك أنت الرب وحدك (١).

- هو الله الجالس على كرة الأرض، الذي ينشر السماوات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن، الذي يجعل العظماء لا شيئا، ويصير قضاة الأرض كالباطل، فيمن تشبهون الله فيساويه (٣)؟

- هكذا يقول الرب خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ونتائجها، معطى الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحا... أنا الرب هذا اسمي ومجدي، لا أعطيه لآخر (٣).

(١) أشعيا ٣٧: ١٦ - ٢٠. (٢) أشعيا ٤٠: ٢٢ - ٢٥.

(٣) أشعيا ٤٢: ٥ - ٨.

- أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري، كل شيء أنا أعلم به.. أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السماوات وحدي، باسط الأرض، من معي؟ مبطل آيات المخادعين، ومحمق العرافين، مرجع الحكماء إلى الوراء ومجهل معرفتهم، مقيم كلمة عبده، ومتمم رأى رسله (١).

- أنا الرب وليس آخر، لا إله سواي، أنا الرب وليس آخر، مصدر النور وخالق الظلمة، صانع السلام... أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها (٢).

- أنا الأول الآخر ويدي أسست الأرض ويميني نشرت السماوات، أنا أدعوهم فيقفن معا (٣).

وقد سبق أن تحدثنا عن أشعيا ودعوته للمسالمة، وامتداحه لقورش، وحثه بني قومه على الطاعة له (٤)، وقد اتهم من أجل هذا بأنه خائن لوطنه، وهناك بعض المفكرين يربطون بين اتجاه أشعيا السياسي واتجاهه الديني، ومن هؤلاء ول ديورانت الذي يقول (٥): وهل الذي أوحى إلى هذا النبي فكرة وجود إله واحد للكون كله هو نهضة الفرس، وانتشار قوتهم، وإخضاعهم دول الشرق الأدنى كلها، وجمعها في وحدة إمبراطورية أوسع رقعة وأحسن حكما من أي نظام اجتماعي عرفه الناس من قبل؟ وإذا كان بنو إسرائيل سيكونون قطعة من هذا الملك الواسع فإنه لا يمكن أن يكون لهم إله وحدهم وللحاكمين الفرس إله سواه، فإذا كانت هناك إمبراطورية واحدة فليكن هناك إله واحد. ولكن دعوة أشعيا للتوحيد على كل حال لم تجد إلا قليلا جدا من الأذان الصاغية.

(١) أشعيا: من الأصحاح: ٤٤.

(٢) أشعيا الأصحاح ٤٥.

(٣) أشعيا: الأصحاح ٤٨. (٤) أشعيا ٤٤: ٢٨.

(٥) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٦٤.

اليهود والألوهية عموماً:

على أن مسألة الألوهية كلها، سواء اتجهت للوحدانية أو للتعدد، لم تكن عميقة الجذور في نفوس بني إسرائيل، فقد كانت المادية والتطلع إلى أسلوب نفعي في الحياة من أكثر ما يشغلهم، وإذا تخطينا عدة قرون فإننا نجد الفكر اليهودي الحديث يجعل لليهود ربا جديداً نفعياً كذلك، ذلك هو تربة فلسطين، وزهر برتقالها، والذي يقرأ رواية (طوبى للخائفين) للكاتبة اليهودية يائيل ديان ابنة القائد الصهيوني العسكري موشي ديان، يجد أحد أبطالها (إيفرى) ينصح ابنه الطفل بأن يتخلى عن الذهاب للكنيسة، وأن يحول اهتمامه لإلهه الجديد: تراب فلسطين، ونقتبس فيما يلي سطورا من هذه الرواية:

... الصبي يحب أن يذهب إلى الكنيسة مع أمه، ولكنه عندما عاد مرة من المعبد الذي لا يذهب إليه إلا القليلون، ثار أبوه في وجهه بحديث له مغزى عميق، قال له: أيام زمان حين كنا يهودا في روسيا وغيرها، كان من الضروري بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات، ونحافظ على ديننا، فقد كان الدين اليهودي لنا وسيلتنا للتعاون ونتعاطف ونزود عنا الردى، أما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم، هو الأرض، أنت الآن إسرائيلي وليست مجرد يهودي، إنني قد تركت في روسيا كل شيء، ملابس ومتاعبي وأقاربي وإلهي، وعثرت هنا على رب جديد، هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال، ألا تحس بذلك؟ وأخذ إيفرى حفنة من تراب الأرض وسكبها في كف ابنه، وقال له: امسك هذا التراب، اقبض عليه تحسسه، تذوقه، هذا هو ربك الوحيد، إذا أردت أن تصلي للسما فلا تصل لها لكي تسكب الفضيلة في أرواحنا، ولكن

قل لها أن تنزل المطر على أرضنا، هذا هو المهم، إياك أن تذهب مرة أخرى إلى المعبد (١).

وبعد، فهذه هي قصة الإله عند اليهود، وهي واضحة الدلالة على أن اليهود لم يعرفوا الإله الحق في أكثر تاريخه م، وهم الآن يتخذون تراب فلسطين إلها لهم، إن تراب فلسطين رمز المادة التي تحكمت في الفكر اليهودي على مر التاريخ.

(١) يائيل ديان: طوبى للخائفين.

الآخرة والبعث

تهتم اليهودية بالأعمال ولا تعنى بالإيمان، وهي في جوهرها أسلوب حياة لا عقيدة تعتقد، وهي في هذا تختلف عن المسيحية التي تعنى بالإيمان وتجعله يفوق العمل الصالح، فالاتجاه الخلفي عند اليهود في التصرفات اليومية أهم من الاعتقاد السليم (١)، وتختلف اليهودية عن المسيحية كذلك في مجال تفكيرها، فمجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم، ذلك الذي لن يقدر الإنسان العائش هنا على الأرض أن يدركه، وإنما مجالها الأوحده هو هذا العالم الحاضر (٢)، وفي دائرة المعارف العبرية يقرر كوهلر أن اليهودية ليست عقيدة أو نظاما من العقائد يتوقف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل، ولكنها نظام للسلوك البشري، وناموس البر الذي يتحتم على الإنسان اتباعه (٣)، ويقرر الفكر اليهودي بناء على ذلك، أن الجزاء يكون حسب الأعمال لا حسب الاعتقاد (أشهد السماوات والأرض على أنه سواء كان المرء يهوديا أم وثنيا، رجلا أم امرأة، حرا أم مقيدا، فإنه سينعم بالجزاء حسب أعماله دون سواها) (٤).

ولما كانت اليهودية دين أعمال لا دين إيمان، فمن الواضح تبعا لذلك ألا تتكلم عن الآخرة والبعث والحساب، فتلك أمور تتوقف على العقيدة، ولهذا فقلما يشير اليهود إلى حياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود، وكان الثواب والعقاب يتم في الحياة الدنيا، ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود، إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في

(١) Gerry: ٣٥ Religions of the World p

(٢) أديان العالم الكبرى لخصها عن الإنجليزية حبيب سعيد ص ٨٨ - ٨٩.

(٣) The jewish Encyclopaedia مادة Judaism.

(٤) في الفكر اليهودي ص ٣١.

هذه الأرض ولعلمهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس، أو لعلمهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين، ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية (١). والدارس للكتب الإسرائيلية يجدها تسيير مع الفكر الذي أوضحناه آنفا فهي لم يرد فيها شيء عن البعث واليوم الآخر، وإنما ورد حديث عن الأرض السفلى والجب التي يهوى إليها العصاة ولا يعودون (وإن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد). ويقول Arthur Hertzberg: إن الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها هي عالم الإنسان، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعث، وجنة أو نار (٢).

ومر الزمن واحتل الفرس بلاد بابل ودولتي اليهود، ووقع الأسر البابلي، ثم سمح قورش ملك الفرس لليهود بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء معبدهم، وكانت هذه العلاقة الطيبة بين الفرس وبين اليهود داعية لأن يدرس اليهود الديانة الزرادشتية ديانة الفرس، ومن تعاليم هذه الديانة، اقتبس اليهود الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت، ولأول مرة عرفوا أيضاً أن هناك جنة ونارا فنقلوا ذلك الاعتقاد إلى دينهم (٣)، وفي هذا الجو بدأ أشعيا كلامه الذي يشير إلى يوم البعث وإلى الحساب والجزاء، كما أخذ دانيال يحذر الناس ويذكرهم بيوم البعث، ومن قوله في ذلك: (كثيرون من الرافدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار، إلى الازدراء الأبدي (٤)). على أن اليهود عندما تكلموا عن الآخرة، لم يكونوا في أكثر الأحوال يعنون ما تعنيه الأديان الأخرى من وجود دار للحساب على ما قدم الإنسان في حياته الأولى، إنما كانوا يعنون بها شيئاً آخر، فالشعب اليهودي عند الباحثين

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٥.

(٢) Judaism p ٢٠٥.

(٣) سليمان مظهر قصة العقائد ص ٣١٨. (٤) دانيال: ١٢: ٢.

اليهود قسمان، قسم عاش حياته الدنيا سعيدا حرا وهؤلاء يعدهم الفكر اليهودي قد حصلوا على الجانب المادي من رضا إلههم، أما القسم الآخر وهم الذين فقدوا هذا الجانب وعاشوا تحت سلطان الجوييم أو عاشوا في المنفى مشردين فهؤلاء يرى الفكر اليهودي أن من حقهم أن يعودوا للحياة مرة أخرى لينالوا نصيبهم من المتعة أو النعيم (١).

وعلى العموم فإن فكرة البعث لم تجد لها أرضا خصبة في عالم اليهود، وقد حاول بعض طائفة الفريسيين القول بها، ولكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة، أما باقي الفرق اليهودية فلم تعرف عنها شيئا. (٢).

The Jewish World in the Time of Guignebert (١)

:١١٧ Jesus p

١٢٠ Lbid p (٢)

التابوت والهيكل

إن دراسة التوراة يمكن أن تعطينا صورة واضحة عن التابوت والهيكل، ولعل أهم حديث نبدأ به عن التابوت هو ما ورد في سفر الخروج ونصه: (وقال الرب لموسى اصعد إلى، إلى الجبل وكن هناك، فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليم بني إسرائيل...) (١)، فصعد موسى إلى الجبل، وهناك تلقى من الإله أوصافا للتابوت، ويذكرها سفر الخروج مفصلة نجتزئ منها ما يلي لنعرف بهذا التابوت وصفته: (فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، وتغشيه يذهب نقي، من داخل ومن خارج، وتضع عليه إكليلا من ذهب حواليه، وتسبك له أربع حلقات من ذهب، وتجعلها على قوائمه الأربع، على جانبه الواحد حلقتان وعلى جانبه الثاني حلقتان، وتصنع عصوين من خشب السنط، وتغشيهما بذهب، وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت، ليحمل التابوت بهما، وتبقى العصوان في حلقات التابوت، لا تنزعان منها وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيك (٢)) وعلى غطاء التابوت يوجد طائران لم ير الناس مثلهما، وينسب لموسى القول بأنه رأى هذا النوع من الطيور بالقرب من عرش الله، وحراسة التابوت موكولة لهذين الطائرين (٣).

وتذكر التوراة أن موسى نزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيهما، من هنا ومن هنا كانا مكتوبين، واللوحان هما سنعة الله، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين (٤).

(١) خروج ٢٤: ١٢. (٢) خروج ٢٥: ١٠ - ١٥.

(٣) James Hosm :١٦ The jews p

(٤) خروج ٣٢: ١٥ - ١٦.

ويتصل بالتابوت شئ يجدر بنا أن نتكلم عنه كلمة قصيرة، ذلك هو المذبح المخصص لإيقاد البخور، ويورد العهد القديم وصفا مفصلا له فيصفه بأن يكون طوله ذراعا وعرضه ذراعا وارتفاعه ذراعين، وأن يصنع من خشب السنط ويغشى يذهب نقي سطحه وحيطانه، ويوضع قدام الحجاب الذي أمام تابوت الشهادة، ويوقد عليه هارون بخورا عطرا كل صباح، حين يصلح السرج، وحين يصعد هارون السرج في العشية، يوقده، بخورا دائما أمام الرب، ويصنع هارون كفارة على قرونيه مرة في السنة من ذبيحة الخطية التي للكفارة (١). وتروي المراجع التي بين أيدينا، أن بني إسرائيل صنعوا التابوت على صفاته تلك، وأن موسى وضع اللوحين في التابوت، كما وضع فيه ذهباً وفضة وبعض الموائيق، وسماه تابوت العهد، وقال لبني إسرائيل: إنه في هذا السفط توجد روح الإله يهوه، ولم يكن يسمح لأحد أن يمسه (٢)، وإنما كان يحمل عن طريق العصوين سالفني الذكر، ولما مسه عزة الصالح، بأن مد يديه إلى التابوت ليمنعه من السقوط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة، غضب الرب على عزة، وضربه الرب هناك لأجل أنه يمد يده إلى التابوت فمات هناك أمام الله (٣)، ويبدو أن قادة بني إسرائيل كانوا يحتفظون في التابوت بأغلى ما يملكون من ثروات، ويوهمون الناس أن من مسه مات، ليضمنوا نجاة هذه الثروات، بدليل أن العرب في إحدى جولاتهم أخذوا التابوت من بني إسرائيل، ولم يمت أولئك الذين أخذوه.

ويرى غوستاف لوبون (٤) أن تابوت العهد اقتباس من الفكر المصري الذي كان به نظائر لهذا التابوت المقدس، وقد ظل الاعتقاد في قدسية

(١) خروج ٣٠: ١ - ١٠. (٢) سليمان مظهر: قصة العقائد ٣٠٣ و ٣٠٦.
(٣) صموئيل الثاني ٦: ٧. (٤) اليهود في الحضارات الأولى ص ٦١ - ٦٢.

هذا التابوت حتى عهد أرميا الذي أخذ يتكلم عن إله روحاني، ووضع من شأن التابوت وقال عنه: لا يعودون يقولون تابوت عهد الرب، ولا يخطر لهم ببال، ولا يذكرونه ولا يفتقدونه، ولا يصنع من بعد.

ذلك حديث يكشف لنا سر التابوت، وبقي بعد ذلك أن نتحدث عن الهيكل، وأن نربط التابوت بالهيكل، وقد سبق أن ذكرنا أن داود اتخذ مدينة أورشليم عاصمة لملكه، ويقص سفر أخبار الأيام الأول، أن داود جمع رؤساء إسرائيل ورؤساء الفرق الخادمين الملك، ورؤساء الألوف ورؤساء المئات، ووقف على رجليه وخطب فيهم قائلا: اسمعوني يا إخوتي وشعبي، كان في قلبي أن أبنى بيت قرار لتابوت عهد الرب، ولموطئ قدمي إلهنا، وقد هيأت للبناء، ولكن الله قال لي: لأتين بيتا لاسمي... إنما اختار سليمان ابني ليجلس على مملكة الرب بعدي، وقال لي إن سليمان ابنك، هو بيني لي بيتي ودياري، لأنني اخترته لي ابنا وأنا أكون له أبا (١)، وقال داود الملك لكل المجمع، إن سليمان ابني صغير وغيض، والعمل عظيم لأن الهيكل ليس لإنسان بل للرب الإله، وأنا بكل قوتي هيأت لبيت إلهي الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب وحجارة الجزع وحجارة الترصيع، وحجارة كحلاء، ورقماء، وكل حجارة كريمة، وحجارة الرخام بكثرة... (ويذكر الأصحاح مقادير هائلة وأوزاناً عظيمة من هذه المواد) ثم يحث داود الشعب أن يباركوا الرب إلههم وأن يسهموا بما يستطيعون من مال في بناء هذا الهيكل (٢). وتقول الرواية إنهم تبرعوا بخمسة آلاف وزنة من الذهب، وبضعفها من الفضة، وبكل ما يحتاج إليه الهيكل من الحديد والحجارة، وقام سليمان ببناء هذا الهيكل الذي تورد عنه المراجع اليهودية وصفا مفصلا، بما يحوى من أروقة وبيوت وخزائن وغرف ومخادع، وبما به

(١) أخبار الأيام الأول الأصحاح الثامن والعشرين.

(٢) أخبار الأيام الأول ٢٩: ١ - ٣.

من أمتعة وموائد وكئوس وأقداح ومذابح، ولعل من الأوفق أن نقتبس سطوراً قليلة عن وصف هذا الهيكل من سفر الملوك الأول، فقد جاء فيه ما يلي: فبنى سليمان البيت وأكمله وبنى حيطان البيت من الداخل، بأضلاع أرز من أرض البيت إلى حيطان السقف، وغشاه من داخل بخشب، وفرش أرض البيت بأخشاب سرو، وبنى عشرين ذراعاً من مؤخر البيت بأضلاع أرز من الأرض إلى الحيطان، وبنى داخله المحراب أي قدس الأقداس... وهياً محراباً في وسط البيت من داخل ليضع هناك تابوت عهد الرب، وأقام تمثالين لملكين يحرسان قدس الأقداس، وغشى المحراب بذهب خالص وغشى المذبح بأرز، وغشى سليمان البيت من الداخل بذهب خالص، وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب (١).

ويقول ول ديورانت: إن طراز الهيكل هو الطراز الذي أخذه الفينيقيون عن مصر وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين، ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح، بل كان سياجاً مربعاً يضم عدة أجنحة، ولم يكن بناءه الرئيسي كبير الحجم، فقد كان طوله حوالي مائة وأربع وعشرين قدماً، وعرضه حوالي خمس وخمسين وارتفاعه حوالي اثنتين وخمسين (٢).

وقد اختير لتشييد الهيكل مكان فوق ربوة، ولكن سائر أجزاء الهيكل لم يبق منها الآن شيء على الإطلاق (٣).

(١) الملوك الأول ٦: ١٤ - ٢١.

وانظر A History of the Jewish People by Margolis and Marx p ٥٠ .٤٩

(٢) ول ديورانت قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٥.

(٣) المرجع السابق.

أما بناء الهيكل فقد جلبهم سليمان - كما سبق القول - من حليفه ملك حيرام، إذ كان اليهود لا يعرفون فن الهندسة والعمارة، وكانوا كذلك يجهلون ألوان الفنون الأخرى، لبدأوتهم ولأن موسى حرم عليهم التصوير والنحت حتى لا يخلقوا أشياء تناظر ما خلقه الله (١) ثم يعبدوها. ويقول ول ديورانت عن الهيكل:

ويعد بناء الهيكل أهم الأحداث في ملحمة اليهود، فإنه لم يكن بيتا ليهوه فحسب، بل كان أيضا مركزا روحيا لليهود، وعاصمة لملكهم، ووسيلة لنقل تراثهم، وذكرى لهم، يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض، ولقد كان له فوق ذلك شأن في رفع الدين اليهودي من دين بدائي متعدد الآلهة إلى عقيدة راسخة غير متسامحة (٢).

ولما تم بناء الهيكل جمع سليمان شيوخ إسرائيل، وحمل الكهنة تابوت عهد الرب وأدخلوه إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس، تحت جناحي الكرويين (٣).

وأصبح الهيكل منذ ذلك الحين المكان الوحيد الذي تقدم عنده القرابين، وكانت القرابين من قبل تقدم لرب إسرائيل في هياكل محلية، أو هياكل ساذجة فوق التلال (٤).

ودخول الهيكل لم يكن مباحا للجميع، وإنما كان مقصورا على الكهنة، أما قدس الأقداس (المحراب) فلا يفتح إلا مرة في العام ولا يدخله إلا كبار الكهنة (٥).

(١) Hosmer ; ٧٢ The Jews p (٢) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٨.

(٣) الملوك الأول ٨ : ١ - ٦ . (٤) الملوك الأول ٣ : ٢ .

(٥) A History of the Jewish People: p Margolis and Marx ٦٤

وانظر كذلك The Jewish World in the time of Jesus by

Guignebert p ٥٧.

الكهنة والقرايين
تحدثنا عن الأنبياء في الفكر اليهودي، وذكرنا أنهم طبقة ظهرت بين
اليهود وادعت الوحي والنبوة، وقال كل منهم إنه تلقى كلمة الرب، وذكرنا
تنديد بعضهم ببعض، ورمى بعضهم بعضا بالكذب والشعوذة، ورنانا هنا -
ونحن نتحدث عن الكهنة - في حاجة إلى أن نوضح الصلة بين الأنبياء
والكهنة، فهؤلاء وأولئك يدعون الوحي ويقدمون النصح، ولكن كان هناك
فرق واضح بين هؤلاء وأولئك، فقد ظل الأنبياء بعيدين عن المعابد والخطط
الدينية الرسمية، غير مرتبطين بتقاليد، وكان جل اتجاههم أن ينعوا على الأغنياء
غناهم، فأصبحوا كما يقول Wells الناصحين غير الرسميين للناس في الشؤون العامة
والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة (١)، وكانت تظهر أهمية الأنبياء مع
كثرة المصائب والأهوال التي كانت تنزل ببني إسرائيل، ولم تكن أعمال
الأنبياء ذات صلة بالهيكل أو القرايين، ولم تكن أحد يعين الأنبياء، ولا كانوا
يختارون من سبط محدد، ولم تكن هنا كتقاليد يمرون بها ليصلوا للنبوة، وهم
في كل هذا يخالفون الكهنة، وكثيرا ما كانوا يهاجمون الكهنة، وأحيانا
كانوا ينتقدون الملوك وينعون عليهم الترف والملاذ، وكان الكهنة يحقدون
عليهم تدخلهم في الشؤون الدينية، وأنهم يدعون أنهم يوحى إليهم، إذ كان الكهنة
يحاولون أن تكون لهم وحدهم هذه المواقف، وليس الخلاف الذي حدث بين
عيسى وكهنة الهيكل إلا حلقة من حلقات خلافات مماثلة بين الأنبياء والكهنة.
ونجئ الآن إلى الكهنة لنقرر أنهم كانوا من أبناء ليفي أحد أبناء يعقوب،
وما كان من الممكن أن يكونوا من غير هذا الفرع، وللووصول إلى الكهنوتية،

٢٩٤ The Outline of History p (١)

كان الواحد منهم يمر بتدريبات وتقاليد يعرف خلالها الطقوس والأسرار الدينية، ويبرهن على استحقاقه لهذا المنصب الخطير، وكان لهم وحدهم حق تفسير النصوص، ولم تكن القرابين مقبولة إلا إذا قدمت على يد أحد الكهنة، وكانوا معفون من الضرائب، وتقدم لهم العشور من نتاج الضأن، ويأخذون ما بقي في الهيكل من القرابين، وقد جمعوا بذلك أموالاً ضخمة وثراء عظيمًا، وامتازت ثروتهم بأن عدت مقدسة، وشخصياتهم بأن كانت الوسيلة إلى الله، وبذلك أصبحوا في كثير من الأحوال أقوى من الملوك أنفسهم.

وقد عقد Guignebert فصلاً عن المجمع الكهنوني الذي يدبر شؤون اليهود (١)، ونقتبس منه ما نحتاجه في هذا البحث:

كان يتكون من كبار الكهنة مجلس يبحث الشؤون الكبرى التي تهم اليهود، ويرى بعض الباحثين أن هذا المجلس امتداد للمجمع الذي أمر يهوه موسى أن يكونه من سبعين من كبار اليهود ليلتقي بهم يهوه في خيمة الاجتماع (٣)، ولا يوافق Guignebert على هذا الرأي ويرى أن الفرق كبير بين مجمع موسى الذي كان يمثل القبائل والسلطات وبين مجمع الكهنة الذي نتحدث عنه، والذي كان يمثل طائفة من العلماء والمفكرين من أبناء ليفي، ويرى هذا المؤرخ أن مجمع الكهنة يرجع إلى عهد الضغط اليوناني والروماني، وما انفجر عن

ذلك من ثورات يهودية، وقد رأى القائمون بهذه الثورات أن من الضروري أن يكون لهم مجلس يدبر أمر هذه الثورات ويرعى مصالح اليهود (٣)، وعضوية هذا المجلس تمتد مدى الحياة، أما طريقة اختيار أعضائه فإنها غير واضحة، ولم

٥٠. The Jewish World in the Time of Jesus pp - ٥٩ (١)

(٢) سفر للعدد ١١ : ٦.

(٣) Guignebert p ٥٠.

يكونوا في مستوى واحد من حيث مكانتهم، بل كان منهم أعضاء لهم نفوذ واسع وتأثير كبير على الآخرين (١).
وسلطان هذا المجلس الأدبي، كان يمتد إلى حيث يقيم اليهود في كل البقاع، أما سلطانه المادي فكان ينكمش وينبسط حسب الظروف
وكان هذا المجلس يبحث في كل الشؤون التي لها علاقة بالدين، فهو يضع قوانين المعاملة، وقوانين الزواج والطلاق، ويحدد الأعياد ومواعيدها، ويحارب الهرطقة، وما إلى ذلك من مشكلات اليهود، وكان هذا المجلس يقوم بدور الوساطة أحيانا إذا جد نزاع بين طائفتين من اليهود، وكان يحكم في القضايا الجنائية الكبرى، وله أن يحكم بالاعدام على الهرطقة، بشرط موافقة الحاكم الروماني، وقد قضى هذا المجلس بإعدام عيسى، ولكنه احتاج لموافقة هذا الحاكم (٢)، وبذلك كان هذا المجلس سلاحا حادا في يد طبقة الكهنة، وطالما استعمله هؤلاء لبيسط نفوذهم على اليهود وإملاء كلمتهم، وبواسطة هذا السلاح أصبحوا يأمرون وينهون، ويحرمون ويحللون، ولم يقنعوا بمد سلطانهم على المسائل الدينية فقط، بل راحوا يحولون كل مشكلات الحياة إلى مسائل دينية، وبذلك أخضعوها إلى سلطانهم (٣).
ولم يكن هذا هو كل نفوذ الكهنة على الشعب، فبجانب هذا المجلس كان الكهنة هم رعاة المعبد وخدمه، وقد حقق لهم هذا الوضع امتيازاً دينياً وإدارياً، فالكاهن الأعظم استمتع بسلطة عظيمة ليس فقط في الأمور الدينية ولكن في الأمور المادية أيضاً، وبخاصة في عهد كانت الحدود بين السياسة والدين غير واضحة، وعن طريق هذا النفوذ طالما أصبح الكاهن الأعظم ملكاً متوجاً (٤).

(١) The Jewish World in the Time of Jesus p ٦٢.

(٢) يوحنا ١٨ : ٣٠، وانظر كتاب المسيحية للمؤلف Guigneber p ٥٤

(٣) Guignebert pp ٥٥ - ٥٦

(٤) .Ibid p ٥٦

وكان الكاهن الأعظم يختار من أعظم فروع أسرة ليفي، وبهذا كان يضيف على جماعته مجدا وعظمة، مما يجعلها تدعم سلطته وتقوى نفوذه، وتحرص على بقائه في هذا المنصب، إذ كان ضياع هذا المركز منه كثير التأثير على أمتهم وراثتهم (١). أما القرابين فكانت تشمل الضحايا البشرية، فكان الإنسان يقدم مع القرابين الأخرى من الحيوان والثمار، واستمر الأخذ بهذه العادة فترة طويلة امتدت إلى عهد الانقسام حيث قدم الملك أخاز ابنه قربانا للآلهة (٢)، وممن قدموا ضحايا للآلهة أيضا ابنة جفثة (Jephthah, s daughter) (٣)، ثم اكتفت الآلهة بجزء من الإنسان، بدلا من أن يضحي بالإنسان كله، وكان هذا الجزء هو ما يقتطع في عملية الختان، وقد بقيت عملية الختان رمزا للتضحية، وبقي مع الختان الحيوان والثمار، فأصبح يضحي بالبقر والخراف أو ببواكير الثمار، تحرف أمام المعبد، وكانت القرابين عبارة عن هدية يتقرب بها الشخص للإله، رجاء قضاء حاجة يريدها، وكانت أحيانا للشكر والاعتراف بعون حصل عليه الشخص قبل تقديمها (٤).

وكانت القرابين هي الحدث اليومي عميق الصلة بالمعبد، وكان يقدم قربان في الصباح وآخر في المساء، وكان يصحب القرابين احتفال طويل وشعائر يقوم بها الكهنة، وكثيرا ما كان أفراد من الشعب يقدمون قرابين خاصة بجوار القرابين سألقة الذكر، وفي يوم السبت وأيام الأعياد كانت هناك قرابين إضافية، واحتفالات دينية أوفى وأشمل، وكان تقديم القرابين ليهوه، دليل الارتباط بين الشعب والإله، ودليلا على وجود يهوه بين الشعب (٥).

(١) The Jewish World in the Time of Jesus p ٥٧.

(٢) الملوك الثاني ١٦ - ٣.

(٣) Charles Foster Kent :٩٦ A History of the Hebrew People p

(٤) Berry: Religions of the World p ٣١.

(٥) Guignebert: The Jewish World in the Time of

Jesus pp ٦٠ - ٦١.

ويذكر الباحثون أن تقديم القرابين كان مرحلة من مراحل الرقي عند اليهود، فقد كانوا يلجئون للسحرة والعرافين، ولكن الكهنة قاوموا هذا الاتجاه فيهم، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة سحرية واحدة، هي قوة قربان والصلوات والتبرعات، وكان المعتقد أن القرابين تكفر ذنوب الناس وخطاياهم إذ باركتها يد الكاهن (١).

والتطور في نوع القرابين الذي ذكرناه آنفا كان نتيجة للتطور في الفكر اليهودي عن الإله، فقد كان يهوه في بادئ الأمر إلها يحب الدم. وكانت اليهودية دين فزع وذعر وخوف، ولم يكن يطفأ حقد الإله إلا بالدم المسفوك، فلما ترفت فكرة اليهود عن الإله، وقالوا بإله بر وصالح، أصبح هذا يكتفي بالختان بدل الإنسان، كما يكتفي بالحيوان والثمار، وكان بعض بني إسرائيل يثورون أحيانا على الطقوس والقرابين والعبادات الشكلية بالمعبد، ولكن أكثرهم على كل حال، ظلوا خاضعين لها أطول فترات تاريخهم، ومما ساعد على تقليل الثقة بالمعابد قبل بناء الهيكل تبادل التكذيب والتحقير بين المعبد والمعبد في المنافسات الشديدة، فكانت هذه كلها مؤثرات تحاول أن تفك عقال أذهان الناس، وتفتح أمامهم آفاقا أكثر سعة، وأشد حرية من النظرة الدينية، وكانت الكنوز الذهبية الضخمة تجذب الناس في عهد من العهود، وتفعل فعلها السحري في نفوس السذج، ثم أصبحت هذه الكنوز نفسها عاملا من عوامل التراخي في العبادة، فما كان الجائع يستطيع أن يمسك بطنه ويخضع لثراء الأثرياء، بعد أن تفتح ذهنه بعض الشيء.

ومما أضعف نظام الكهنة كذلك، قيام المركزية الدينية ببناء الهيكل ووضع التابوت به، فأصبح هناك معبد واحد ومجموعة واحدة من الكهنة، ونظر بعض الكهنة فوجدوا أنفسهم قد فقدوا كل سلطان لهم

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٩.

فحقدوا على هؤلاء الذين لم يفقدوا مكانتهم، وأخذ كل منهم يقلل من مكانة الآخرين.

وهكذا وضع كهنة اليهود أنفسهم بين الناس وبين الله، فلم تكن تقبل توبة ولا قرابين إلا إذا باركها الكاهن، فقد كان مفتاح السماء في يده، وهذا التصرف كان من أهم العيوب التي جاء المسيح لمحاربتها، ولكن المسيحية - للأسف - سرعان ما سارت في نفس الطريق بعد المسيح، فقام القسس يمثلون نفس الدور الذي مثله كهنة اليهود من قبل (١).

(١) أنظر كتاب المسيحية للمؤلف.

الشعب المختار والمسيح

يقول الدكتور هربرت لوي اليهودي وأستاذ اللغة العبرية بجامعة اكسفورد: إن اليهودية تقوم على أساسين هما وحدانية الله واختيار إسرائيل (١)، وقد سبق أن تحدثنا عند الوحدانية عند اليهود، وبتكلم الآن عن الأساس الثاني، فيروى أن يهوه قطع وعدا لإبراهيم بأن يفضل الشعب اليهودي جميع الأجناس (٢)، وجاءت النصوص الآتية في التوراة:

- أنا الرب إلهكم الذي ميزتكم عن الشعوب، تكونون لي قديسين لأنني قدوس، أنا الرب وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي (٣).

- إنك يا إسرائيل شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق بكم الرب واختاركم، ولا لأنكم أقل من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم، وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم (٤).

وبالغ التلمود وبرتوكالات حكماء صهيون - وستتكلّم عنهما فيما بعد - في تبيان أفضلية اليهود واختيارهم، فذكرا أن الفرق بين الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وبين باقي البشر، وقرر أن لليهود وحدهم الحياة الأبدية وأن أرواحهم من روح الله دون سائر الشعوب. ما السبب في كون اليهود شعبا مختارا؟

(١) سبق أن فصلنا القول في الوحدانية والتعدد عند اليهود، وهربرت لوي يهمل أطول فترات التاريخ الميري عندما يتناسى تعدد الآلهة عندهم.

(٢) Wells: ٢٩١ The Outline of History Vol II p

(٣) لاويون: ٢٠: ٢٤ - ٢٦.

(٤) تثنية ٧: ٦ - ٨.

هناك عبارات اصطلاحية بذكرها اليهود للتعبير عن مصدر هذا الاختيار، وهي عبارات تدعو للسخرية والضحك، فالباحث Arthur Hertzberg يقرر أنه في سيناء عندما تجلى الله لموسى ولبنى إسرائيل ثم زواج بين الله وبين إسرائيل، وسجل عقد الزواج بينهما، وكانت السماوات والأرض شهوداً لهذا العقد، وفيما يلي نص كلمات هذا الباحث:

(١) There are a number of examples in Jewish literature of
A marriage contract between God and Israel with heaven
and earth as witnesses

ويرى اليهود أن الامتياز الذي حصل عليه الشعب اليهودي هو في الوقت نفسه مسؤولية عليهم، وعدم رعايتهم هذه المسئولة بأمانة وصدق جعلهم هدفاً للانتقام، ولذلك فإنهم يفسرون ما نزل بهم من ضرر بأنه عقاب لهم على عدم حملهم الأمانة وعدم سيرهم بمقتضى ما منحوه من امتياز وتفوق، ويضيف مفكروهم - دفاعاً عما أصابهم من ويلات - أن اليهود لم يكونوا أكثر الناس خطايا، ولا أبعدهم عن الصواب، ولكن المصائب لحقت بهم أكثر من غيرهم لأن اختيارهم وتفضيلهم على سواهم. كان يحتم عليهم أن يكونوا أكثر طاعة وأكثر استجابة، فلما عصوا كان عقابهم أقسى مما نزل بسواهم على نفس العصيان (٢).

وقد سبق عند الحديث عن ديانة اليهود العنصرية أن أوضحنا أن الصهيونية والنازية تشتركان في ادعاء السيادة والامتياز على البشر، ونضيف هنا أن النازية أسست على أن الألمان عنصر ممتاز نقي يسمو على كل عناصر البشر، وليس هناك من يضاهيه رفعة وسموا، ولما كانت هذه المبادئ نفسها هي مبادئ اليهود، فإن صداماً ضخماً حدث بين الطائفتين، لأن كلا منهما يدعي أنه أفضل من الآخر، وفي مكان السيادة بالنسبة له.

Judaism Ed / ١١٩ by Arthur Hertzbert p (١)
ibid p ١٣ (٢)

ونتج من طبيعة الاختيار عقيدة أخرى عند اليهود، هي عقيدة المسيح المنتظر، فإن اليهود وجدوا أنفسهم لا خيرة البشر كما زعموا، ولا صفوة الخلق كما أملوا، بل لم يجدوا أنفسهم في نفس المكانة التي ينعم بها الآخرون، وإنما كانوا هدفاً للبلايا والنكبات، ومن هنا اتجه مفكروهم في عصورهم المتأخرة إلى مخلص ومنقذ ينتشلهم من هذه الوهدة، ويضعهم في المكانة التي أرادوها، وأطلقوا على هذا المخلص (المسيح المنتظر) ووصفوه بأنه رسول السماء، والقائد الذي سينال الشعب المختار بهديه وإرشاده ما يستحقه من سيادة وسؤدد (١). ويتضح من الوصف الذي أورده Guignebert أن المسيح المنتظر ليس إنساناً عادياً بل هو إنسان سماوي (Heavenly Person) وكائن معجز خلقه الله قبل الدهور، ويبقى في السماء حتى تحين ساعة إرساله، وعندما يرسله الله يمنحه قوته، وهو يحمل لقب (ابن الإنسان) أي إنه سيظهر في صورة الإنسان (٢) وإن كانت طبيعته تجمع بين الله وبين الإنسان (٣). ونعلق على هذا الوصف بأن نقول إن المسيحيين اقتبسوه كله وأسندوه إلى عيسى بن مريم (٤).

وكلمة المسيح معناه الممسوح (بزيت البركة) لأنهم كانوا يمسحون به الملوك والأنبياء والكهنة والبطارقة، وكانوا في مبدأ الأمر يرون المسيح ملكاً فاتحاً مظفراً من نسل داود، يسمونه ابن الله، ويعتقدون أنه سيجئ ليعيد مجد إسرائيل، ويجمع أشتات اليهود بفلسطين، ويجعل أحكام التوراة نافذة المفعول، ولكنهم أحياناً أطلقوا كلمة المسيح على من يعاقب

(١) James Hosmer :٨٥ The jews p
(٢) The Jewish World in the Time of Jesus p ١٤٠
(٣) Lbid p ١٤١ .
(٤) اقرأ كتاب المسيحية للمؤلف.

أعداءهم وإن لم يكن من نسل داود، كما أطلقها أشعيا على قورش، ولما طال انتظارهم للمسيح الفاتح للغازي، ولم يجيء فكروا أحيانا بأن يجيء المسيح مصلحا اجتماعيا عادلا وديعا (١).

وقد سبق أن قلنا إن فكرة المسيح برزت في الفكر اليهودي في وقت متأخر، ومراجعة الكتاب المقدس تقرر لنا أن هذه الفكرة لم تظهر إلا بعد سقوط دولتهم وأسرهم في بابل ثم خضوعهم إلى الفرس (٢)، وهذا التوقيت دفع كثيرين من الباحثين إلى الاعتقاد بأن فكرة المنقذ المخلص مستعارة من الزرادشتية التي يدين بها الفرس (٣).

ويشرح Guignebert العلاقة بين الفكر الفارسي والفكر اليهودي في مسألة المسيح فيقول إن الاتجاه الفارسي كان يصور انتصار الخير على الشر في الصراع الطويل بينهما، وذلك الذي سماه الفرس خيرا هو نفسه ما أسماه اليهود (المسيح)، ويضيف هذا الباحث أن فكرة وجود ملك مثالي يحكم العالم كله كانت فكرة شائعة عند الساميين وهي تستتبع وجود عالم مثالي وهو ما أسماه اليهود، والمسيحيون من بعد اليهود (ملكوت الله) (٤).

ويعود Guignebert بفكرة المسيح لدى اليهود إلى وقت سابق للعهد الفارسي، وهو يرى أن الكلمة المستعملة مع المسيح هي كلمة Expectation أي توقع) وهي عنده توحى بأن المسيح وجد قبل ذلك، وليس توقعه إلا أملا في أن يعود مرة أخرى، ويقرر أن بعض الباحثين توقعوا المسيح منذ عهد موسى، ويروى أن بعض الشعراء وصفوا داود بأنه المسيح المنتظر، ويتخذ من هذا دليلا على وجود فكرة المسيح قبل الأسر البابلي (٥). ولا يستبعد أن

(١) ٢١٨ - Judaism Ed by Arthur Hertzbert pp ٢١٥

(٢) اقرأ سفر دانيال.

(٣) العقادة الله، ص ١١٧.

(٤) The Jewish World in the Time of Jesus p ١٤١

(٥) Ibid p ١٣٩.

يكون Messiah = مسيا = المسيح) يمثل المنقذ الذي هتف به اليهود كلما المت بهم النوائب، وطالما ألت بهم هذه النوائب (١). ويتجه بعض الباحثين إلى القول بأن فكرة المهدي المنتظر عند الشيعة مستعارة من فكرة المسيح المنتظر عند اليهود (٢). ويرى Wells أن فكرة المسيح عند اليهود كانت خطوة طبيعية ناشئة عن خطوات سبقتها، وتلك الخطوات هي الاعتقاد بأن الخلق أجمعين ليسوا من أبناء إبراهيم، وإنما هم أمم وقبائل، وأن الشعب اليهودي أرقى هذه الأجناس وتلك الأمم، وإن إلههم يهوه أعظم وأقوى آلهة القبائل خطرا، ونشأت عن هذه الأفكار الثلاثة فكرة المسيح المنقذ رجاء أن يحقق لليهود ما ترامى به الزمن من وعود يهوه التي طال الأمد عليها (٣). وبالغ اليهود في رسم الصورة التي أرادوها للمسيح الذي كانوا ينتظرونه فذكروا أن الناس في ظله لن يعيشوا وحدهم في العالم في سلام وسعادة بل يشاركهم في ذلك كل أنواع الحيوانات، فالذئب يسالم الحمل، والعجل يداعب الأسد.

ونقتبس فيما يلي بعض فقرات من أشعيا يتحدث فيها عن المسيح المنتظر:

– ها العذراء تحبل وتلد ابنا (٤).

– يولد لنا ولد، ونعطي ابنا، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبا ويكون إلهنا قديرا أبا أبديا رئيس الإسلام، لنمو رياسته يجلس على كرسي

(١) The Jewish World in the Time of Jesus p ١٣٩.
(٢) Margolis and Marx :٢٥٨ A History of the Jewish people p
(٣) Outline of History Vol p ٢٢٩٢.
(٤) أشعيا ٧: ١٥.

داود وعلى مملكته ليثبتها، ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد، غيرة رب الجنود تصنع هذا (١).

- ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من غصونه، ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب، ولذته تكون في مخافة الرب، فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفخة شفثيه، ويكون البر منطقة متنيه، والأمانة منطقة حقويه.

- فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدى، والعجل المسمن والشبل معا، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معا، والأسد كالبقرة يأكل تبننا، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان، لا يسوءون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر، ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسي القائم راية للشعوب، إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا.

- ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقنتني بقية شعبه، التي بقيت من آشور ومن مصر ومن... ومن حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم، ويجمع منفي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض (٢).

وردد أرميا وعاموس نفس المعاني التي ردها أشعيا واقتبسناها آنفا، والقارئ لسفريهما يجد هذه الأفكار منتشرة هنا وهناك.

(١) أشعيا ٩: ٦ - ٧.

(٢) أشعيا ٧: ١٥ و ٩: ٦ - ٧ و ١١: ١ - ١٠.

وتهبأ الرأي العام اليهودي لهذا المسيح، وكان توقعه يتجدد كلما نزلت باليهود البلايا والمحن، وظهر عيسى بن مريم وأعلن أنه المسيح الذي ينتظره اليهود ولكن أكثرية اليهود رفضوا هذا الادعاء، وقاوموا دعوة عيسى، وألقوا القبض عليه وحكموا عليه بالاعدام (١)، ويقول عنه التلمود: إن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم، بين القار والنار، وقد أتت به أمه عن طريق الخطيئة (٢).

ومرت فترات طويلة دون أن يجيء المسيح الذي ينتظره اليهود، وانتهر بعض اليهود فرصة هذا الترقب فادعى كل منهم أنه المسيح، ويسجل التاريخ أخبار المسيح كاذب من حين إلى حين، وبخاصة في بلاد الفرس حيث ذاع القول بالمهدي المنتظر لدى الشيعة، فأثار الحماسة لظهور المسيح المنتظر، ففي بلدة شيرين ظهر رجل من اليهود في القرن الثامن الميلادي، وادعى أنه المسيح المنتظر، ووعد بأنه سيحقق معجزة استعادة فلسطين (٣)، وفي نفس القرن ظهر فارسي آخر في بلدة أصفهان اسمه أبو عيسى وادعى أنه المسيح، وقال إن عودة فلسطين لن تتم إلا على أسنة الرماح، وأعد جيشا قوامه عشرة آلاف جندي من اليهود، وواتته فترة الاضطرابات التي كان يعانها العالم الإسلامي عند سقوط الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس، فعاشت حركة أبي عيسى فترة لأن أبا العباس السفاح انشغل عنها بما صادفه من مشكلات في مطلع الدولة العباسية، فما آل السلطان للخليفة المنصور اتجه بضربة قاصمة إلى جيش اليهود فهزمه، وفر أبو عيسى تجاه الشمال، ذاكرا أنه سيتقابل هناك مع أحد قادة اليهود المختلفين ليتعاون معه على استعادة فلسطين (٤).

(١) اقرأ كتاب المسيحية المؤلف.

(٢) سنتكلم عن التلمود في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٣) Margolis and Marx : ٢٥٩ A History of the Jewish people p

(٤) Ibid p ٢٥٩.

وفي القرن السابع عشر ظهر في سالونيك يهودي اسمه سبتاي زيفى كان واسع الاطلاع على الثقافة اليهودية مما جعله على صلة بأقوال اليهود حول المسيح المنتظر، ورأى زيفى ما عاناه اليهود في حرب الثلاثين بأوربا، فقد أمضى طفولته وشبابه وهذه الحرب مشتعلة، حيث كان اليهود وقودا لها، وساورته نفسه أن يعلن أنه المسيح المنتظر، فعكف على الصلاة والصوم، وأخذ يطوف البلاد هنا وهناك، ويدعو لنفسه ويعلن قرب ظهور المسيح المبارك، ولما حلت سنة ١٦٦٦ أعلن زيفى أزل رسالة له لليهود، واختار لإعلانها يوما يمضيه اليهود في صوم وحزن لأنه يرتبط بذكريات أليمة عندهم، وفي هذه الرسالة يقول:

(من أول ابن الله، سبتاي زيفى، المسيح، مخلص شعب إسرائيل، إلى جميع أبناء إسرائيل... السلام... لما كان قد قدر لكم أن تكونوا جديرين برؤية اليوم العظيم وإنجاز وعد الله إلى أبنائه، فلا بد أن تغيروا أحزانكم فرحا وصومكم مرحا، لأنكم لن تبكوا بعد الآن، فاستمتعوا وغنوا واستبدلوا باليوم الذي كان من قبل يقضى في حزن وآلام، يوم عيد، لأنني ظهرت...).

وأعلن زيفى أنه سيستعيد فلسطين لليهود، وسيعيد أمجاد صهيون الذي حققه من قبل داود وسليمان، وقد ذكر لنا Hosmer تفاصيل دقيقة عن سبتاي زيفى وحركته، فلننقل منه بعض فقرات تصور لنا هذه الحركة الخطيرة ونهايتها، يقول Hosmer (١): ولد سبتاي زيفى سنة ١٦٢٦ م وهو ابن لتاجر يهودي كان يعمل مديرا لفرع من فروع شركة إنجليزية تجارية كبيرة، وكان سبتاي جذابا، هادئ الأخلاق، كما كان شديد الحماسة للفروض الدينية والتقاليد اليهودية، مما لفت إليه الأنظار، وعندما بلغ الخامسة والعشرين أعلن أنه المسيح المنتظر، وسرعان

(١) ٢١٨ - The jews ٢١٦ : James Hosmer.

ما صدقته أفواج من الناس وأصبح له مريدون يزدادون يوماً بعد يوم، وأخذ سبتاي ينتقل بين اليونان وسوريا ومصر، وكان بعض أتباعه المتحمسين له يسبقونه إلى حيث ينوي أن يذهب ليهيئوا الجو لحضوره، ويجمعوا لإستقباله الجموع، وفي القاهرة كانت هناك فتاة يهودية بولندية نادرة الجمال هربت بما يشبه المعجزة من مذابح القوزاق، وعندما التقى بها سبتاي افتتن بجمالها وتزوج بها وأعلن أنها منذ القدم كان قد قضى بأن تكون شريكة حياته، وراح سبتاي في حماسة ظاهرة ينتقل هنا وهناك ويواصل دعوته، ولم يستطع الربانيون أن يوقفوا حركته التي أخذت تنتشر في كل مكان بين اليهود، حتى أصبح له أتباع في أمستردام وهامبورج ولندن بالإضافة إلى أتباعه بالشرق. وقد بلغ تصديقه مبلغاً عظيماً حتى أن بعض أتباعه راحوا يبيعون ممتلكاتهم ويجمعون ثروتهم ويعدون أنفسهم للعودة من المهجر إلى فلسطين خلف سبتاي، وفي فارس توقف العمال اليهود عن طاعة ساداتهم ورفضوا أن يستمروا في فلاحه الأرض، وبدأ اليهود في كل مكان وكأنما مسهم طائف من الجنون وأصبحوا عبيداً للأمل الذي جددته دعوة زيفى.

وانتشى زيفى بالنصر الذي حققه، فراح يدخل تعديلات جزيئة في التقاليد والنظم اليهودية، فغير وقت الصوم ومواعيد الأعياد كما جاء في رسالته التي ذكرناها آنفاً، ووصلت به النشوة إلى أن تخيل نفسه صاحب سلطان شامل، فأخذ يوزع التيجان على إخوته وأصدقائه المقربين، بعد أن عين كلا منهم ملكاً على منطقة من المناطق التي رأى أن سلطانه سيزحف عليها، واحتفظ زيفى لنفسه بلقب (ملك الملوك).

ووصل زيفى في تجواله إلى القسطنطينية حيث عاصمة الخلافة العثمانية ويلاحظ أن الخليفة المسلم لم يتعرض له في المدة السابقة، لأنه فيما يبدو لم يرد أن يواجه الحماس والصخب الذي أحاط باسم سبتاي في أول أمره،

وهذا التصرف من الخليفة المسلم شجع سبتاي إلى أن يدخل عاصمة الخلافة، وهناك ألقى الخليفة القبض عليه، وأحكم قيده وألقى به في قلعة الدردنيل، واكتفى الخليفة المسلم بذلك فترة نعم خلالها سبتاي بالكرم والحفاوة، وزحف كثير من اليهود إلى القسطنطينية ليروا مصير قائدهم، ولكن أحد اليهود الربانيين البولنديين أعلن أن سبتاي كاذب، وأن حركته تهدد الأمن والسلام، وانتهز السلطان محمد الرابع هذا الخلاف، فأحضر سبتاي أمامه في جمع حافل، وأعد بعض الجند المهرة لقتله، ثم أعلن هذا السلطان استعداداه ليتحول إلى اليهودية إذا استطاع سبتاي ابن الله، والمسيح المنقذ كما يدعى، أن يمنع الرصاص من الانطلاق، وفي نفس الوقت منح الخليفة فرصة لسبتاي ليعلن أنه كاذب مدع وأن يدخل الإسلام إن كان يعرف أنه لن يستطيع إيقاف الرصاص من الانطلاق، وسرعان ما اختار سبتاي الإسلام، وسمى نفسه محمد أفندي، وانتهت بذلك هذه الزوبعة التي أثارها هذا الدعي، ولا يزال اليهود حتى الآن ينتظرون المسيح (١).

Margolis and Marx: See also :٧٠٤ A History of the Jewish people p (١)

الفرق في اليهودية

تكثرت الفرق في اليهودية كثرة بالغة، وتختلف هذه الفرق في مبادئها وأسس حياتها ونظرتها إلى الكون، وإلى ما وراء الكون، وستكلم هنا عن أهم الفرق في اليهودية، شارحين أبرز نقاط الاتفاق والاختلاف بينها: الفريسيون:

كلمة الفريسيين معناها المنعزلون والمنشقون، فهم بذلك يناظرون إلى حد ما فريق المعتزلة عند المسلمين، وقد أطلق عليهم أعداؤهم هذه النسبة، ولذلك فهم يكرهونها ويسمون أنفسهم (الأخبار) أو (الإخوة في الله) أو (الربانيين) Godly ones (١).

وهم يعتقدون أن التوراة بأسفارها الخمسة خلقت منذ الأزل، وكانت مدونة على ألواح مقدسة، ثم أوحى بها إلى موسى، وعلى هذا فتدوينها بعده هو في الحقيقة إعادة تدوين، ويعتقد الفريسيون في البعث، وقيامه الأموات، والملائكة، والعالم الآخر، وأكثرهم يعيشون في مظهر الزهد والتصوف، لا يتزوجون، ويحافظون على وجودهم بطريق التبني، ولا يقدمون القرابين في المعابد (٢).

ويرى الفريسيون أن التوراة ليست هي كل الكتب المقدسة، التي يعتمد عليها، وإنما هناك بجانب التوراة روايات شفوية ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير، التي تعتبر توراة شفوية، وقد تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل، وربما دووها أحيانا خوفا عليها من الضياع، وتلك الروايات

(١) Jesus p ١٥٤

The Jewish World in the Time of: Guignebert

(٢) Laurance Browne :٨٤ From Babylen to bethlehem pp - ٨٥

الشفوية هي التي دوت فيما يسمى التلمود (١)، ولضمان تقديس اليهود للتلمود أعلن الفريسيون أن للحاخامات سلطة عليا، وأنهم معصومون، وأن أقوالهم صادرة عن الله، وأن مخافتهم هي مخافة الله، ومن قولهم في ذلك: (ويلزم المؤمن أن يعتبر أقوال الحاخامات كالشريعة لأن أقوالهم هي قول الله الحي، فإذا قال الحاخام إن يدك اليمنى هي اليسرى وبالعكس، فصدق قوله ولا تجادله... (٢). وتبعاً لذلك ليس هناك اجتهاد عند الفريسيين، وما الحاجة للاجتهاد إذا كان الحاخام مقدساً ومعصوماً، وعنده لكل سؤال جواب (٣)؟ وللفريسيين رأى في القضاء والقدر فهم يرون أن الأفعال يمكن أن تتأثر بالقضاء والقدر ولكنها غير واقعة بهما (٤). ويرى بعض الباحثين أن الفريسيين لا يكونون فرقة دينية، وإنما يمكن أن نطلق عليهم حزبا سياسيا له اتجاهاته الدينية، وهم يعتقدون أن دولة اليهود لا بد أن تستعيد مكانتها، ولذلك كانوا يؤمنون بالمسيح الذي يحى ليعيد (ملكوت الله) (٥). وكان نشاط الفريسيين فكريا لا ثوريا، فهم لم يلجأوا قط للحركات العنيفة، ولكنهم اتجهوا بكل جهدهم إلى تفسير التوراة والتعليق عليها (٦). وكان الفريسيون يريدون من بني إسرائيل أن يتمسكوا بالعقيدة القديمة التي كانت لأجدادهم قبل سقوط دولتهم بفلسطين، وكانوا يعارضون الأنبياء

(١) Margolis and Marx :١٥٩ A History of the Jewish people p

(٢) من نصوص التلمود.

(٣) الياهو بشباصي: شعار الخضر ص ١.

(٤) Laurance Browne :٨٦ From Babylon to Bethlehem p

(٥) Guignebert :١٦٧ The Jewish World in the Time of Jesus p

(٦) ١٨٩ lbid p

الذين ظهروا في فترة الأسر وبعده، ويتمسكون بشريعة الأنبياء الأولين، كما كانوا يتشددون دون في التنفيذ، ويتمسكون بالتقاليد. وكان الفريسيون ينعمون في بلاط أمراء المكابيين، وكان لهم نفوذ واسع في المجتمع اليهودي. وقد أدى اتساع هذا النفوذ إلى تخوف السلطات الحاكمة منهم، وإلى نظرها لتصرفاتهم في شيء غير قليل من الشك والشبهة، وكان ذلك بدء انشقاق بين السلطات الحاكمة وبينهم.

وفي عهد هر كاتوس (١٠٥ ق م) اشتد الخلاف بينه وبينهم، فانسحب الفريسيون من تأييد حكومته، ووضعوا أنفسهم في موضع المعارضة، فتخلى عنهم هر كاتوس وانضم إلى منافسيهم الصدوقيين الذين ظلوا على الولاء للحكومة (١)، ومنذ حصلت هذه القطيعة اتجه الفريسيون إلى العودة لفكرة المسيح الذي ينتظره اليهود كما ذكرنا آنفاً، وقد كان تحول السلطان عنهم نذيراً بتدهور أحوالهم، هذا بالإضافة إلى أنهم انحرفوا عن سنن أسلافهم، واستهوتهم الحياة الدنيا ببريقها، وأقبلوا على الشهوات يستسرون بها، وهم في عملهم يراءون الناس استدراجاً لهم ليقعوا في مخالبتهم، ويتزوا أموالهم، فكان ظهورهم بمظهر الزهد فخا نصبوه لصيد الدرهم والدينار (٢).

وقد صورهم كاتبوا الأناجيل في صورة معارضة للمسيح عيسى عليه السلام، ووضعوا في موضع معارض له (٣).

وتأثرت مكانتهم رويداً رويداً بهذه الأسباب فتخلى عنهم أكثر أتباعهم، وأصبح الانتساب إليهم عاراً، على أنه وجد من بين الباحثين اليهود في العصر الحديث من يدافع عنهم ليعيد لهم مكانتهم التي نعموا

(١) Ibid p ١٦٨.

(٢) سليمان مظهر - قصة العقائد ص ٣٦٩.

(٣) Guignebert The Jewish World in the Time of Jesus p ١٦٥

بها فترة من التاريخ، ومن هؤلاء (هو كسلى) الذي يقول: من غرائب
سخريات التاريخ إن لم تكن أغربها، أن كلمة فريسي أصبحت تدل على العار.
ويقول (هارفولد): كانت الفريسية سيئة الحظ في التاريخ، إذ
قلما وجدت المسيحية فرصة سانحة لمعرفة الفريسية على حقيقتها، بل قلما حاولت
أن تنتهز هذه الفرصة إذا سنحت، فهل بلغ الدين المسيحي مبلغا من الضعف،
يلجئه إلى الدفاع عن نفسه بتسويد صفحة أفضل منافسيه؟
ويقول القس (بو كس). لقد أسس الفريسيون نظام الفردية في الدين،
ووضعوا طفوسا روحية بحتة، وتعمقوا في الاعتقاد في الآخرة، ودافعوا عن
قضية العلمانية أمام الكهنوت المتطرف، وجعلوا الكتاب المقدس ملكا
مشاعا للجميع، وفي اجتماعات الكنيس الأسبوعية كانوا يلقون على الشعب
عظات بالغات، عن حقائق الدين وآماله، استنادا على نصوص التوراة...
وكافح الفريسيون كفاحا مستتبلا في سبيل وضع الحياة تدريجيا تحت
سلطة العقائد الدينية، فتأثرت قلوب الشعب بتعاليم الدين ونواهبه
بفضل ما بذله الفريسيون من العناية في سبيل تقويم العادات، وتطبيق
الطقوس الدينية تطبيقا دقيقا، لكن المظاهر الخارجية كانت دائما خاضعة
للعقائد الكامنة (١).

الصدوقيون:

يرى بعض الباحثين أن هذه التسمية نسبة إلى صادوق الكاهن الأعظم
في عهد سليمان، أو إلى كاهن آخر بهذا الاسم وجد في القرن الثالث
قبل الميلاد (٢) وينكر Guignebert هذه النسبة لأن حرف الدال مضعف

(١) من الفكر اليهودي ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) Laurance Browne :٨٥ From Babyion to Bethlehem p

في تسمية الفرقة وليس مضعفا في كلمة صادوق، ثم إن أتباع هذه الفرقة لم يدعوا قط الارتباط بهذا الكاهن أو ذاك، ويرى Guignebert أن هذه التسمية من صنع أعدائهم وأنها من نوع التسمية المضادة، لأن الصدوقيين عرفوا بالانكار فسماهم أعداؤهم (الصدوقيين) (١).

وهم ينكرون البعث والحياة الأخرى والحساب والجنة والنار ويرون أن جزاء الإنسان يتم في الدنيا، فالعمل الصالح ينتج الخير والبركة لصاحبه، والعمل السيئ يسبب لصاحبه الأزمات والمتاعب (٢).

وينكر الصدوقيون كذلك التعاليم الشفوية (التلمود) وحتى التوراة لا يرون أنها مقدسة قدسية مطلقة، وينكرون الخلود الفردي، كما ينكرون وجود الملائكة والشياطين، ولا يقولون بالقضاء والقدر ويؤمنون بحربة الاختيار، ويرون أن الأفعال مخلوقة للإنسان لا لله، وينكروه كذلك المسيح المنتظر ولا يترقبونه.

ولا يميل الصدوقيون للاشتراك في الحركات الثورية والآمال التي تتطلب عنفا وجهدا، ويميلون لاحترام القوانين الموجودة على أي حال، ما دامت الديانة اليهودية محترمة بوجه ما، فكانوا يكتفون من السلطات الحاكمة بالاعتراف بيهوه، وبامتيازاتهم الخاصة، ويرون أن من الحكمة قبول الأمر الواقع. وينحدر الصدوقيون من طبقة الارستقراط بيت المقدس الذين كانوا يمثلون الغني والدين والسلطة والمكانة في المجتمع اليهودي، ولذلك يعدهم الكتاب اليهود حزب المحافظين في الشعب اليهودي، ويرى Guignebert أنهم لا يكونون طائفة دينية بمقدار ما يكونون حزبا سياسيا (٣) ويسمئهم

(١) The Jewish World in the time of Jesus p ١٦٢

(٢) Laurance p ٨٥

(٣) The Jewish World in the Time of Jesus p - ١٦٣

حزب المحافظين لعدم اعترافهم بالتراث الشفوي (التلمود) ولأنهم يرون أن الزيادة في الاعتقاد أو العبادة أو التراث بدعة مرفوضة (١). ويقال إن عيسى عليه السلام كان على صلة طيبة بهم، لأنه هاجم الفريسيين وقبل سلطان قيصر الروم، على نحو ما فعل الصدوقيون، غير أن إنكارهم للبعث والدار الآخرة... كانت سببا في الخلاف بينهم وبين المسيح، وقد حاول عيسى ردهم إلى الاعتقاد السليم، ولكنهم لم يستجيبوا له، وقاوموا دعوته أكثر من سواهم (٢).

القراءون:

كان القراءون يمثلون القلة بين اليهود، فلما تدهور شأن الفريسيين، نما فريق القرائين وورث أتباع الفريسيين ونفوذهم. والقراءون لا يعترفون إلا بالعهد القديم كتابا مقدسا، وليست عندهم روايات شفوية كالتي قيل إن الحاخامات وتوارثوها الواحد بعد الآخر، وبالتالي لا يعترف القراءون بالتلمود.

ويقول القراءون بالاجتهاد فإذا تبين الخلف خطأ السلف كالخطأ الذي لاحظوه في المحرمات في الزواج، فإن للخلف تصحيح هذا الخطأ، ومن هذه الأخطاء التي لاحظها المتأخرون وصححوها، خطأ تحليل بنت امرأة الأب مع وضوح تحريمها بنص الآية الخامسة من آيات المحارم (٣).
السكنية:

تطلق هذه التسمية على مجموعة من اليهود، كانت مهمتهم كتابة الشريعة

(١) Margolis and Marx :١٥٩ A History of the Jewish people p

(٢) Passim, Laurance

(٣) الياهو بشياصي: شعار الخضر ص ١ - ٢ (مقدمة المترجم).

لمن يطلبها، فهم أشبه شئ بالنساخ، وعن طريق صلتهم بكتابة الشريعة، عرفوا بعض المعلومات من الكتب التي نسخوها، فاتخذوا الوعظ ووظيفة أخرى لهم بحوار كتابة الشريعة، وكان الوعظ وكتابة الشريعة وسيلتين اصطنعهما الكتبة لتصيد أموال الناس، وبخاصة عندما عم الفساد وانحرف الفريسيون (١). وكانوا يستون أحيانا بالحكماء السادة (Rabbis) كما كان الواحد منهم ينادى بلقب (أب) عند المخاطبة، وقد برز الكتبة كحملة للواء الشريعة عندما جذب النفوذ السياسي القسس إلى مجاله، فأصبح هؤلاء حلفاء للحكام الأجانب من فرس وإغريق ورومان وأخلوا المجال الديني للكتبة، فاحتلوه.

وجاءت خطوة ثانية رفعت من شأن الكتبة وأغلت عن قدرهم، هي أن كل واحد منهم عنى بإنشاء مدرسة أصبح هو راعيا لها ومعلما بها، وكان له مریدون يسمعون تعليماته ويذيعونها، ومن الناحية النظرية لم يكن يجوز لهذا المعلم أن يتقاضى أجرا من مریديه، وإن كانت الناحية النظرية كثيرا ما أهملت، وحصل الكتبة على ثراء كبير من مریديهم ومن وسائل أخرى (٢). المتعصبون:

فرقة أخرى من الفرق اليهودية خصص لها Guignebert حديثا، نورد فيما يلي ترجمة أبرز فقراته:
كان في فلسطين بين الفرق الأخرى فريق وثيق الصلة بالفريسيين، يتفق معهم في أكثر عقائدهم، كالقول بالمسيح المنتظر، وكالحماسة الوطنية

(١) Margolis and Marx :٢٥٨ A History of the Jewish people p
(٢) Geuignsbert :٦٧ The Jewish World in the Time of jesus pp - ٦٨

والميل للعبادة، ولكن هذا الفريق امتاز بعدم التسامح، بل بالعدوانية ضد المواطنين الذين اتهموا باللا دينية، أو بقبول الخضوع لغير الجوييم، وكان من سياسة هذا الفريق ألا ينتظر أتباعه العون من إلههم، بل أن يعملوا بأنفسهم ليساعدوا الإله على تحقيق ما يريده لشعبه، وكانوا بذلك يكونون الجناح اليساري في فريق الفريسيين، بيد أنهم كانوا في غاية الحماسة تجاه شغفهم بالحرية، ولم يعترفوا بأي سلطان عليهم سوى سلطان الله، وكان الموت عندهم أسهل من طاعة غير اليهود، ومن ثم أعلنوا احتقارهم لجماعة الفريسيين الذين قبلوا الأمر الواقع وخضعوا للرومان، وكانت الحركات الثورية التي قام بها المتعصبون في مطلع القرن الميلادي الأول سببا في الحدة بين اليهود وبين الرومان، مما دفع الرومان إلى أن يضربوا الثائرين ضربات قاصمة، وأن يذبحوا قادة الثورة، ولكن إخماد هذه الثورات لم يضع نهاية لحركات المتعصبين، فهبوا من جديد يدبرون ثورات أخرى ويجمعون لها الجموع، ولما أحس الرومان بذلك قضوا على السلطة المحلية التي كانوا قد منحوها لليهود، وحكموا مناطق اليهود بطريق مباشر، وكان ذلك باعثا لحماسة هذا الفريق ودافعا إلى خلق جو من الاضطراب والقلق في المناطق اليهودية، وفي هذا الجو بدأ المتعصبون حركات اغتيال وفوضى ضد الرومان وضد اليهود الذين كانوا يتعاونون مع الحكم الروماني، وبلغ من حماستهم أنهم كانوا يرتكبون جرائمهم علنا في الطرقات، ويغتالون دون تردد كل من يرون أن الفضاء عليه سيحقق لهم هدفهم (١)، وبهذا أطلق عليهم (السفاكون) *Assassius* كما لجئوا إلى النهب واللصوصية والفتك، وأوقعوا بالبوليس الروماني ألوانا من العنت، ومن أجل هذا يعد الباحثون هذا الفريق ضمن الفرق السياسية، أو فرق العصابات، مع أنهم بدءوا حركتهم في إطار ديني، ولهدف ديني، ولكن جرائمهم الكبرى نقلتهم من ميدان إلى ميدان (٢).

(١) من أحفادهم قتله برنادوت وكنيدي.

(٢) ١٧٠ - ١٦٩ The Jewish World in the time of Jesus pp

الباب الرابع
مصادر الفكر اليهودي

تقديم:

كان التخطيط الأول لهذا الكتاب أن يكون به مبحث عن (العهد القديم) يناظر المبحث الذي ورد بكتاب (المسيحية) عن (العهد الجديد) ولكن المراجع سرعان ما قررت أن (العهد القديم) ليس الكتاب المقدس الوحيد لدى اليهود، وأن هناك مصادر أخرى يلتزم اليهود بتقديسها ولا تقل أهمية عن (العهد القديم). ومن أجل هذا تغير عنوان هذا الباب فأصبح (مصادر الفكر اليهودي) حيث سيشمل البحث الكلام عن أهم المصادر التي يضيفي اليهود عليها القداسة ويستمدون منها التوجيه، وهذه المصادر التي يضيفي اليهود عليها القداسة ويستمدون منها التوجيه، وهذه المصادر هي:

١ - العهد القديم.

٢ - التلمود.

٣ - بروتوكولات حكماء صهيون.

وفيما يلي حديث عن كل منها:

العهد القديم

تعريف بالعهد القديم:

العهد القديم هو التسمية العلمية لأسفار اليهود، وليست التوراة إلا جزءاً من العهد القديم كما سيتضح فيما بعد، وقد تطلق (التوراة) على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى، لأنه أبرز زعماء بني إسرائيل، وعنده يبدأ تاريخهم الحقيقي، وكلمة توراة معناها الشريعة أو التعاليم الدينية.

والعهد القديم مقدس لدى اليهود ولدى المسيحيين، ولكن أسفاره غير متفق عليها، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفارا لا يقبلها أحبار آخرون، فإذا جئنا إلى المسيحيين وجدنا النسخة الكاثوليكية تزيد سبعة أسفار عن النسخة البروتستانتية، وتقسم أسفار العهد القديم التي يعترف بها البروتستانت ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول (التوراة) ويشمل أسفارا خمسة هي: التكوين - الخروج - اللاويون (الأحبار) - العدد - التثنية، وتلك هي التي يطلق عليها أسفار موسى أو يطلق عليها التوراة كما ذكرنا.

القسم الثاني (أسفار الأنبياء) وهي نوعان:

١ - أسفار الأنبياء المتقدمين وتشمل الأسفار الآتية، يشوع (يوشع ابن نون) - قضاة - صموئيل الأول - صموئيل الثاني - الملوك الأول - الملوك الثاني.

٢ - أسفار الأنبياء المتأخرين وتشمل الأسفار الآتية: أشعيا - إرميا - حزقيال - هوزع - يوئيل - عاموس - عوبديا - يونا

- (يونس) - ميخا - ناحوم - حبقوق - صفتيا - حجي - زكريا - ملاخي .
القسم الثالث (الكنيات) وهذا القسم ينشعب إلى أنواع ثلاثة:
١ - الكتب العظيمة: وتشمل الأسفار الآتية: المزامير (الزبور)
الأمثال (أمثال سليمان) - أيوب .
٢ - المجالات الخمس: - تشمل الأسفار الآتية: نشيد الأناشيد - راعوث
المراثي (مراثي إرميا) - الجامعة - أستير .
٣ - الكتب: ويشمل الأسفار الآتية: دانيال - عزرا - نحميا - أخبار
الأيام الأول - أخبار الأيام الثاني .
ومجموع هذه الأسفار تسع وثلاثون سفرا وهي الأسفار التي تعتمدها الكنيسة
البروتستانتية، أما الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة أسفار أخرى
هي: طوبيا - يهوديت - الحكمة - يسوع بن سيراخ - باروخ - المكابيين
الأول - المكابيين الثاني، كما تجعل أسفار الملوك أربعة وأولها وثانيها بدلا من
سفري صموئيل الأول والثاني، وبعض رجال اللاهوت من اليهود لا يوافقون
على ضم سفري الجامعة ونشيد الأناشيد لأسفار العهد القديم، وطائفة
السامريين (١) لا يؤمنون إلا بأسفار موسى الخمسة، ولا يرون غيرها كتابا
مقدسا، ويضيف بعض السامريين سفري يوشع والقضاة لأسفار موسى ويرون
في هذه الأسفار السبعة كتابهم المقدس .
وللمسيحيين الكاثوليك تقسيم آخر لأسفار العهد القديم، فهم يرون أن
الأسفار الستة والأربعين تتدرج تحت خمسة أقسام كبرى هي:
١ - أسفار موسى الخمسة التي تتضمن شريعته .
٢ - أسفار تاريخية وعددها ١٦ وهي - يشوع - القضاة - راعوث - الملوك
الأول والثاني والثالث والرابع - أخبار الأيام الأول - أخبار الأيام الثاني -

(١) السامريون طائفة من المتهودين أي الذين دخلوا اليهودية من غير بني إسرائيل .

- عزرا - نحميا - طوبيا - أستير - يهوديت - الكايون الأول والثاني.
- ٣ - أسفار شعرية - وعددها ستة وهي: أيوب - المزمير - أسفار سليمان الثلاثة: الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد - مرثي إرميا.
- ٤ - أسفار نبوية وعددها ١٧ وهي: أشعيا - إرميا - باروخ - حزقيال - دانيال - هوشع - يوئيل - عاموس - عوبديا - يونا - ميخا - ناحوم - حبقوق - صفنيا - حجي - زكريا - ملاخي.
- ٥ - أسفار تعليمية وعددها اثنان هما: سفر الحكمة - يسوع ابن سيراخ (١). وهناك سفر أن لا يبدو لهما صلة ببني إسرائيل، وهما سفر أيوب وسفر يونا، فأيوب من بني عيسو وليس من أبناء إسرائيل كما يظهر من نصوصه، ويونا تفيد عباراته أنه نبي مرسل إلى نينوى لا إلى بني إسرائيل، ومحتويات السفرين قريبة من المحتويات التي أشار لها القرآن الكريم.
- ومن الأسفار ما هو طويل كثير الأصحاحات كسفر المزمير الذي يصل إلى مائة وخمسين زمورا، وأشعيا الذي يحوي ستة وستين إصحاحا، وأرميا وهو يتكون من اثنين وخمسين إصحاحا، والتكوين وبه خمسون إصحاحا، ومنها ما هو قصير كسفر عوبديا وبه إصحاح واحد، وحجي وبه إصحاحان، وصفنيا وحبقوق وناحوم وكل منها يتكون من ثلاثة إصحاحات.
- والعهد القديم على العموم سجل فيه شعر ونثر، وحكم وأمثال، وقصص وأساطير، وفلسفة وتشريع، وغزل وثناء مع بلاغة أسلوب وفصاحة عبارات في كثير من الحالات.

(١) زكي شنودة: تاريخ الأقباط ص ٩١ - ٩٢.

تعريف بالأسفار

بعد هذه الجولة السريعة حول الكتاب المقدس كجملة، يجدر بنا أن نعرف بأسفاره مفصلة، وسنسير على ذلك متتبعين نظام النسخة البروتستانتية فإذا انتهينا من التعريف بأسفارها، رحنا نعرف بالأسفار الزائدة التي أوردتها النسخة الكاثوليكية:

أسفار التوراة:

أول ما يعيننا في بحثنا أسفار موسى الخمسة، والسفر الأول هو سفر الخلق (Genesis) أو التكوين كما يسمى في اللغة العربية وسمي بهذا الاسم لاشتماله على قصة خلق العالم، وخلق الإنسان الأول: ويشمل السفر - بالإضافة إلى هذا - قصة الخطيئة التي ارتكبها أبو البشر، ونزوله إلى الأرض عقاباً له ثم حياة أولاده وما جرى بينهم، فقصة الطوفان ونشأة الشعوب بعده، فقصة إبراهيم وتجواله ونسله إلى إسحق ويعقوب وأولاد يعقوب وبخاصة يوسف، وما جرى له إلى أن أصبح ذا شأن كبير بمصر واستدعى إليه أباه وإخوته، وبموت يوسف ينتهي هذا السفر.

والسفر الثاني هو سفر الخروج ويسمى باليونانية واللاتينية (Exodus) أي خروج، وسمي بذلك لتناوله خروج بني إسرائيل من مصر ويحوي هذا السفر قصة بني إسرائيل بعد يوسف، وما عانوه من الفراعنة، وظهور موسى وخروجه بهم من مصر، ويستمر هذا السفر في قص تاريخ بني إسرائيل حتى يصل بهم إلى شرق الأردن، وفي هذا السفر الوصايا العشر التي أعطها الله لموسى وبه كذلك كثير من المسائل التشريعية والتعاليم الدينية الخاصة بيهوه إله بني إسرائيل، ومنها وصف خيمة الاجتماع وتابوت العهد، وما حدث من بني إسرائيل في غيبة موسى.

والسفر الثالث اللاويون أو الأحبار، ويسمى في اللاتينية (Leviticus) أي لاويون نسبة إلى أسرة لاوي أوليفي، ويحتوي هذا السفر كثيرا من التشريعات والوصايا والأحكام، مثل كفارات الذنوب، والأطعمة المحرمة، والأنكحة المحرمة، ومثل الطقوس والأعياد والندور والطهارة، كما يحتوي كثيرا من الأمور المتصلة بالعادات والأوامر الدينية التي يستحق من اتبعها الثواب ومن خالفها العقاب.

والسفر الرابع سفر العدد (Numeri) وسمي بذلك لأنه حافل بالعد والتقسيم لأسباط بني إسرائيل، وبه ترتيب ل منازلهم حسب أسباطهم وإحصاء للذكور منهم، وبجوار هذا العد، يحتوي هذا السفر على سيرة بني إسرائيل في برية سيناء وما بعدها، فهو بذلك استمرار لما ورد في سفر الخروج، وفيه كثير من التنظيمات والتعاليم الطقسية والكهنوتية والاجتماعية والمدنية، وبه كذلك حديث عن حروب بني إسرائيل ضد المدنيين، وفي الأصحاح الثاني عشر من هذا السفر ثورة وسخط يبدوان من هارون ومريم أخوي موسى ضده، لأن موسى تزوج امرأة كوشية. ويقول هارون ومريم فيما رواه هذا الأصحاح، هل كلم الرب موسى وحده، ألم يكلمنا نحن أيضا (١)؟ ويغضب الرب على هارون ومريم وتصاب مريم بالبرص، ويعلق الأستاذ محمد عزة دروزة على هذا التذمر بقوله: وهكذا لم ينج أخو موسى وأخته من خلق التذمر والحسد والأنانية (٢). ويحكى الأصحاح السادس عشر قصة ثورة قادها شخص من اللاويين اسمه قورح ضد موسى وهارون، وفي هذه الثورة صاح قورح قائلاً: كفاكما، إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب، فما بالكما ترتفعان عن جماعة الرب (٣)، وانضم إلى قورح ثوار

(١) الأصحاح الثاني عشر: الفقرة الثانية.

(٢) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ج ٢ ص ٩٩.

(٣) الأصحاح السادس عشر الفقرة الثالثة.

آخرون وصاحوا بموسى قائلين: أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا
وعسلا لتميتنا في البرية حتى تترأس علينا أيضا ترأسا (١).
والسفر الخامس سفر التثنية أو تثنية الشريعة ومعناه الإعادة والتكرار
لتثبيت التشريعات والتعاليم، ويسمى في اللاتينية (Deuteronomium)
أي الإعادة وفي هذا السفر عرضت الوصايا العشر عرضا جديدا، كما أعيد
الكلام عن الأطعمة الحلال والحرام، وعن نظام القضاء والملك عند بني
إسرائيل، وتحدث هذا السفر عن الكهنة والنبوة، كما تحدث عن انتخاب
يشوع بن نون خلفا لموسى، وينتهي السفر بخبر وفاة موسى ودفنه في جبال مؤاب.

وبعد الحديث عن أسفار موسى الخمسة نتناول بإيجاز الأسفار الأخرى
من العهد القديم:

يسوع:

ينسب هذا السفر إلى يشوع بن نون وكان يشتغل في أول حياته
خادما لموسى وكان اسمه آنذاك هوشع فدعاه موسى يشوع، وكان
موسى قد عرف فيه الاخلاص والكفاءة فاستخلفه، وينص هذا السفر
على أن يشوع اصطنع مختلف الحيل لينتصر في حربه ضد سكان البلاد
الأصليين وليدخل فلسطين، ومن حيله التي ذكرها هذا السفر التجسس،
وقد شغلت الأصحاحات الأولى من هذا السفر بأخبار التجسس والغزو،
أما الأصحاحات الأخيرة منه فتتحدث عن تنظيم البلاد المفتوحة وتوزيعها
على الأسباط واستيطانها، وفي الأصحاح الرابع والعشرين وهو الأصحاح
الأخير من هذا السفر حديث عن موت يشوع ودفنه في جبل أفرام،

(١) نفس الأصحاح الفقرة ١٣.

وحديث كذلك عن عظام يوسف التي أضعدها بنو إسرائيل من مصر حيث أعيد دفنها كما يقول الأصحاح في شكيم (نابلس).
القضاة:

كان رؤساء بني إسرائيل في الفترة التي تبدأ من يشوع إلى صموئيل يسمون القضاة، ومن هنا اتخذ هذا السفر اسمه منسوبا إليهم، ويتحدث هذا السفر عن بعض القضاة العظام مثل عثنائيل وأهوز وباراق ودبوره وجدعون ويفتاح وشمشون صاحب القصة الشهيرة مع دليله (١)، كما تحدث هذا السفر عن قضاة صغار لم يكن لهم تأثير يذكر في حياة بني إسرائيل، ويتحدث هذا السفر عن شغب بني إسرائيل على يهوه، وعبادتهم آلهة أخرى من الحجارة والأشجار، ويبين كيف انتقم الله منهم فسلط عليهم أعداءهم وأنزل كثيرا من النوائب بهم، وآل أمر القضاء إلى صموئيل، فلما شاخ جعل بنيه قضاة ولكنهم أخذوا الرشوة وظلموا في القضاء، فطلب شيوخ بني إسرائيل من صموئيل أن يعين لهم ملكا، ففعل وبدأ عهد الملك في بني إسرائيل.
راعوث:

لعله كان من الطبيعي أن ترد الأسفار التي تحدثت عن الملوك بعد سفر القضاة، ولكن لما كان داود أشهر هؤلاء الملوك، فقد أورد كاتبوا العهد القديم سفر راعوث كتمهيد لأسفار الملوك، لأن سفر راعوث يبين لنا نسب داود، واسم السفر مقتبس من اسم امرأة مؤابية، وخلاصة ما في هذا السفر أن مجاعة نزلت بيت لحم فهاجر منها إسرائيلي اسمه (أليمالك) ومعه زوجته (نعمى) وابناه (محاون و كليون)

(١) اقرأ قصته في الأصحاح الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر.

ونزلوا بأرض مؤاب، وهناك تزوج الابنان امرأتين مؤابيتين اسم أحدهما (عرفه) والأخرى (راعوث) ثم مات الرجال الثلاثة وأرادت نعمى العودة إلى بيت لحم فأصرت راعوث على أن تصحبها، وفي بيت لحم تزوجت راعوث من رجل يهودي اسمه بوعز، وأعقبت منه عوبيد جد داود.

وفي السفر بالإضافة إلى هذه القصة وصف للحياة القروية حيث اتصلت راعوث ببوعز في مزارعه بالريف، وهذا السفر من الأسفار التي لقيت عناية كبيرة من الغربيين واهتم به كثير من الأساتذة والقصصيين والكتاب والشعراء. أسفار الملوك الأربعة:

تشمل هذه الأسفار ما سمته الكنيسة البروتستانتية صموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني، وتحدث هذه الأسفار عن سيرة شاول أول ملوك بني إسرائيل، وأشبوشب ابنه، وداود، وأبشالوم بن داود نائرا في حياة أبيه، ثم في حياة سليمان بن داود بعد أبيه، كما تتحدث عن ملوك الدور الثاني بعد انقسام دولة بني إسرائيل، وفي هذه الأسفار حديث فياض عن الخلاف بين شاول وداود، ثم عن هرب داود، وهزيمة شاول، وانتقال الأمر إلى داود الذي احتل عاصمة شاول وهي حبرون (الخليل)، ثم استيلاء داود على أورشليم التي أصبحت تسمى مدينة داود، وفيها كذلك حديث اتصال داود بزوجة أوريا، وعن الخلافات التي دبت ضد داود في أواخر أيامه، ثم عن سليمان وتغلبه على الأحداث في مطلع عهده، وبنائه الهيكل، وصلته بملكة سبأ، وقصص حريمه اللاتي استملن قلبه إلى آلهتهن، ثم حديث عن نهاية سليمان، وما تلا ذلك من انقسام دولة اليهود إلى مملكتين، وحروب واسعة النطاق بينهما، أو بين كل من دولتي اليهود من جهة وبين الممالك المجاورة في الشمال أو الجنوب من جهة أخرى.

أخبار الأيام الأول والثاني:
يلاحظ من يطالع العهد القديم أن سفر أخبار الأيام الثاني ينتهي بالعبارة الآتية: (وفي السنة الأولى لقورش ملك فارس، لأجل تكميل كلام الرب بقم إرميا، نبه الرب روح قورش ملك فارس، فأطلق نداء في كل مملكته وبالكتابة أيضا، قائلا: هكذا قال قورش ملك فارس، إن الرب إله السماء قد أعطاني جميع ممالك الأرض، وهو أوصاني أن أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا، من منكم من جميع شعبه ليكن إلهه معه ويصعد) وهذه العبارة نفسها هي التي يبدأ بها - بتغيير طفيف أحيانا - سفر عزرا الذي يتلو سفر أخبار الأيام الثاني، وقد دعت هذه المسألة بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن سفر أخبار الأيام الأول والثاني كانا في الأصل يكونان مع سفر عزرا كتابا واحدا في التاريخ.

وسفر الأخبار يحويان محتويات لا تختلف كثيرا عن المحتويات التي وردت في أسفار موسى، وفي أسفار الملوك، ففي سفر الأخبار الأول حديث عن آدم وأولاده، وعن الملوك الذين ملكوا أرض إدوم قبل بني إسرائيل، ويبدأ الأصحاح الثاني عدا لبني إسرائيل من الجداد إلى الأحفاد بتفاصيل واسعة حتى عهد داود وسليمان، وابتداء من الأصحاح العاشر يتكلم السفر عن ملوك بني إسرائيل بعد الانقسام حتى السبي وعلى العموم فإن هذين السفرين اقتبسا أكثر ما بهما من مادة من الأسفار التي أوردنا الحديث عنها من قبل. عزرا ونحميا:

ينسب سفر عزرا إلى عزرا الكاهن، ويبدو أنه عزيز الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، ويقص هذا السفر قصة عودة بعض المسيبيين

من بابل إلى أورشليم، ثم يجيء - في بعض النسخ - سفر يحمل الاسمين معا (عزرا - نحemia)، ويلى ذلك سفر نحemia، ولو تتبعنا الأحداث التاريخية لكان سفر نحemia جديرا بالتقدم على سفر عزرا، لأن نحemia سبق عزرا في الحضور إلى أورشليم، ولكن يبدو أن شخصا واحدا هو الذي ألف سفر أخبار الأيام بقسميه وكذلك الأسفار المنسوبة لعزرا ونحemia، وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠ ق م أي بعد عزرا ونحemia بأكثر من قرنين، وذلك على الرغم من أن في سفر نحemia عبارات كثيرة يتحدث فيها الكاتب عن نفسه متقمصا شخصية نحemia، وقد تقدم سفر عزرا لأهمية هذا الكاهن في التاريخ اليهودي، ولأنه بعد أن حضر سبق نحemia في المكانة، وكان له قصب السبق في إعادة بناء الهيكل.

وقد تمكن بكائه وحسن سياسته من أن يؤثر على ملك الفرس فأذن له بالذهاب إلى أورشليم، لإعادة أسوارها وبناء أبوابها وتشيد قلاعها، وقد تمكن نحemia من إعادة بناء السور، ثم جاء عزرا ومعه ألف وثمانمائة شخص إلى أورشليم، وكان من بينهم رجال المعبد لإعادة شريعة يهوه، وأصبح عزرا نائبا عن الملك، يعين الموظفين ويوقع عليهم العقوبات، وهكذا قام عزرا بحركة إصلاح ديني في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت حركة معززة بالسلطة الحكومية التي كان يمثلها عزرا في نفس الوقت، ويحوي السفر قانونا، يفرض على الشعب الطاعة العمياء لعزرا، لأنه يؤيد شريعة موسى، كما يسرد السفر أعمال الإصلاح الدينية والاجتماعية التي تنسب إليه، ويعد سفرا أخبار الأيام وأسفار عزرا ونحemia سلسلة متكاملة مستقلة تشمل تاريخ العالم من آدم إلى عزرا، حتى ليتمكن بها الاستغناء عن باقي الأسفار التاريخية مع شيء من الاختصار، وأسفار عزرا ونحemia هي أقدم الأسفار التي تتحدث عن اليهود بعد المنفى.

أستير:

سمي هذا السفر باسم امرأة يهودية جميلة اسمها أستير، رآها ملك الفرس واتخذها له زوجة، وقد استطاعت أن تقرب بين الملك وزوجها وبين ابن عم لها اسمه مردخاي، وكان للملك وزير اسمه هامان كان الفرس يسجدون له ويعظمونه، ولكن مردخاي - اعتمادا على ابنة عمه الملكة - رفض أن يسجد مع الساجدين، وأخذ هامان لذلك يدبر مؤامرة للقضاء على اليهود، فاستصدر من الملك قرارا بالتنكيل بهم لأنهم خونة، وعين يوم الثالث عشر من آزار للقضاء عليهم وأعد مشنقة خاصة لمردخاي، ولكن أستير وابن عمها استطاعا أن يرسمها خطة يظهران بها للملك خيانة ضده يدبرها له هامان، فأصدر الملك أمره بقتل هامان وأتباعه، وقتل هامان على المشنقة التي كان قد أعدها لمردخاي، وبلغ عدد من قتلهم اليهود في اليوم الثالث عشر من آزار خمسة وسبعين ألفا من الفرس، وصار اليوم التالي (الرابع عشر من آزار) عيدا من أعياد اليهود حتى اليوم، وليست أستير قصة تاريخية، وإنما هي أسطورة يرسم بها مؤلفها الطريق للنساء الإسرائيليات أن يتخذن من جمالهن وسيلة لخدمة بني إسرائيل، وخدمة أغراضهم.

أيوب:

قلنا فيما سبق أن قصة أيوب الواردة في العهد القديم فيها عناصر قصة أيوب التي أوردتها القرآن الكريم، ولكن العهد القديم يصور أيوب حائرا بين الرضا والثورة، فهو أحيانا يرضى بما نزل به، وأحيانا يثور ويتساءل: لماذا نزل بي كل هذا؟ فأيوب مؤمن بالله راض بما قسم له، ولكن كان هناك - على حد تعبير السفر - رهان بين الله وبين الشيطان. ويحاول الشيطان أن يثير التساؤل والسخط في نفس أيوب، وينتصر الشيطان

أحيانا بعض الانتصار فيصرخ أيوب (اليوم أيضا شكواي تمرد!! ضربتي أثقل من تنهدى، من يعطيني أن أجده، فأحى إلى كرسيه أحسن الدعوى أمامه وأملاً فمي حججا، فأعرف الأقوال التي بها يحييني، وأفهم ما يقوله لي، أبكثرة قوة يخاصمني. كلا (١)... كم لي من الآثام والخطايا؟ أعلمني ذنبي وخطيتي، لماذا تحجب وجهك وتحسبني عدوا لك؟ أترعب ورقة مندفعة؟ وتطارد قشا يابسا؟ لأنك كتبت على أمورا مرة، وورثني آثام صباي (٢).

ويعتبر الدارسون الغربيون سفر أيوب من أمتع الأسفار من الناحية الفلسفية والأدبية، ويقول عنه كارليل: هو كتاب نبيل، وهو كتاب الناس أجمعين، وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التي لا آخر لها، مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهره هذه الأرض (٣). ويعلق ول ديورانت على ما قاله كارليل بقوله: إن هذه المشكلة قامت بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا، ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها في الديانة اليهودية القديمة، فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها في هذا العالم، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق، ولكنهم كثيرا ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون، وأن أشد الآلام قد نزلت بخيار الناس، فلم إذا - كما يقول كاتب المزامير - هؤلاء هم الأشرار يكثرون ثروة (٤) ولم يخفي الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار (٥).

(١) الأصحاح ٢٣: ١ - ٦.

(٢) الأصحاح ١٣: ٢٣ - ٢٦.

(٣) Heroes and Hero, Carlyle / ٢٨٠. Worship p

(٤) المزمور ٧٣: ١٢.

(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٦١.

المزامير:

سمي السفر بذلك الاسم لأنه يحوي مجموعة من الأغاني تنشُد بمصاحبة المزامير، فهذا السفر يناظر ما يعرف في العربية بالتهاليل والتواشيح والتسابيح، وبعض المزامير طقوس دينية، وبعضها يتصل بالأعياد الإسرائيلية، وأكثر المزامير ترجع لداود، فله وحده ثلاث وسبعون مزمورا، وبالسفر مزامير أخرى سليمان وآساف الذي كان رئيس المغنين في عهد داود، وتنسب بعض المزامير لموسى، وفيما يلي مزبور منسوب إلى داود، ووضعه في الكتاب المقدس هكذا:

المزمور الخامس

لإمام المغنين على ذوات النفخ، مزمور لداود
لكلماتي أصغ يا رب. تأمل صراخي استمع لصوتي ودعائي يا ملكي وإلهي
لأنني إليك أصلي يا رب، بالغداة تسمع صوتي، بالغداة أوجه صلاتي
نحوك وأنتظر.

لأنك لست إليها يسر بالشر، لا يساكنك الشرير، لا يقف المفتخون
قدام عينيك، أبغضت كل فاعلي الإثم، رجل الدماء والغش يكرهه الرب،
أما أنا فبكثره رحمتك أدخل بيتك، أسجد في هيكل قدسك بخوفك.
يا رب اهدني إلى برك بسبب أعدائي. سهل قدامي طريقك. لأنه
ليس في أفواههم صدق. جوفهم هوة. حلقهم قبر مفتوح. ألسنتهم
صقلوها. أذنهم يا الله. ليستقوا من مؤامراتهم بكثرة ذنوبهم، طوح
بهم لأنهم تمردوا عليك.

ويفرح جميع المتكلمين عليك. إلى الأبد يهتفون وتظللهم. ويبتهج
بك محبو اسمك لأنك أنت تبارك الصديق يا رب. كأنه بترس
تحيطه بالرضا.

أسفار سليمان (الأمثال - الجامعة - نشيد الأناشيد):
تنسب هذه الأسفار إلى سليمان، وليست في الحقيقة إليه، فسفر الأمثال
يحتوي مجموعة من الأمثال لا تربط بينها رابطة، وليس في أسلوبها وحدة
أو تناسق، فالسفر - فيما نعتقد - ليس من فعل شخص واحد، ولا نتاج
عصر واحد، وإنما هو من الآداب الشعبية التي تتناقلها الأجيال وتدخل
عليها كثيرا من الزيادة والنقصان.

وكما تعدد الأشخاص الذين ألفوا هذه الأمثال، فإن موضوعاتها متعددة
أيضا، فمنها أمثال دينية، ومنها أمثال دنيوية، ومنها أمثال للتحذير والانداز،
ومنها أغاز وهجاء.

وبعض الأمثال ترد باسم سليمان كنصائح يوجهها لولده، وبعضها تنسب
لسليمان أيضا ولكنها عامة ليست موجهة إلى أحد، وبعضها تنسب إلى حكماء،
حددت أسماءهم أو لم تحدد، وممن حددت أسماءهم (أجور بن ياقنة) وبعض
هؤلاء يوجهون الأمثال نصائح لأولادهم وبعضهم يطلقونها إطلاقا، وبعض
الأمثال تتصل بالملك (لموئيل)، وهي عبارة عن نصائح أمه له لما صار ملكا،
ويختتم السفر بمدح للزوجة الصالحة، فهو يصفها بأنها (تفوق اللألى، بها يثق
قلب زوجها، فلا يحتاج إلى غنيمة، تصنع له خيرا لا شرا كل أيام حياتها،
تفتح فمها بالحكمة، وفي لسانها سنة المعروف، تراقب طرق أهل بيتها،
ولا تأكل خبز الكسل... الحسن غش والجمال باطل أما المرأة المتقية
الرب فهي تمدح) (١).

أما سفر الجامعة فهو أيضا نوع من الشعر الذي يطلق عليه شعر
الحكمة، وهو قريب الشبه بالاصحاحات الأولى من سفر الأمثال، حيث

(١) أنظر الأصحاح ٣١.

يتحدث حكيم له خبرة ومعرفة يسميه السفر (الجامعة) (١)، وقد يتشاءم أحيانا ويتشكك فيما حوله فيتكلم بعبارات الشك والالحاد والزندقة، مثل (قد يكون بار يبيد في بره، وقد يكون شرير يطول في شره، لا تكن باراً وتكن حكيماً بزيادة، لماذا تخرب نفسك؟ لماذا تموت في غير وقتك؟ حسن أن تتمسك بهذا وألا ترخي يدك عن ذلك، لأن متقي الله يخرج منهما كليهما (٢)).

أما سفر نشيد الأناشيد فهو عبارة عن موضوع غرامي أو هو غزل بين يهوه وبين إسرائيل يرتله اليهود حتى اليوم في عيد الفصح، وقد قبل في الكتاب المقدس لأن فيه اسم سليمان، والحقيقة أنه ليس له، فهو أغان شعبية من وضع الشعب ويرددها الشعب في عصور متعددة في مناسبات الزواج والزفاف. أسفار الأنبياء:

وهي في النسخة الكاثوليكية ستة عشر سفراً، وتكاد تكون محتويات هذه الأسفار متشابهة، فهي أحيانا مهاجمة لسلوك بني إسرائيل ولمعبوداتهم التي مالوا إليها دون يهوه، وهي أحيانا تهديد لهم بالشر نظير سوء سلوكهم، وبعضها يتنبأ بسقوط دولتهم، وبعضها يحث على الخضوع للسلطات الخارجية، وبعضها يتكلم عن المسيح المنتظر، وهكذا، وترد الفكرة مع أكثر من نبي أحيانا، وليست نسبة هذه الأسفار للأنبياء دقيقة، وليس وضع الأنبياء في الكتاب المقدس مسلسلاً تسلسلاً تاريخياً، فعاموس الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد يجرى بعد أرميا الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد. وسفر عوبديا يصور رؤيا تلقي هذا فيها خطاباً من الرب يندد بإبادة كل رجل في جبل عيسو لأن أبناء عيسو جاروا على أبناء يعقوب، وسفر حبقوق عبارة عن وحي تلقاه

(١) الأصحاح ١٢: ٩. (٢) الأصحاح السابع: ١٥ - ١٨.

هذا النبي ومناجاة لربه، وفيما يلي فقرات من الأصحاح الأول تشير إلى ما ذكرنا (الوحي رآه حبقوق النبي - حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع، أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلص (١)...). وفي سفر حجبي، ما يدل على أن (الرب كلف حجبي ليكلم حاكم يهوذا وكاهنها الأكبر منددا ببقاء بيته خرابا، وبقولهم إنه لم يحن وقت بنائه بينما هم يسكنون في بيوت مغشاة) (٢). وقد سبق لنا الحديث عن أكثر هؤلاء الأنبياء وكان ظهورهم في فترة الانقسام، فالسبي، فما بعد السبي.

المراثي:

يرد سفر المراثي بعد سفر أرميا ومنسوبا له، وفيه يبكي أرميا حالة يهوذا وأورشليم، وما نزل ببني إسرائيل من انحرافات، والمصير السيئ الذي آلت له دولتهم، ومما جاء في هذا السفر (ابتلع السيد - ولم يشفق - كل مساكن يعقوب، نقض بسخطه حصون بنت يهوذا، نجس المملكة ورؤساءها، وأشعل في يعقوب نارا ملتهبة تأكل من حولها، مدقوسه كعدو، نصب يمينه كمبغض، وقتل كل مشتهيات العين في خباء بنت صهيون، سكب كنار غيظه، وصار السيد كعدو ابتلع إسرائيل...) (٣)

الأسفار الزائدة بالنسخة الكاثوليكية

اعترفت الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٤٦ م بأسفار لم تكن معترفا بها قبل ذلك التاريخ، أهمها الأسفار السبعة التي أشرنا لها من قبل والتي سنورد عنها بعض التفاصيل فيما بعد، ويجدر بنا أن نوضح أن هذه الأسفار وضعت بعد الزمن الذي اتفق على أنه عصر العهد القديم، فليس

(١) الأصحاح الأول: ١ - ٢.

(٢) الفقرات الأولى من الأصحاح الأول.

(٣) الأصحاح الثاني ٢ - ٥.

رفضها من بعض الكنائس لأنها أقل من سواها، بل لأنها وضعت بعد (عصر العهد القديم) وبعضها كبير الأهمية لأنه يحمل دراسة تاريخية كسفري المكابيين، وبعضها أساطير يهودية كيهوديت التي لا تقل عن أسطورة أستير، وفيما يلي تعريف بهذه الأسفار:
طوبيا:

أسطورة طوبيا كما وردت في العهد القديم تتلخص في أن رجلا اسمه طوبيا كان أسيرا في نينوى وفقد بصره هناك، وكان له ابن اسمه طوبيا أيضا، وفي مدين كانت هناك امرأة جميلة اسمها سارا، كان يعشقها عفريت يقتل كل من يتقدم للزواج منها، حتى قتل سبعة من خطابها، ثم أرسل الرب رسولا إلى طوبيا الأب أن يزوج ابنه من سارا، وأعلمه أنه سيقضي على العفريت، ورحل طوبيا الابن إلى نينوى وتم الزواج، وفي السفر وصف لحفلة الزفاف، وبه كذلك خطب وصلوات ونبوءات.
يهوديت:

تشبه أسطورة يهوديت أسطورة أستير التي تحدثنا عنها، من قبل وتتلخص في أن نبوخذنصر ملك آشور هاجم اليهود واستولى على المنابع التي تمد مدنها بالماء، وبدا أنه سيقضي عليهم، وأوشكوا على الاستسلام، لولا أن أرملة يهودية جميلة واسعة الحيلة اسمها يهوديت اتصلت بقائد نبوخذنصر، وفتنته بجمالها فأغرم بها واستسلم لها، وفي إحدى الليالي انتهزت يهوديت فرصة فقده وعيه بسبب كثرة ما شرب من خمر فقطعت رأسه، ونجت قومها منه.
وليس هذا السفر تاريخيا، وإنما هو أسطورة تصور آمال بني إسرائيل، واتجاه حيلهم.

الحكمة

ينسب هذا السفر إلى سليمان، وهو في الحقيقة ليس له ويتجه مؤلف السفر إلى ملوك الأرض والجبابة بها بألا يغتروا بمكانتهم وأن يراعوا العدالة مع من يحكمون، فالحكمة لا تأوى إلى جسد المذنب، كما يتحدث السفر عن أثر الحكمة في الأحداث التاريخية منذ آدم حتى موسى.

يسوع بن سبراخ:

تنسب ليسوع أمثال كتلك التي تنسب لسليمان، ويسوع هذا رجل يهودي من أورشليم كثير التجول والترحال، له أسلوب رائع يصوغ به أفكاره عن الحكمة والرشد، ويقرر يسوع أن مصدر الحكمة هو الله، وأن الله يمنحها لبعض أحبائه، وفي السفر تعاليم أخلاقية وصور من السلوك، وهو ينصح من يريد الكلام أن يستعد له، ويرى من الحكمة ألا يستشير الإنسان حسوداً، وألا يعطي الجسد ما يضره.

باروخ:

باروخ تلميذ إرميا، وقد اختفى معه في الصحراء هرباً من رجال الدين اليهود الذين كانوا يعبدون بعل ويقدمون له الذبائح، وسفر باروخ أشتات من الأفكار، وليست به وحدة متناسفة:

المكابيون الأول والثاني:

يحوي هذان السفران تاريخ المكابيين الذي سبق أن ذكرناه في الباب الأول، والسفران يشيدان ببطولة الأسرة المكابية، وفي الكتابين حديث عن الإسكندر الأكبر وتراثه العقلي الذي عارضه اليهود، وكانت هذه المعارضة من أسباب الخلاف بينهم وبين السلطة الحاكمة (١).

(١) دكتور فؤاد حسنين: التوراة، في أمكنة متعددة.

دراسات عن العهد القديم
أوردنا فيما سبق تعريفاً بالأسفار، ملاحظين واقع الأسفار التي بين أيدينا
ولكن هذا الواقع يختلف مع الحق، فأكثر الأسفار ألفها غير من نسبت إليهم
أو قل نسبت إلى غير مؤلفيها الحقيقيين، وتواريخ تأليفها بعيدة عن الدقة،
وبها كثير من المتناقضات، وكتبت لأهداف محددة لا لتصف الواقع، وغير ذلك
من المآخذ، ومن ثم لزم أن نورد بعض الدراسات حول هذه الأسفار لنضعها
في مكانها الصحيح:

الإسلام والعهد القديم:
يعترف الإسلام بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ولا يعترف بسواها من
أسفار العهد القديم، قال تعالى:
الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه،
وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس (١).
- ومن قبله كتاب موسى (٢).

وفيما عدا ما أنزله الله على موسى فإن الإسلام لا يعترف به، فسفر يشوع
وسفر القضاة والملوك... ليست من الكتب المقدسة في نظر الإسلام،
والأنبياء السبعة عشر الذين أوردنا ذكرهم وتكلمنا عن أسفارهم هم أنبياء في نظر
اليهود، ولم يتعرض القرآن الكريم لهم ولا لكتبهم بأي ذكر، وقد سبق
أن أوردنا في الباب السابق هجوم بعض هؤلاء الأنبياء على بعض، ورميهم
بعضهم بعضاً بالشعوذة والهوش والتظاهر، لابتزاز الأموال بغير حق.

(١) سورة آل عمران، الآيتان ٢ - ٣.

(٢) سورة هود الآية ١٧.

ونعود إلى التوراة التي أنزلها الله على موسى فنتساءل: أين هي؟
ويجيبنا القرآن الكريم على هذا التساؤل بأن اليهود أهملوا بعضها فضاع،
وحرّفوا بعضها على نحو ما أرادوا، قال تعالى:

- يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به (١).
- قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل (٢).
- مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا،
بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله (٣).
- وفي الذكر الحكيم ما يوضح أن القرآن الكريم حوى الأصول الصحيحة
التي جاءت بها الأديان السابقة. قال تعالى:
- شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا
به إبراهيم وموسى وعيسى (٤).
- وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه (٥).
- هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
وكفى بالله شهيدا (٦).

ويقول المفسرون في تفسير الآية الأولى من هذه الآيات شرع للمسلمين ديننا
يحتوي ما جاء به الأنبياء من نوح إلى عيسى (٧). ويقولون في تفسير الآية
الثانية إن القرآن هو الصورة الأخيرة لكتاب الله الواحد، المتحد الأصل
والوجهة، المسائر لحاجات البشر، حتى إذا كشف للناس عن الحقائق الكبرى
التي تقوم عليها أسس الحياة، انقطع الوحي ليتصرف العقل البشري في حدود
تلك الحقائق الكبرى، بلا خوف من الزلل ما دام يرعى تلك الحدود، ومن

(١) سورة المائدة الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة الآية ٦٨.

(٣) سورة الجمعة الآية الخامسة. (٤) سورة الشورى الآية ١٣.

(٥) سورة المائدة الآية ٤٨. (٦) سورة الفتح الآية ٢٨.

(٧) البيضاوي ص ٤٨٥.

ثم فكل الحكم يجب أن يرجع إلى هذا الكتاب الأخير الذي يتضمن الباقي من شريعة الله كلها في كتاب، ويضعها في الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة (١) ويقولون في تفسير الآية الثالثة: إن الله أرسل محمدا بالإسلام دين التوحيد والحق الخالد ليعلو على الأديان والمعتقدات بأن يحوي أحسن ما فيها وأن يضيف إلى ذلك ما فيه خير الإنسان في الدنيا والآخرة (٢)

ويقرر التاريخ أن موسى عليه السلام كتب نسخة التوراة ووضعها مع اللوحين في التابوت (٣)، ومرت الأيام، وظهر في بني إسرائيل كثير من الفجرة والكفرة حتى جاء عهد سليمان وفتح التابوت بعد أن وضع في الهيكل، فلم توجد به نسخة التوراة، وإنما وجد به اللوحان الحجريان فقط، وقد جاء في الكتاب المقدس عن ذلك (... لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر (٤))، وحدثت بعد سليمان أحداث دينية عجيبة ذكرناها فيما سبق، وصلت إلى الردة وعبادة الأوثان، وعبادة آلهة الأقوام المجاورين وتعرض بيت المقدس للسلب والنهب والتدمير عدة مرات، وبني مذبح للأصنام في فناء بيت المقدس، ولم يعد هناك ذكر للتوراة ولا صلة بها، وبعد سقوط مملكة إسرائيل، بقيت مملكة يهوذا تعاني صورا من الاضطراب والفوضى، وكان اتجاهها غالبا إلى الزندقة والكفر، وقبيل سقوطها آل السلطان إلى الملك بوشيا (حوالي ٦٢٩ - ٥٩٨ ق م) ومال هذا إلى العودة للإيمان واتباع التوراة رجاء أن يكون في هذا إنقاذ مملكته من الفوضى والدمار، وكان يعاصره كاهن اسمه حلقيا انتهز فرصة هذا الميل في الملك فادعى - بعد سبعة عشر عاما من حكم يوشيا - أنه وجد نسخة التوراة في بيت المقدس، وأعطائها شافان الكاتب (٥).

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٦٦ - ٦٧ (٢) أنظر النسفي والقرطبي والكشاف

(٣) خروج ٢٥: ٢١. (٤) الملوك الأول ٨: ٩.

(٥) اقرأ (إظهار الحق) للعلامة رحمة الله الهندي ص ٣٢٣ - ٣٢٥.

ولا يقبل الباحثون ادعاء حلقيا، إذ لا يعقل أن توجد نسخة التوراة في بيت المقدس ولا يراها أحد قبل يوشيا ولا خلال السبعة عشر عاما الأولى من حكمه، ويرى الباحثون أن حلقيا انتهب فرصة ميل يوشيا إلى العودة لدين الله والعمل بالتوراة، فكتب خلال هذه الأعوام السبعة عشر ما أسماه أسفار التوراة، وليس ذلك في الحقيقة إلا من مخترعاته ومما سمعه من أفواه الناس. بقي أن نذكر أن الباحث العلامة ول ديورانت يقرر أنه لم يبق لدينا من شريعة موسى سوى الوصايا العشر (١).

كتاب العهد القديم:

تنسب أسفار العهد القديم إلى هذه الأسماء التي ذكرناها مع كل سفر، ولكن الحقيقة أن هذه النسبة غير صحيحة، وأن هؤلاء الذين نسبت لهم الأسفار أو أكثرهم لم يكتبوها، أولم يكتبوا حرفا منها، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا عند حديثنا عن بعض الأسفار، وأينا أن بعض من نسبت إليهم الأسفار ليس لهم وجود في التاريخ، وإنما وضعت قصصهم وضعا لهدف معين، وبعض الأسفار ليست في الحقيقة إلا أساطير وأغنيات شعبية لصقتها الكتاب ببعض الأنبياء أو المتنبيين من اليهود.

وحقيقة القول أن اليهود بعد أن انحرفت اعتقاداتهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى الحقيقية لأنها كانت تختلف عما باشروا من طباع وخلق، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ ومن عقيدة.

ما الدليل على أن هذه الأسفار نسبت إلى غير مؤلفيها؟

في الإجابة على هذا السؤال نورد بعض نماذج تؤيد هذه الحقيقة دون شك، فعن أسفار موسى الحالية نقرر أنه لا يوجد من قريب أو من بعيد ما يفيد أن موسى هو الذي جاء بها، أو أنزلت عليه، بل على العكس من ذلك يوجد

(١) قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٧١.

ما يقرر خطأ نسبة هذه الأسفار إلى موسى، وفيما يلي اقتباسات من هذه الأسفار تدعم هذه الحقيقة:

- جاء في سفر التثنية ما يلي: (فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم) (١) وليس من المعقول أن يكتب موسى ذلك عن نفسه.

- وجاء في نفس السفر: (ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى) (٢) ومن الواضح أن مثل هذه العبارة لا تقال إلا بعد موت موسى بزمن ليس بالقصير.

- وجاء في سفر التكوين ما يلي. (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما ملك ملك لبني إسرائيل) (٣).

وهذه الفقرة تدل على أنها كتبت في عهد ملك بني إسرائيل أو بعده، وعهد ملك بني إسرائيل متأخر عن موسى بعشرات السنين أو بمئات السنين. ومن هذا ندرك أن أسفار التوراة ليست هي أسفار موسى، وإنما نسبت له لكثرة ورود اسمه بها.

ويقول الباحث J. Smith عن سفر الخروج: إن هذا السفر الذي نقرؤه بين أسفار الكتاب المقدس، لم يكتب إلا بعد فترة طويلة من الأحداث الواردة فيه، وربما كانت هذه الأحداث محفوظة جيلاً عن جيل، إذ كان بعضها، كما لا يزال الحال حتى الآن، ضمن التلاوة الدينية التي يرتها رجال الدين في المناسبات وبخاصة في عيد الفصح (٤).

(١) سفر التثنية ٣٤: ٥. (٢) تثنية ٣٤: ١٠.

(٣) تكوين ٣٦: ٣١.

(٤) ٣٥ - ٣٤ God and Man in Early Israel pp.

فإذا تركنا أسفار موسى إلى سواها من الأسفار وجدنا نفس النتيجة، فإن هذه الأسفار نسبت إلى غير مؤلفيها الحقيقيين، ويبدو أن المؤلفين كانوا متأخرين جدا عن نسبت لهم هذه الأسفار، وقد قرر الكتاب الغربيون هذه الحقيقة، ويرى بعضهم أن سفر يوشع كتبه أرميا، وبين يوشع وأرميا أكثر من ثمانية قرون تقريبا، ويرى آخرون أنه تصنيف صموئيل، ويرى فريق ثالث أنه تصنيف فنيحاس. (١)

وسفر القضاة بنسبة بعض الكتاب الغربيين إلى حزقيال، وينسبه آخرون إلى عزرا، وينسبه فريق ثالث إلى فنيحاس، وبين عزرا وفنيحاس أكثر من تسعة قرون (٢)، وسفر دانيال لا يمكن أن يكون قد كتب في ذلك الزمن البعيد الذي عاش فيه دانيال، أي عندما سقطت بابل في يد الملك الفارسي قورش سنة ٥٣٨ ق م، بل لا بد أن يكون هذا السفر قد كتب بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة للأسباب التالية:

- ١ - يتضمن هذا السفر كلمات مقدونية مع أن اليهود في زمن الأسر البابلي لم يكونوا قد خالطوا اليونانيين بعد، ولا صكت أسماعهم اللغة اليونانية.
- ٢ - فيه وصف للكلدانيين لا يتسنى الاتيان به لكاتب سابق على عصر الإسكندر.

٣ - اقتبس طرفا من أقوال إرميا وحزقيال وزكريا مع أن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا قد وجدوا إبان الأسر البابلي (٣)، والأسفار المنسوبة إلى سليمان ليست إليه كما سبق أن ذكرنا عند التعريف بالأسفار، ومثل هذا يقال عن كل الأسفار أو أكثرها، وقد تعرض لهذا الموضوع العلامة ول ديورانت وكتب عنه موجزا يمكن أن نقبسه، قال هذا الباحث:

(١) أنظر هذه الآراء في إظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندي ص ٦٦.

(٢) أنظر المرجع السابق ص ٦٨.

(٣) أنظر محنة التوراة على أيدي اليهود لعصام الدين حقي ناصف ص ٥٩ - ٦٠.

كيف كتبت هذه الأسفار؟ ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال كتب في الإجابة عنه آلاف المجلدات، ولكن يجب أن نفرغ منه هنا في فقرة واحدة، إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هو سفر التكوين، وقد كتب بعضه في يهوذا وبعضه في إسرائيل، ثم تم التوافق بين ما كتب هنا وهناك بعد سقوط دولتي اليهود، والرأي الغالب أن سفر التثنية من كتابة عزرا، ويبدو أن أسفار التوراة الخمسة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالي عام ٣٠٠ ق م (١). الأسر البابلي وأثره على العهد القديم وعلى اليهود: يقرر Wells أن أسفار العهد القديم جمعت لأول مرة في بابل وظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد (٢)، ويربط رأيه ذلك بأهمية الأسر البابلي على اليهود، فيقرر أن اليهود لم يكونوا قبل الأسر شعبا متحضرا ولا متحدا، وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة، ولم يظهر في تاريخهم قط أن أسفارا كانت تقرأ قبل الأسر، ولكن الأسر البابلي مدتهم ووحدهم وأبرز حاجة الشعب العبراني إلى جمع تاريخه، ورسم تقاليدته وتنميتها فبدءوا يدونون الأسفار من مصادر مختلفة لهدف واحد هو خدمة مستقبلهم، فلما عادوا من الأسر، كانوا شعبا يختلف اختلافًا عظيمًا عن الشعب الذي خرج، مما يصدق عليه ما يقوله المؤرخون من أن التوراة هي التي صنعت اليهود وليس اليهود هم الذين صنعوا التوراة (٣). ويذكر Wells في كتابه Outline of History ما يزيد هذا الموضوع إيضاحًا، وهاك عبارته: والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٢) A short History of the World p ٨٩

(٣) Ibid pp ٩٤ , ٩٦ .٩٠

المقدس، هي أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجا، وعادوا منها ممدنين، خرجوا جمهورا مختلطا منقسما على نفسه، لا يربطه وعدي ذاتي وطني، وعادوا بروج قومية شديدة، وجنوح إلى الاعتزال، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة، وليس هناك ما يدل على تعودهم تلاوة أي كتاب، وعادوا إلى وطنهم ومعهم شطر أكبر من مادة (العهد القديم)، وواضح أن اليهود بعد أن تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين، وبعادوا عن السياسة، وعاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي، فإن العقل اليهودي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة (١).

ذلك موجز القول عن ظروف تدوين الأسفار، أما كتابها فكثيرون، ويبرز من بين الكتاب اسم الكاهن عزرا، مرتبطا بتدوين التوراة، ويذكر Hosmer أن عزرا هو الذي - في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد - قاد جماعة من اليهود إلى فلسطين حيث استعاد بها الحياة اليهودية، وهو الذي أبرز أجزاء كثيرة مما سمي فيما بعد بالعهد القديم، وقد أكمل الكهنة الذين جاءوا بعد عزرا ما بدأه هذا الكاهن، وفي عهد المكابيين كانت أجزاء العهد القديم قد وجدت تقريبا، ولكنها لم تكن وضعت في نظامها المعروف الآن، كما أنها لم تكن في مستوى واحد من حيث الاجلال والتقدير (٢).

ويروي العلامة رحمه الله الهندي، أقوال بعض المؤرخين الغربيين التي تقرر أن توراة موسى ضاعت، فأوجدها عزرا مرة أخرى بإلهام (٣). ويبدو أنه بسبب دعوى الإلهام هذه، وبسبب جهود عزرا في إعادة بناء الهيكل، سمي اليهود عزرا (ابن الله).

٢٩٠ Outline of History p (١)

٧٥ The jews pp - ٧٦ (٢)

(٣) أنظر هذه الأقوال في إظهار الحق ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

على أنه ليس مستبعدا أن تصح نسبة بعض الأسفار المتأخرة إلى من نسبت إليهم، فبعد العودة من الأسر وبعد عهد عزرا بدأ التدوين، واتجهت العناية إلى كتابة الأسفار، فلما جاء عهد تحقيق الأسفار زج بكثير من هذه الكتابات في العهد القديم، ولا تزال هناك أسفار يرفضها البروتستانت المسيحيون حتى العهد الحاضر، وهناك أسفار أخرى يرفضها البروتستانت والكاثوليك ويعترف بها اليهود أو يعترفون ببعضها كما سبق القول. مصادر العهد القديم:

إذا ثبت لنا أن الوحي ليس المصدر الحقيقي للأسفار العهد القديم التي بين أيدينا، فما المصادر الحقيقية لهذه الأسفار؟

يبدو من الدراسة الفاحصة أن هذه الأسفار من صنع أجيال متعددة، وأن فترة التدوين بدأت من عهد عزرا واستمرت بعده، وأن الكهنة كانوا يعتمدون على ما سمعوه وما تلقاه الخلف من السلف من أخبار وأساطير وأقوال، وكثيرا ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم أو ما يأملونه على أنه حقيقة واقعة، أو تاريخ سابق، وليس ذلك في الحقيقة إلا من تصديق الخيال، وإلا من الوهم الذي يتخذ في نفس الواهم صورة الحقائق المقررة، ومن ذلك ما جاء في سفر صموئيل الثاني من أن داود ذهب ليسترد سلطته عند نهر الفرات (١).

ومن الواضح أن داود لم يصل بسلطانه إلى الفرات ولم يقرب منه، وأين نهر الفرات من فلسطين؟ وليس ذلك إلا وليد الخيال (٢).

ومن المصادر المهمة للأسفار قرارات المحافل اليهودية، فعلى مر التاريخ كان زعماء اليهود يدفعون بقراراتهم لتصير جزءا من الأسفار

(١) الأصحاح الثامن الفقرة الثالثة.

(٢) محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ج ٢ ص ١٨٨.

المقدسة (١)، وعندما اتخذت الأسفار المقدسة وضعها النهائي قبيل الميلاد، لم يتوقف زعماء اليهود من محاولاتهم تجاه تقديس قراراتهم، فدفَعوا بها إلى التلمود، ثم بعد ذلك إلى قرارات حكماء صهيون، وليس هذا وذاك بأقل عندهم من العهد القديم قداسة وجلالا.

ويقرر ول ديورانت أن أساطير الجزيرة العربية، كانت معينا غزيرا لأسفار العهد القديم، فمن هذه الأساطير أخذت قصص الخلق والطوفان التي يرجع عهدها في تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد، والمرجح أن اليهود أخذوها من مصادر سامية وسومرية قديمة، كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى، ويقول ول ديورانت كذلك إن القصص الشعبية العالمية كانت مصدرا من المصادر التي اقتبس منها كتاب أسفار العهد القديم، فقد كان في مصر والهند والتبت وبابل وبلاد الفرس واليونان والمكسيك وغيرها من البلاد، قصص شعبية عن الجنة وما فيها من نعيم، وما فيها كذلك من الأشجار المحرمة والأفاعي، وقد سلبت هذه الأشياء الخلود من الناس ونزلت بهم إلى الأرض، وأكبر الظن أن الحية والتينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية، تلك الشهوات التي تقضي على الطهر والسعادة وتسبب الشرور، وقد برزت هذه الفكرة في سفر الجامعة، ويوضح ول ديورانت أن المرأة اتخذت في معظم القصص العالمية أداة للشيطان، ويبرز اسم بوسي في الأساطير الصينية، ويقرر القصصي الصيني (شيچنك) أن كل الأشياء كانت في بادئ الأمر خاضعة للإنسان، ولكن المرأة ألقت بنا في ذل الاستعباد، فشقاؤنا لم يأتنا من السماء بل جاءت به المرأة التي أضاعت الجنس البشري، ويصيف ول ديورانت أن قصة الطوفان أيضا كانت واسعة الانتشار في الأدب الشعبي، فلا يكاد يوجد في الأمم القديمة أمة لم تعرفها، وقلما وجد جبل في آسيا لم يرس عليه راكب

(١) عبد الرحمن سامي: الصهيونية والماسونية ص ٦١.

السفينة الذي قدر له أن ينجو من الطوفان (١).
ويعد الفكر المصري أيضا مصدرا رئيسيا لأسفار العهد القديم، وقد وضع
أدولف إرمان Adolf Erman هذا الموضوع في بحثه القيم الذي تقدم به
سنة ١٩٢٤ إلى المجمع العلمي البروسي، وعنوانه (مصدر مصري لأمثال
سليمان)، وتكلم في هذا البحث عن مؤلف لحكيم مصري اكتشف حديثا
على أوراق البردي، وقد وضع هذا الحكيم نصائحه في ثلاثين بابا، وسابقها في
صورة نصائح والد لولده، وهو نفس الطريق الذي سلكه حكماء الشرق منذ
القدم، وقد تكررت هذه الحكم بشكل واضح في سفر الأمثال (٢)، ويلاحظ
كثير من الكتاب أن المعاني التي ذكرها اخناتون في قصيدته عن الشمس
تكررت كذلك في أسفار العهد القديم (٣).
ومن مصادر العهد القديم الرئيسية كذلك الفكر البابلي وقد عثر القائمون
بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية، تروى كلا من قصتي الخليقة والطوفان وهي
نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى فلسطين، ومن ثم فإن نقاد
الكتاب المقدس يحاجون بأن اليهود استدلوا في أثناء أسرهم على تلك الفصول،
وهي قوام للاصحاحات العشرة الأولى من سفر التكوين، ومن المصادر البابلية
التي عثر عليها نصوص تعد مرجعا هاما لقصة شمشون ودليلة وسواها من قصص
العهد القديم (٤) كما أن ترانيم التوبة البابلية قد اقتبست في بعض هذه الأسفار (٥)
ويقول الأستاذ العقاد عن المأثورات البابلية والفارسية في الفكر اليهودي
ما يلي.

(١) ولديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) أنظر (التوراة) للدكتور فؤاد حسنين ص ٦٨ - ٦٩.

(٣) محنة التوراة ص ٥٧.

(٤) Wells :٢٧٥ The Outline of History pp ,٢٩١

(٥) محنة التوراة ص ٥٧.

قصة الخليفة في العقائد الإسرائيلية الأولى تشابه قصة الخيفة في ألواح بابل، وعقيدة (المخلص) المنتظر موجودة في الديانة وموجودة في الديانة الإسرائيلية... وكان البابليون يؤمنون بأن الإنسان تمرد على قسمة الموت، وطمح إلى خلود كخلود الأرباب، فبحث عن ثمرة البقاء في السماء، وخذعه إله ما كر عن بغيته فناوله بديلا منها ثمرة تشبهها في ظاهرها ولكنها ثمرة الفناء (١).

على أن أهم مصدر اعتمدت عليه أسفار العهد القديم هو تشريع (حمورابي) الذي يرجع تاريخه إلى نحو ١٩٠٠ ق م قد اكتشف في سنة ١٩٠٢ م محفورا على عمود من الصخر الأسود، وتشريع حمورابي، أقدم تشريع سامي معروف حتى الآن، وهو يدل على عقلية بلغت شأوا عظيما من الرقي والنضج، ثم إن هناك شبيها شديدا بينه وبين القوانين اليهودية، وهذا الشبه ليس سطحيا ولا عرضيا، بل يتناول اللحمية والسدي واللب والجوهر، وحتى اللفظ والتراكيب، ولذا ذهب كثير من العلماء وفي مقدمتهم Jeremias إلى أن القوانين الإسرائيلية في معظمها مأخوذة مباشرة من تشريع (حمورابي) (٢)، ومن أبرز ما اتضح في تشريع حمورابي وتحدر إلى الفكر الإسرائيلي (قانون المشابهة) الذي يوجد علاقة بين الجريمة والعقوبة، ويلزم أن تكون العقوبة مضارعة للجريمة وأن تكون مثلها بقدر الامكان، فالعضو الذي يحدث الضرر يلقي العقاب، فكانت اليد التي تخطئ أو تسرق تعاقب بالقطع، فإن زلت يد الجراح فسببت وفاة المريض أو فقأت عينه، قطعت يد الطبيب، وإذا جرى لسان بالغيبة أو النميمة فبتره هو العقاب، وإذا هجم رجل على آخر فأضر ببعض أعضائه، كان العقاب في مثل

(١) عباس محمود العقاد: الله ص ١١٧.

(٢)

Passim

The Old Testament in the Light of the Ancient East ,

الموضع المصاب، وكذلك كانت الحال في البضائع والأموال، فالسلعة بالسلعة، والسفينة بالسفينة، والثور بالثور، والضأن بالضأن، وما إلى ذلك... هذه نماذج من تشريع حمورابي، ونجدها في العهد القديم بنفسها، أو مع اختلاف يسير، مما يدل على أن تشريع حمورابي كان مصدرا مهما من مصادر العهد القديم (١).

تحريف العهد القديم:

من الدراسات السابقة اتضح لنا أن الفساد سرعان ما تطرق لبني إسرائيل بعد موسى، واتضح لنا كذلك أن أسفار العهد القديم كتبت متأخرة، أي في عهد الفساد والاضطراب، وأن كتابها ليسوا هم الذين أسندت لهم هذه الأسفار، وليس الوحي مصدرا لهذه الأسفار، والنتيجة الواضحة لكل هذه المقدمات أن اليهود كتبوا التوراة انعكاسا لأخلاقهم وآمالهم، وبنوها هدفا يحققون به مقاصدهم، ومن هنا ازدحمت الأخطاء في العهد القديم وتوالت، وقد عنى كثير من الباحثين بإبراز أخطاء العهد القديم، وإيضاح ما به من خلط وتضارب. والنظرة السريعة للعهد القديم توحى أن الهدف الأسمى الذي أراده بنو إسرائيل من الكتاب المقدس، فأحد بني آدم كان ضالا وكان الآخر مهتديا، ومن المهتدي ينحدر بنو إسرائيل، وأبناء نوح الذين نجوا من الغرق كانوا ثلاثة ولكن بني إسرائيل يكثرون الهجوم على حام بن نوح ويسخطون

(١) نصوص من (تشريع حمورابي) تقارن بما ورد في سفر الخروج ٢١: ٢٣ - ٣٦ وما ورد في سفر التثنية: ١٩: ٢١ وسفر اللاويين ٢٤: ١٧ - ٢٢.
وانظر (النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية) للدكتور محمد محمود جمعة ص ١٨٦ وما بعدها.

عليه لا لشيء إلا أنه أبو الجنس الذي انحدر إلى مصر وما يليها من الجنوب، وكرهية بني إسرائيل لمصر قديمة وعريقة، ويصب سفر التكوين السخط على كنعان بن حام بن نوح (١) لأن الكنعانيين حاربوا العبرانيين، فلما دون هؤلاء العهد القديم، خصوا الكنعانيين بسخط الله، كأن الله يسخط على من سخطوا عليه ويرضى على من رضوا عنه. وهكذا كتبت أسفار العهد القديم باسم الله والله منها برئ، إنها في الحقيقة صدى لانفعالات اليهود وأحاسيسهم.

وبهذا السبب وبسبب كثرة الكتاب الذين اشتركوا في تدوين العهد القديم، كثرة الأخطاء فيه، ويمكننا أن نعطي منها بعض نماذج: - لم يكن للعدد مدلول دقيق في أسفار العهد القديم، فقد ورد في سفر الخروج أن إقامة بني إسرائيل في مصر كانت ٤٣٠ سنة، وهي في الحقيقة ٢٠٥ سنة، وقد اعترف مفسروا العهد القديم بوقوع الخطأ في هذا الرقم، وعدد الرجال الذين بلغوا سن العشرين قبيل خروج موسى من مصر كما ورد في سفر العدد لا يمكن عقلا أن يكون صحيحا، فقد كان عدد بني إسرائيل عند دخولهم مصر سبعين، ومحال أن يصيروا في مدى قرنين آفا كثيرة أو ملايين. وهكذا.

- ورد في أسفار التوراة ما يقرر أن الأبناء يؤخذون بذنب الآباء حتى الجيل الثالث والرابع، وهاك نص العبارة (مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع) (٢)، وفي سفر حزقيال ما يعارض هذا الاتجاه، فقد جاء به (النفس التي تخطئ هي تموت، الابن

(١) تكوين ٩: ٢٥ - ٢٦.

(٢) خروج: ٧.٢٤ وتثنية ٥: ٩ وعدد ١٤: ١٨.

لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون،
وشر الشرير عليه يكون) (١) وهذا تناقض واضح.
- تختلف الأحكام اختلافا واضحا وصريحا من سفر إلى آخر، ويبدو
ذلك بمقارنة الصحاح الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من سفر العدد،
بالأصحاح الخامس والأربعين والسادس والأربعين من سفر حزقيال.
- في سفر أخبار الأيام الثاني وردت الفقرة التالية (... لأن الرب
ذلل يهوذا بسبب آحاز ملك إسرائيل) (٢)، ولفظ إسرائيل غلط يقينا لأن
آحاز كان ملكا ليهوذا لا لإسرائيل، ومثل هذا الخطأ وقع في الأصحاح الأخير
من هذا السفر فقد ورد به أن نبوخذنصر عزل يهويا كين وملك بدله صدقيا
أخاه (٣)، والحقيقة أن صدقيا كان عم يهويا كين لا أخاه، ولذلك صحح
مترجمو العهد القديم هاتين الكلمتين لتتفق الفكرتان مع الحق والتاريخ.
- تنص الفقرات السابقة على أن نبوخذنصر أسر يهويا كين إلى بابل،
ولكن الحقيقة التاريخية أنه قتله في أورشليم وأمر أن تلقى جثته خارج السور
ومنع من دفنها كما ذكر ذلك المؤرخ اليهودي (بوسيقس) (٤).
- وقع في الفقرة الثامنة والعشرين من الزبور الخامس بعد المائة في
النسخة العبرانية العبارة التالية (، لم يعصوا كلامه)، وفي النسخة اليونانية جاءت
هذه العبارة هكذا (وقد عصوا كلامه) وأحدهما خطأ يقينا وقد اعترف بذلك
مفسر العهد القديم من الغربيين.
هذه نماذج قليلة مما في العهد القديم من خطأ واضطراب لم نقصد بها الحصر
وإنما قصدنا مجرد التمثيل.

(١) حزقيال ١٨ : ٢٠. (٢) الأصحاح الثامن والعشرين الفقرة ١٩

(٣) الفقرات ٩ - ١١.

(٤) أنظر إظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندي ص ١٢٧.

أهمية العهد القديم:

يسمي اليهود أنفسهم شعب التوراة، ولهذا يقرر باحثوهم أن أي شخص يفشل في دراسته للتوراة أن في التدرب على آدابها. يجب أن يدفع عن هذا الفشل احتقارا وازدراء ينصب عليه من كل بني إسرائيل، وعلى العكس من ذلك أولئك الذين برهنوا على مقدرتهم على استيعابها والانتفاع بآدابها ودراستها، فهؤلاء يكافئون بشرف التقدير والاحترام من المجتمع الإسرائيلي كله، فإن الإحاطة بالتوراة هي الجوهرة التي لا تقدر بثمن، وهي ثروة بني إسرائيل، وإذا فرض أن بني إسرائيل سلبت أموالهم وأمتعتهم وكل مصادر ثروتهم، وبقيت لهم التوراة فإنهم الراحون، وإن الثراء الذي ذهب لا يقاس بشيء إن قيس بالتوراة ما بقيت لهم، وفي سبيل المحافظة على التوراة ورعايتها يرخص كل غال ويهون كل صعب. وإله إسرائيل سيكون خير عون لشعبة ما حافظوا على كتابه المقدس، وكل جهد يبذل من أجل التوراة ويكون نصيبه الفشل، فإن باذله لا بد أن يكون متأكدا من حسن الثواب من الله ومع هذا فخدمة التوراة ينبغي ألا تقدم نظير جزاء، بل ينبغي أن تكون متعة في نفسها وأن يترك الجزاء يجيء من نفسه من يهوه ومن شعب يهوه. ذلك هو إحساس اليهود تجاه التوراة وذلك هو ما يدور بخلداهم عن كتابهم المقدس (١).

ويقتبس Arthur Hertzberg اقتباسات من الربانيين عن قيمة التوراة نورد هنا بعضها، لنظهر إلى أي مدى كانت أهمية التوراة عند بني إسرائيل يقول Arthur Hertzberg: إن التوراة تضمن لدارسها والمحيط بها أسمى مكانة في المجتمع الإسرائيلي، فإن التوراة عند بني إسرائيل كانت وجودا ثانيا، كانت دولة شامخة وروحانية رفيعة، تضاف أو تغني عن دولتهم

(١) Jesus p - ٧٨

The Jewish World in the Time of: Guignebert

الدينيوية، فقد أصبحت التوراة خلال مدة النفي مركزا التف حوله بنو إسرائيل، وتبعوا إرشاداته في السر والعلانية، وإن المثل الذي يقول (إسرائيل والتوراة شيء واحد) ليس مجرد مثل سائر، ولا يستطيع غير بني إسرائيل أن يدركوا كنهه، فمعنى التوراة في أهميته الوطنية لا يفهم لغير بني إسرائيل، ومحتويات التوراة ليست فقط دينا أو عقيدة أو أخلاقا أو تشريعا أو علما بل ليست كل هذه مجتمعة، إنها شيء أكثر جدا من كل هذا عند بني إسرائيل، إنها حياتهم وديناهم في الماضي والحاضر والمستقبل، والتوراة - في الفكر الإسرائيلي - الوسيلة والأداة التي خلق بها العالم، فبها ولأجلها خلق الإله الدنيا، ولذلك فهي أقدم من هذا العالم، إنها أسمى فكرة، وإنها الروح الحية للدنيا كلها، وبدونها ليس للدنيا بقاء، ودراسة التوراة أهم عند بني إسرائيل من بناء معبد، والالمام بها يضع صاحبه في مكانة أسمى من الكهنة ومن الملوك، ودارسها يضمن لنفسه النجاح، وبها يسمو الإنسان على كل البشر، ولو اشتغل بها وثني فإنه يصبح في مكانة أسمى من مكانة الكاهن، والفاسق الأثيم إذا حفظها يأخذ مكانة أسمى من رجل الدين الذي يجهلها (١).

(١) ٧٣ - Judaism pp ٧٢

التلمود

بين أيدينا مرجع يعد مصدرا أساسيا عند الحديث عن التلمود، ذلك هو (الكنز المرصود في قواعد التلمود) ومؤلفه هو الدكتور (روهلنچ) الذي كان مدرسا بجامعة براج، وقد ترجمه من الفرنسية إلى العربية الدكتور يوسف نصر الله، ومرجع آخر وثيق الصلة به وهو (التلمود شريعة إسرائيل) وسنقتبس منهما تعريفا بالتلمود وموجزا لأهم مباحثه. تعريف بالتلمود:

قلنا عند الحديث عن الفريسيين إنهم يرون أن التوراة ليست هي كل الكتب المقدسة وإنما هناك بجانبها روايات شفوية الحاخامات من جيل إلى جيل... وتلك الروايات هي التي تعرف بالتلمود، وبعد المسيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى (يوضاس) أن تلعب أيدي الضياع بهذه التعاليم الشفوية وتلك الروايات المتناقلة، فجمعها في كتاب سماه (المشنا)، ومعنى كلمة (المشنا) الشريعة المكررة لأن المشنا تكرر لما ورد في توراة موسى، وليس المشنا إلا إيضاحا وتفسيرا وتكميلا لهذه الشريعة. وفي السنين التالية أدخل حاخامات فلسطين وبابل كثيرا من الزيادات على ما درته (بوضاس) وأتم الربى يهوذا سنة ٢١٦ م تدوين هذه الزيادات والروايات الشفوية، وأصبحت كلمة المشنا تضم كل ما كتب من عهد يوضاس إلى عهد يهوذا. واستعصت المشنا على بعض القراء، فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها

حواشي كثيرة وشروحا مسهبة، وسميت هذه الحواشي وتلك الشروح باسم (جمارا).

ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود، فالتلمود تعليم ديانة اليهود وآدابهم، والمشنا الذي به زيادات لحاخامات فلسطين يسمى هو وشروحه (تلمود أورشليم) أما المشنا الذي به زيادات لحاخامات بابل فيسمى هو وشروحه (تلمود بابل). وهو المتداول بين اليهود والمراد عند الاطلاق (١). ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتابا منزلا ويضعونه في منزلة التوراة، ويرون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهيا، ولا يقنع بعض اليهود بهذه المكانة للتلمود، بل يضعون هذه الروايات الشفوية في منزلة أسمى من التوراة، ويرى بعضهم ألا خلاص لمن ترك تعليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى، ويعدون التوراة خبزا ويرون أن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، وأن الأدم هو التلمود، ويصرحون بأن من يقرأ التوراة بغير المشنا والجمارا فليس له إله.

وتضطرب آراء اليهود أحيانا وهم يضعون التلمود في تلك المكانة، فلا يكتفون بما سبق أن أوردناه من أن التلمود منزل، بل يعلنون أن التلمود وإن كان أقوال الحاخامات، فهو أيضا في مكانة التوراة، لأن أقوال الحاخامات هي قول الله الحي، وأن الله يستشير الحاخامات عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء (٢)، وإذا خالف أحد

(١) الكنز المرصود ص ٢٩ - ٣٠ بتصرف والتلمود شريعة إسرائيل ص ١٠ - ١١.

(٢) الكنز المرصود ص ٣٢ - ٣٣ والتلمود شريعة إسرائيل ص ١١ - ١٢.

اليهود أقوال الحاخامات يعاقب أشد العقاب لأن الذي يخالف شريعة موسى خطيئته قد تغفر، أما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل (١).

من نصوص التلمود

الله في التلمود:

يروى التلمود أن الله ندم لما أنزله باليهود وبالهيكل، ومما يرويه التلمود على لسان الله قوله: تبا لي لأنني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي.

وليست العصمة من صفات الله في رأي التلمود، لأنه غضب مرة على بني إسرائيل فاستولى عليه الطيش، فحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية، ولكنه ندم على ذلك بعد أن هدأ غضبه، ولم ينقذ قسمه لأنه عرف أنه فعل فعلا ضد العدالة.

ويقرر التلمود أن الله هو مصدر الشر كما أنه مصدر الخير، وأنه أعطى الإنسان طبيعة رديئة وسن له شريعة لم يستطيع بطبيعته الرديئة أن يسير على نهجها، فوقف الإنسان حائرا بين اتجاه الشر في نفسه، وبين الشريعة المرسومة إليه، وعلى هذا فإن داود الملك لم يرتكب خطيئة يقتله أوريا واتصاله بامرأته لأن الله هو السبب في كل ذلك (٢).

أرواح اليهود:

تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ويقول التلمود بالتناسخ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند، وأخذه حاخامات بابل من المجتمع البابلي.

(١) الكنز المرصود ص ٨٧.

(٢) التلمود شريعة إسرائيل ص ١٧ - ١٩.

اليهود والسلطة

ينص التلمود على أنه يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع تسلط باقي الأمم في الأرض، لتصير السلطة اليهود وحدهم، فإذا لم تكن لهم السلطة عدوا كأنهم في حياة النفي والأسر، ويعيش اليهود في حرب مع باقي الشعوب حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع وحينئذ يدخل الناس أفواجا في دين اليهود ويقبلون جميعا ما عدا المسيحيين لأن هؤلاء من نسل الشيطان (١).

اليهود وغير اليهود في التلمود:

جاء في التلمود أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، وأن اليهودي جزء من الله، فإذا ضرب أمي إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود، ولليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم غير اليهود، والشعب المختار هم اليهود فقط، أما باقي الشعوب فهم حيوانات، ولما قدم باختصر ابنته إلى زعيم اليهود ليتزوجها، قال له هذا الزعيم: إني يهودي ولست من الحيوانات ويعتبر اليهود غير اليهود أعداء لهم ولا يجيز التلمود أن يشفق اليهود على أعدائهم، ويلزم التلمود بني إسرائيل أن يغشوا سواهم، فقد جاء فيه: يلزم أن تكون طاهرا مع الطاهرين ودنسا مع الدنسين. ويمنع التلمود اليهود أن يحياوا غير اليهود ما لم يخشوا ضررهم، ويجيز التلمود استعمال النفاق مع غير اليهود، ولا يجيز أن يقدم اليهود صدقة لغير اليهود (٢)

(١) الكنز المرصود ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) المرجع السابق ص ٥١ - ٥٥ والتلمود شريعة إسرائيل ص ٢٥.

اليهود والتملك:

ترى الأديان السماوية أن الدنيا والمال الثراء ملك الله، ولما كان التلمود يقرر أن اليهود أجزاء من الله، فإن اليهود لذلك يعتبرون مالكين لكل ما في الأرض من ثراء بالنيابة عن الإله، وقد جاء في وصايا موسى: (لا تسرق مال القريب) وفسر علماء التلمود هذه الوصية بجواز أن يسرق اليهودي مال الغريب أي غير اليهودي، فسلب ماله ليس مخالفا للوصايا، وسار الفكر اليهودي في التلمود على هذا النحو فعدت سرقة اليهودي من غير اليهودي استرداداً لأموال اليهود من ساليها، وأجاز علماء التلمود أن يبيع اليهودي شيئاً يملكه غير يهودي، وللمشتري أن يتخذ الوسائل لوضع يده على ما اشتراه، ويساعده كل اليهود ليحصل على حقه، وجاء في التلمود نص يشرح هذه الفكرة شرحاً وافياً وهو إن مثل بني إسرائيل كمثل سيده في منزلها، يحضر لها زوجها النقود فتأخذها وتنفقها دون أن تشرك معه في الشغل والتعب، فعلى الأميين أن يعملوا ولليهود أن يأخذوا نتاج هذا العمل. ومن الوسائل التي يصطنعها اليهود ليستولوا على ثروات العالم الغش الذي أجاز التلمود استعماله مع غير اليهودي، في حالة البيع أو الشراء وقال الحاخام (رشى): مصرح لليهودي أن يغش غير اليهودي ويحلف له أيماناً كاذبة. ومن الوسائل كذلك عدم رد الأشياء المفقودة، فقد جاء في التلمود أن الله لا يغفر ذنباً لليهودي يرد للأمة ماله المفقود. ومن الوسائل كذلك الربا الذي أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود، فقد جاء في التلمود: غير مصرح لليهودي أن يفرض الأجنبي إلا بالربا (١)

الكنز المرصود ٥٦ و ٦٥ (موجز) وتلمود شريعة إسرائيل ص ١٣ وما بعدها.

اليهود وأرواح غير اليهود:

ليست لأرواح غير اليهود حرمة لدى اليهود، فقد جاء في التلمود: محرم على اليهودي أن ينجي أحدا من الأمميين من هلاك أو يخرج من حفرة يقع فيها، بل إذا رأى أحد الأمميين يقع في حفرة لزمه أن يسدها بحجر، وقال (ميمانود) الشفقة ممنوعة بالنسبة لغير اليهودي، فإذا رأته واقعا في نهر أو مهددا بخطر فيحرم عليك أيها اليهودي أن تنقذه، لأن السكان الذين كانوا في أرض كنعان وقضت التوراة بقتلهم جميعا لم يقتلوا عن آخرهم، بل هرب بعضهم واختلط بباقي أمم الأرض، ولذلك يلزم قتل غير اليهودي لاحتمال أن يكون من هؤلاء الهاربين. ونص التلمود على أن من العدل أن يقتل اليهودي كل أممي لأنه بذلك يقرب قربانا إلى الله (١):
المرأة في التلمود:

قال موسى لا تشته امرأة قريبك، فمن يزن بامرأة قريبه يستحق الموت، ولا يعتبر التلمود القريب إلا اليهودي فقط، فإتيان زوجات الأجانب جائز، واستنتج من ذلك الحاخام (رشى) أن اليهودي لا يخطئ إذا تعدى على عرض الأجنبي لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد، لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل هي كبهيمة، والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها، وقد أجمع على هذا الرأي الحاخامات (بشاي وليفي وجرسون) فلا يرتكب اليهودي محرما إذ أتى امرأة مسيحية، وقال (ميمانود) إن لليهود الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات أي الغير يهوديات (٢).

(١) الكنز المرصود ص ٦٦ - ٦٧ والتلمود شريعة إسرائيل ص ٤٠ - ٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ والتلمود شريعة إسرائيل ص ٤٤ - ٦٥.

القسم في التلمود:
بنص التلمود على أن اليمين التي يقسم بها اليهودي في معاملاته مع باقي الشعوب لا تعتبر يمينا، إذ كأنه أقسم لحيوان والقسم لحيوان لا يعد يمينا، فإذا اضطر اليهودي أن يحلف لمسيحي فله أن يعتبر ذلك القسم كلا شيء، ويجوز لليهودي الحلف زورا إذا حول اليمين لوجهة أخرى وبخاصة إذا كانت اليمين إجبارية كأن تكون أمام المحاكم أو أمام خصم قوي. وإذا سرق يهودي أجنبيا وكلفت المحكمة اليهودي أن يحلف اليمين حلف زورا، ويعين التلمود يوما كل فترة يسمى يوم الغفران العام، وفيه يمحي كل ما ارتكبه اليهود من ذنوب ومن ضمنها الإيمان الزور (١).
اليهود والمسيح:

يقول التلمود عن المسيح: إن يسوع الناصري موجود في لجج الجحيم بين القار والنار وإن أمة مريم أتت به من العسكري (باندارا) عن طريق الخطيئة، وإن الكنائس النصرانية هي بمقام القاذورات، والواعظون فيها أشبه بالكلاب النابحة، وإن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها، وإن العهد مع المسيحي لا يكون عهدا صحيحا يلتزم اليهودي القيام به، وإنه من الواجب أن يلعن اليهودي ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة لبني إسرائيل (٢).
ويحدد التلمود أنواعا من الطهر لا يصل لها اليهودي إلا باستعمال الذبائح البشرية من المسيحيين. وقد وقعت أحداث تؤكد أن أيدي اليهود تلوثت بدماء المسيحيين لهذا الغرض عدة مرات (٣).

(١) الكنز المرصود ص ٧٤ - ٧٦ والتلمود شريعة إسرائيل ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) الكنز المرصود: ص ١٩.

(٣) أنظر نماذج من ذلك في الكنز المرصود ص ٨٩ وما بعدها ونماذج أخرى في (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) للقائد عبد الله التل ص ٨٢ - ١٠٥.

بروتوكولات حكماء صهيون
لا يزال واضعوا هذه البروتوكولات ووقت وضعها من الأسرار التي
لم تكشف حتى الآن بوجه الدقة، وتدل الظواهر على وجود علاقة زمنية
بين هذه البروتوكولات وبين نهاية القرن التاسع عشر، وعلى وجود
ارتباط بين هذه البروتوكولات وبين مؤتمر (بال) الذي عقد سنة ١٨٩٧ (١).
ومرجع هذا الفهم أن هذه البروتوكولات عبارة عن مؤامرة شريرة
ضد البشرية، ويبدو أنها كانت رد فعل لما عاناه اليهود خلال القرن
التاسع عشر من اضطهاد في أوروبا، وما نزل بهم من جور وتعسف،
فتدارسوا في هذا المؤتمر - ضمن ما تدارسوه - وسائل الانتقام من البشرية
جميعا التي اعتقد اليهود أنها اشتركت كلها بطريق أو بآخر في إذلالهم والنيل منهم.
وبروتوكولات معناها محاضر جلسات، ويسميتها بعض الباحثين
(قرارات) وتلتقي التسميتان إذا لاحظنا نصوص البروتوكولات، وأنها
عبارة عن تقرير وضعه بعض الباحثين - وأن هذا التقرير عرض على المؤتمرين
في (بال) بسويسرة، وأن المؤتمرين أقروه، فالبروتوكولات تقرير بالنسبة
لواضعيها، ومحاضر بالنسبة لعرضها على المؤتمرين في جلساتهم، وقرارات
بالنسبة لقبولها وتأيدها.
وكانت هذه البروتوكولات مودعة في مخابي، سرية، ولا يعرف
محتوياتها إلا الخاصة من اليهود الذين يعملون على تنفيذ ما جاء بها
بهدهوء وحسب تخطيط منظم، ثم حدث اجتماع بين سيدة فرنسية مسيحية

(١) يرى بعض الباحثين أن هذه البروتوكولات كانت القرارات السرية لمؤتمر بال،
أما القرارات العلمية فهي التي أعلنت عن ضرورة قيام دولة لليهود في فلسطين وقد ذكرنا
ذلك مفصلا في دراساتنا السابقة.

وبين زعيم صهيوني كبير، وتم هذا الاجتماع في وكر الماسونية بباريس، ورأت هذه السيدة بطريق الصدفة بعض هذه القرارات، فذعرت من محتوياتها، واستطاعت أن تختلس منها بعضها وتخرج بها من هذا الوكر، وكان ذلك سنة ١٩٠١ ويبدو أن السيدة الفرنسية خافت أن تتهم بسرقة هذه الوثائق فعملت على أن تذاغ هذه الوثائق من مكان قصي هو روسيا القيصرية، وقد وصلت هذه الوثائق إلى رجل يهيم أمرها هو اليكس فيقولاً نيفتش كبير أعيان روسيا الشرقية القيصرية، فسلمها إلى صديقه العالم الأستاذ سرجي نيلوس الذي نشرها في العالم التالي باللغة الروسية، وعقب اكتشاف سرقة هذه الوثائق أعلن تيودور هرتزل الذي دعا إلى مؤتمر بال أنه قد سرقت من (قدس الأقداس) بعض الوثائق السرية التي قصد إخفاؤها على غير أصحابها، وأن ذبوعها قبل الآوان يعرض اليهود في العالم للخطر، فلما ظهرت هذه الوثائق مطبوعة عقب ذلك هب اليهود في كل مكان يعلنون أنها مختلقة عليهم وينكرون صلتهم بها، ولكن هذا الإنكار لم يكن ذا قيمة على الإطلاق لأن الأحداث العالمية التي وقعت آنذاك كانت مطابقة لما ورد في البروتوكولات، و متمشية مع مصلحة اليهود، وكان واضحاً أن ذلك ليس مجرد مصادفة. و ن نقل فيما يلي ما كتبه الأستاذ محمد خليفة التونسي في مقدمته لترجمة هذه البروتوكولات عن تطور طبع هذه الوثائق ونشرها (١):

أعاد نيلوس نشر هذا الكتاب مع مقدمة وتعقيب بقلمه سنة ١٩٠٥، ونفدت هذه الطبعة بسرعة غريبة بوسائل خفية، لأن اليهود جمعوا نسخها من الأسواق بكل الوسائل وأحرقوها، ثم طبعت سنة ١٩١١ فنقدت على هذا النحو، ولما طبعت سنة ١٩١٧ صادرها الشيوعيون الذين كانوا يومئذ قد استطاعوا تدمير القيصرية وقبضوا على أزمة الحكم في

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٠ - ١١.

روسيا، وكان معظمهم من اليهود الصرحاء أو المستورين أو من صنائعهم، ثم اختفت البروتوكولات من روسيا حتى الآن. وكانت قد وصلت نسخة من الطبعة الروسية سنة ١٩٠٥ إلى المتحف البريطاني في لندن ختمت بخاتمه، وسجل عليها تاريخ تسلمها (١٠ أغسطس سنة ١٩٠٦) وبقيت مهمة حتى سنة ١٩١٧، وحينئذ وقعت هذه النسخة في يد الأستاذ فيكتور مارسدن مراسل جريدة المورنتج بوست اللندنية الذي كانت جريدته قد طلبت منه الاسراع إلى روسيا لموافاتها من هناك بأخبار الانقلاب الشيوعي الذي تم حينذاك، فقرأ النسخة، وقدر خطورتها ورأى نبوءة ناشرها نيلوس بهذا الانقلاب قبل وقوعه باثني عشر عاما، فعكف في المتحف على ترجمتها، ثم طبعها قبل سفره، وأعيد بعد ذلك طبعها عدة مرات كانت آخرها وخامستها سنة ١٩٢١ ومنها النسخة التي ترجمها الأستاذ خليفة للعربية (١)، كما نشرت كذلك بالفرنسية والألمانية والإيطالية وغيرها من اللغات، وكانت تنفذ نسخها في كل طبعة بطرق غريبة مريبة، وأحجمت دور النشر بعد ذلك عن إعادة طبعها بسبب نفوذ اليهود وسلطانهم على هذه الدور.

وبين يدي الآن نسخة من هذه البروتوكولات، وأريد أن أحللها هنا تحليلا علميا لا دعاية فيه ولا تعصب. عدد البروتوكولات أربعة وعشرون، ولكنها غير دقيقة التأليف، وبها كثير من التكرار، وقد حاولت أن أقترح عنوانا محددًا لكل منها فلم يتيسر ذلك إلا لبعضها، إذ لم يخصص موضوع لكل منها، ولعل ذلك هو طبيعة النقاش الذي يستطرد أحيانا، حتى ليخيل لي أن الوثائق التي بين أيدينا خلاصة محاضر جلسات، وليست نص تقرير قدم

(١) نشرت بالقاهرة مرتين (مكتبة الخانجي).

لهذه الجلسات، ولا نص محاضر الجلسات، وربما كان ما استطاعت السيدة الفرنسية الفرار به جزءا من هذه المحاضر، أو حتى جزءا غير متسلسل منها. وهدف هذه البروتوكولات إقامة وحدة عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة يهودية، يبحث القسم الأول في موقف اليهود من العالم قبل تحقيق هدفهم، ويبحث القسم الثاني في موقف اليهود من العالم بعد أن يصبحوا أصحاب السلطان عليه، والبروتوكولات العشرة الأولى تتبع القسم الأول تقريبا، أما باقي البروتوكولات فتتبع القسم الثاني، وسنذكر فيما يلي أهم الملامح لكل من هذين القسمين، ثم نورد نصوصا من البروتوكولات: قبل تكوين الحكومة اليهودية العالمية:

من أهم ما يعنى به اليهود قبل تكوين هذه الحكومة إعداد الشعب اليهودي للسلطان، وتثبيت الاعتقاد بأن اليهود هم شعب الله المختار، فالناس عند اليهود قسمان: يهود وجوييم أو أمميون (١) أي كفره وثنيون، واليهود شعب الله المختار، وهم أبناء الله وأحباؤه لا يتقبل العبادة إلا منهم، ونفوسهم مخلوقة من نفس الله وعنصرهم من عنصره، فهم وحدهم أبناؤه الأطهار، وقد منحهم الله الصورة البشرية تكريما لهم، أما الجوييم فخلقوا من طينة شيطانية، والهدف من خلقهم خدمة اليهود، ولم يمنحوا الصورة البشرية إلا بالتبعية لليهود ليسهل التعامل بين الطائفتين إكراما لليهود، فاليهود أصلاء في الإنسانية، والجوييم أتباع فيها، وعلى هذا فمن حق اليهود معاملة الأمميون كالبهائم، والآداب التي يتمسك بها اليهود لا يمكن أن يعاملوا الأمميون بها، فلهم أن يسرقوهم ويغشوهم

(١) يسميهم القرآن: أميين كما سيأتي.

ويكذبوا عليهم ويخدعوهم ويغتصبوا أموالهم ويقتلوهم ويهتكوا أعراضهم، ويرتكبوا معهم كل الموبقات ما أمنوا استتار جرائمهم [وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله على لسانهم (ليس علينا في الأميين سبيل) (١)] وبناء على هذه العقيدة يرى اليهود أن العالم لم يخلق إلا لهم ومن حقهم وحدهم استعباده وتسخيره، وليس لغيرهم إلا السمع والطاعة والرضا والقناعة بما يجود به اليهود عليهم.

ويرى اليهود في هذه المرحلة ضرورة تمزيق الأوطان، والقضاء على القوميات والأديان، وإفساد نظم الحكم في كل الأقطار بإغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد على سلطة الحكام ونصوص القانون.

وترسم البروتوكولات لليهود أن يهتموا في هذه المرحلة بنشر المذاهب المختلفة، وأن يختلف اتجاههم في مكان عن اتجاههم في مكان آخر وكذلك فيما يتعلق بالزمان، فهم يعملون على نشر الشيوعية أحيانا والرأسمالية أحيانا، ويلبسون مسوح الاشتراكيين في بعض الأحيان، ويوقفون بذلك الكتل العالمية متصارعة، وهم يقولون أحيانا بالحرية والمساواة فيثيرون المظلومين في وجه الظالمين، ولكنهم سرعان ما يحاربون الحرية والمساواة، ويعلنون أن الطاعة والتفاوت هما أساس القيم البشرية ويحاربون الحرية مؤكدين أنها تحول الغوغاء إلى حيوانات ضارية، وأن من الضروري أن تسحق هذه الكلمة ويزول مدلولها تماما.

وهم في هذه المرحلة ينشرون الإباحية والفوضوية، ويعملون على تفويض الأسر وصلات الود، ويدفعون الناس للشهوات والانحلال، والبعد عن كل القيم الإنسانية.

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٧٥.

وترسم البروتوكولات لليهود أن يستعملوا ما في النفس الإنسانية من ضعف، فالمال والنهم والنساء وسائل يمكن استعماله مع الجويم ليكونوا أداة في يد اليهود ينفذون بسببها ما يطلب منهم. كما توصي البروتوكولات أن يضع اليهود في المراكز الكبيرة شخصيات مرموقة لها أخطاء لا يعرفها إلا اليهود، وفي ظل الخوف من إشاعة هذه الأخطاء تنفذ هذه الشخصيات لليهود ما يشيرون به.

وتهتم البروتوكولات بأن يسيطر اليهود في هذه المرحلة على الصحافة ودور النشر وجميع وسائل الإعلام حتى لا يتسرب للرأي العام العالمي إلا ما يريده اليهود.

ويستعمل اليهود المال وسيلة من أكبر وسائلهم، ليس للرشوة به فحسب كما سبق القول، بل لإثارة الثورات الداخلية عن طريقه، فهم يغرون الحاكم بجمع المال لنفسه، والظهور بمظهر البذخ والأبهة التي تناسب جلال الملوك وأمجادهم، ثم يدفعون الفقير ليثور ضد الحاكم الذي استحوذ على ثروة البلاد وغلبته الأنانية القاسية.

ويدفع اليهود بالدول الاستعمار، ويجر الاستعمار إلى التنافس بين هذه الدول، والتنافس وسيلة هامة من وسائل الحروب بين الدول المستعمرة، فإذا شبت الحروب بين الدول المستعمرة قدم اليهود لهؤلاء ولأولئك القروض والسلاح بشروط سهلة حيناً ومعقدة حيناً، وريح اليهود في هذه الصفقات مزدوج، فهم أولاً يستنزفون ثروات الدول ويجمعونها لأنفسهم، وهم ثانياً يسخرون بعض الجويم لقتل البعض الآخر.

وفي المؤسسات والمصانع يعمل اليهود على إفسادها بإشاعة الخلل في إدارتها والتخريب في أجهزتها كلما أمكنهم ذلك.

ويتشتت اليهود في كل أقطار العالم خلال هذه المرحلة ليختفوا عن المسرح العالمي حتى لا يتتبع الناس نشاطهم الهدام، هذا من جهة، ومن

جهة أخرى يتصل اليهود بأقطار مختلفة ويعملون متعاونين بالمال والعلم والنساء ليصلوا إلى القصور، وليكون لهم في إدارة البلاد شأن ونفوذ، فاليهود في فرقتهم متحدون وفي تشنتهم مجتمعون.

بعد تكوين الحكومة اليهودية العالمية:

إذا تحقق انتصار اليهود فإن اليهود يقيمون مملكة استبدادية تحكم العالم كله ويكون مقرها أورشليم، وحكمها للعالم يكون بطريق مباشر لو تم سقوط كل حكومات العالم، كما يكون بطريق غير مباشر أي من وراء الحكومات التي لم تسقط بعد، فإذا اكتمل النصر وسقطت كل الحكومات انتقلت العاصمة إلى روما حيث تستقر إلى الأبد ويتعاقب على العرش حكام من ذرية داود، (فالسياسة صناعة سرية سامية لا يحسنها إلا نخبة من اليهود دربوا عليها تدريبا تقليديا، وكشفت لهم أسرارها التي استنبطها حكماء صهيون من تجارب التاريخ وغيره خلال قرون طويلة، وهم يتناقلونها في الخفاء، وعليها يربون ملوكهم من يحيط من المستشارين (١)).

ويسوس اليهود الناس بالرشوة حيناً وبالعنف والارهاب حيناً، فمن خضع للمال والنساء والمناسب وأسلس القياد بذلك، قدم له هذا الدواء أو الدواء، ومن لم يخضع لذلك استعمل منه العنف، فالجوييم كقطعان البهائم أو الوحوش يخضعهم الإرهاب والإذلال فيصبحون كقطع الشطرنج تتصرف فيها أصابع اليهود حسبما تشاء هذه الأصابع.

(١) أنظر صبري أبو المجد: نهاية إسرائيل ص ١٤.

نماذج من البروتوكولات
[قبل قيام الحكومة اليهودية العالمية]

من البروتوكول الأول:

- يجب أن يلاحظ أن ذوي الطباع الفاسدة من الناس أكثر عددا من ذوي الطباع النبيلة، وإذن فخير النتائج في حكم العالم ما ينتزع بالحكم والارهاب، لا بالمناقشات الأكاديمية.

- إن الحرية السياسية ليست حقيقة بل فكرة، ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية، فيتخذها طعما لجذب العامة إلى صفه إذا كان قد قرر أن ينتزع سلطة منافس له، وتكون المشكلة يسيرة إذا كان هذا المنافس موبوءا بالأفكار التي تسمى تحررية فيتخلى عن بعض سلطته بسهولة.

- إن الجمهور غر غبي، ومن ارتفعوا من بينه ينغمسون في خلافات تعوق كل إمكان للالتقاء، وكل قرار للجمهور يصدر عن جهل بالأسرار السياسية ويقود للفوضى، وإذا نال الرعاع الحرية مسخوها فوضى واضطرابا.

- إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه.

- إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا - ونحن نضع خططنا - ألا نلتفت إلى ما هو أخلاقي وما هو خير، بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد.

- عندما تضطرب قوى المجتمع ستكون قوتنا أشد من أية قوة أخرى، لأنها ستكون مستورة حتى اللحظة التي تبلغ فيها مبلغا لا تستطيع معه أن تنسفها أية خطة ماكرة.

- إن ما يحقق السعادة أن تكون الحكومة في قبضة شخص واحد مسؤول، وبغير الاستبداد لا يمكن أن تقوم حضارة.
- في السياسة يجب أن تعلم كيف نصادر الأموال بلا أدنى تردد إذا كان هذا العمل يمكننا من السيادة والقوة، وإن دولتنا - في سبيل الفتوح السلمية - لها الحق أن تستبدل بأهوال الحرب أحكام الأعدام، والأعدام ضرورة تولد الطاعة العمياء، فالعنف وحده هو العامل الرئيسي في قوة الدولة.
- كنا قديما أول من صاح في الناس (الحرية - المساواة - الإخاء) وهي كلمات ما انفكت ترددها بباغوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر، وقد حرمت - بترديدها - العالم من نجاحه. من البروتوكول الثاني:
- إن نجاح دارون وماركس ونييتشه قد رتبناه من قبل، وإن الأثر غير الأخلاق لاتجاهات هذه العلوم لدى غير اليهود سيكون واضحا، ولكن ينبغي أن ندرس وتعي ما يلائم منها أخلاق الأمم وميولها.
- الصحافة هي القوة العظيمة التي نستطيع بها توجيه الناس، فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور، وتعلن شكاوى الشاكين، وتولد الضجيج بين الغوغاء، وقد سقطت الصحافة في أيدينا، ومن خلالها أحرزنا النفوذ وكدسنا الذهب دون أن نظهر للعيان.
- من البروتوكول الثالث:
- إن موازين المجتمع وتقاليده القائمة ستنهار سريعا، لأننا على الدوام نفقدها توازنها، كي نبليها بسرعة ونمحق كفايتها.

إن الناس مستعدون للفقير أكثر مما كانوا مستعبدين لقوانين رق الأرض، فمن الرق كانوا يستطيعون أن يحرروا أنفسهم بطريق أو بآخر، ولكن لا شيء يحررهم من طغيان الفقر الذي فرضناه عليهم.

- إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طبقاً لمبدأ الإخوة والمصلحة العامة للإنسانية.

- إن فائدتنا نحن في ذبول الأمميين وضعفهم، وقوتنا تكمن في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك نستبقه عبداً لإرادتنا إذ لن يجد قوة ولا عزماً للوقوف ضدنا.

حينما نستحوذ على السلطة يجب أن نمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية، باعتبار أنها رمز القوة الوحشية الذي يمسح الشعب حيوانات متعطشة للدماء. من البروتوكول الخامس:

- كان الناس ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الآلهة، فكانوا يخضعون في هدوء لاستبداد ملوكهم، ثم أوحينا إلى العامة بحقوقهم الذاتية وببشرية الملوك، فانساق العامة خلفنا وسقطت المسحة المقدسة عن رؤس الملوك، وانقلبت السلطة إلى رجل الشارع، فاختطفنا منه هذه السلطة دون أن يعي.

- لقد بذرنا الخلاف بين الأفراد كما بذرناه بين الأمم، ونشرنا التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً، فلم يعد من الممكن أن يلتقي الأفراد، ولا أن يلتقي الأمم.

- إن علم الاقتصاد السياسي الذي محصه علماءنا الفطاحل قد برهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج، ويجب أن نحصل على احتكار مطلق للصناعة والتجارة، وأن نحصل من التجار على أكبر ربح ليظلم التجار الجماهير ويثيروهم على الحكومات... من البروتوكول السادس:

بعد القضاء على أرستقراطية الأمميين كقوة سياسية ينبغي أن نقضي على الأرستقراطيين من ملاك الأرض، فهؤلاء خطر علينا لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم، ومن وسائل القضاة عليهم فرض الأجور والضرائب حتى تنهار مواردهم فيبدءون في بيع أراضيهم لأنهم بما تعودوه من ترف لا يستطيعون القناعة بالقليل.

- كي نخرب صناعة الأمميين سنزيد أجور العمال، ولكننا في الوقت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية فنسترد زيادة الأجور، ونعرض الصناعة للخراب، والعمال للفوضى. من البروتوكول الثامن:

- ملء المناصب الكبيرة باليهود في هذه المرحلة غير مأمون، ولذلك توصي البروتوكولات بأن يعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى الناس الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم، كي تقف مخازيهم فاصلا بين الأمة وبينهم، كذلك يوضع في هذه المناصب الناس الذين إذا عصوا الأوامر توقعوا المحاكمة والسجن، والغرض من كل هذا أن هؤلاء سيدافعون بحماس عن المصالح اليهودية التي وضعتهم في هذه المناصب وعرف زلاتهم.

من البروتوكول التاسع (١):

- لقد أصبحنا المشرعين من خلف الستار، فنستطيع أن نقضي بإعدام من نشاء، كما نستطيع العفو عن من نشاء.

- نحن نسخر في خدمتنا أناسا من جميع المذاهب والأحزاب، من رجال يرغبون في إعادة إنشاء الملكيات، واشتراكيين، وشيوعيين، وحالمين بالممالك الفاضلة، لقد وضعناهم جميعا تحت السرج، وكل منهم بطريقته الخاصة يحارب القوانين القائمة، ويقوض النظم الحكومية ببلده، وسنرث في النهاية كل هذه الحكومات.

- لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين، وجعلناه فاسدا متعفنا بما علمناه من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها التام.

من البروتوكول العاشر:

- إذا أوحينا إلى عقل كل فرد أهميته الذاتية، فسوف ندمر الحياة الأسرية بين الأمميين وأهميتها التربوية.

- إذ استطعنا أن نصل إلى إقامة عصر جمهوري فسيمكننا أن نضع بدل الملك المقدس ناطورا في شخص رئيس لهذه الجمهورية، ونختاره من الدهماء من بين مخلوقاتنا وعبيدنا وأمثال هؤلاء يختارون ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيح أو صفقة أخرى سريعة، وإن رئيسا من هذا النوع سيكون منفذا لأغراضنا لأنه سيخشى التشهير، وسيبقى خاصا

(١) من تعليقات المترجم على هذا البروتوكول أن اليهود يدخلون في الأديان الأخرى في الظاهر، ويمضي جيلان وهم يتنقلون من مكان إلى مكان، ويظهر أحفادهم دون أن يعرف أحد صلتهم باليهودية، ويؤلفون الجمعيات أو ينضمون إليها، وفي ظروف كثيرة يخدمون اليهود دون أن يتهمهم أحد (أنظر ص ٩٦).

لسلطان الخوف الذي يمتلك دائما الرجل الذي وصل إلى السلطة، والذي يتلهف على أن يستبقي امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع.

[بعد قيام الحكومة اليهودية العالمية]

من البروتوكول الحادي عشر:

- من رحمة الله أن شعبه المختار مشئت، وهذا التشتت الذي يبدو ضعفا فينا أمام العالم، قد ثبت أنه كل قوتنا التي وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية.

من البروتوكول الثاني عشر:

- كان دور الصحافة تهيج العواطف وإثارة المجادلات الحزبية التي كانت ضرورية لمقاصدنا، ولكن بعد انتصارنا يتغير كل شيء، فسنقود الصحف بلجم حازمة، ونسيطر على شركات النشر، ونصادر الصحف والكتب التي لا تتماشى مع أغراضنا، ونفرض على النشر ضرائب باهظة ونعطل الصحف التي تكرر نقدها لنا. وسندس بين النشرات الهجومية نشرات من عملنا نحن، ولكنها لن تهاجم إلا النقط التي نعترم تغييرها في سياستنا، ونسيطر على وكالات الأنباء بحيث لا يصل المجتمع خبر دون أن يمر على إدارتنا.

- سنلهي الجماهير بأنواع شتى من الملاهي والألعاب لملء الفراغ، وسندعو الناس للدخول في مباريات شتى في كل أنواع المشروعات كالقن والرياضة وما إليها.

- وحينما نمكن لأنفسنا ونكون سادة الأرض لن نسمح بقيام أي دين غير ديننا، وسنكون قد حطمنا كل عقائد الأديان الأخرى، وسيفضح فلاسفتنا كل مساوئ الديانات الأممية.

من البروتوكول السابع عشر:
سنغير الجامعات ونعيد إنشائها حسب خططنا الخاصة، وسيكون مديروها
وأساتذتها معدين إعدادا خاصا، وسيلته برنامج سري متقن، سيهدبون
ويشكلون بحسبه، ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب، وسيرشحون
بعناية بالغة، وسيكونون معتمدين كل الاعتماد على الحكومة، ولن يسمح
للجامعات أن تخرج للعالم فتيانا خضر الشباب ذوي أفكار عن الاصلاحات
الدستورية الجديدة، أو ذوي اهتمام بالمسائل السياسية على الاطلاق، كما سنمحو
كل أنواع التعليم الخاص.

من البروتوكول الثامن عشر:

- سنحد نطاق عمل مهنة المحاماة، وسنضع المحامين على قدم المساواة مع
الموظفين المنفذين، والمحامون - كالقضاة - لن يكون لهم الحق في أن يقابلوا
عملاءهم، وستعينهم المحكمة، وسيكون أجرهم محدودا سواء كان الدفاع
ناجحا أو غير ناجح.

- وسنحط من كرامة رجال الدين الأميين لننجح في الاضرار برسالتهم،
ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية انهيارا تاما، وستبعها
في الانهيار باقي الأديان، ويصير ملك إسرائيل (بابا) للعالم:
من البروتوكول التاسع عشر:

- إن أية ثورة ضدنا ينبغي أن تصير كنباح كلب على فيل، فليس على
الفيل إلا أن يظهر بمثل واحد متقن من التدمير حتى تكلف الكلاب عن
النباح، وتشرع في البصصة بأذنانها عندما ترى الفيل، ولكي ننزع عن المجرم
السياسي تاج شجاعته سنضعه في مراتب المجرمين الآخرين بحيث يستوي مع
اللصوص والقتلة الأخرى من الأشرار المنبوذين المكروهين.

مباحث البروتوكولات الباقية:
تهتم البروتوكولات الباقية بشرح البرنامج المالي للدولة اليهودية العالمية،
ونظام الضرائب الذي ستتبعه، والعملية والقروض والبورصة والسندات،
ومعالجة البطالة والأسلوب الذي يربى عليه الملوك من أحفاد داود ليبقى ملكهم
ما بقي الزمن.

هذه صورة سريعة لهذه البروتوكولات، ومنها يبدو ما بها من خطر
على الأفراد وعلى الشعوب والمدنيات.

الباب الخامس
من صور التشريع في اليهودية

موسى والتشريع:
ينسب إلى موسى عليه السلام أنه أول من رسم لليهود السلطة التشريعية،
ويذكر Hosmer أن موسى وضع أسس التشريع في التوراة، فأصبحت
المرجع القانوني، كما أصبحت حجر الأساس لبناء الدولة اليهودية. ويذكر
Weech أن موسى كان قائداً لبني إسرائيل وكان بجانب ذلك مرشداً
ومشرعاً لهم، وقد سق أن اقتبسنا ذلك، كما تحدثنا عن التوراة التي تنسب
إلى موسى وقررنا أن الأسفار الخمسة المسماة بالتوراة والموجودة الآن ليست
مما أوحى إلى موسى، وليست من كتابته أو إملائه، بل هي من تأليف
كتاب متأخرين، وأن الوصايا العشر أو بعضها هي ما تبقى لنا من توراة
موسى، وما عدا هذه الوصايا من تشريعات فهو من صنع الكهنة والرهبان
من اللاويين أبناء ليفي الذين كان لهم الحق في وضع الأحكام للأمة العبرية (١)،
ولم يكن أحد غير هؤلاء يستطيع أن يقرب القرابين بالطريقة الصحيحة أو يفسر
الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ (٢). وهكذا وضع الكهنة
والرهبان هذه التشريعات يقررون بها حقوقاً لأنفسهم وتقاليد لقومهم،
وقد آن لنا أن نقبس الوصايا العشر ثم نتبعها بحديث عن التشريع الذي
وضعه الكهنة والرهبان:
الوصايا العشر:

من مطالعة أسفار موسى الخمسة يتضح لنا أن الوصايا العشر وردت
في صيغتين، إحداهما أكثر اتصالاً بالدين والعقيدة، وقد جاءت في الأصحاح
الرابع والثلاثين من سفر الخروج، والأخرى أكثر اتصالاً بالعادات

(١) محمد صبري: المقارنات والمقابلات ص ٣٧٢.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٦.

والتشريع، وقد وردت في الأصحاح العشرين من سفر الخروج وفي الأصحاح الخامس من سفر التثنية، وهناك في الصيغتين توافق في بعض الوصايا ثم اختلاف في البعض الآخر، فتتجه الصيغة الأولى للعقيدة، والثانية للتقاليد والآداب كما مر.

ونص الصيغة الأولى كالاتي:

اصنع ما أنا موصيك اليوم:

- لا تسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور، إله غيور هو...

- لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة.

- تحفظ عيد الفطير، سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك في وقت شهر أبيب، لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر.

- لي كل فاتح رحم (أي البكري يقدم قربانا) وكل بكر من بنيك تفديه، وكذلك تفدى بكر الحمار.

- أول أبكار الأرض تحضره إلى بيت الرب إلهك.

- ستة أيام تعمل، أما اليوم السابع فتسريح فيه.

- اصنع لنفسك عيد الحصاد، عند حصاد الحنطة وعند الجمع في آخر السنة.

- لا تذبح على خمير دم ذبيحتي.

- لا تبت إلى الغد ذبيحة عيد الفصح.

- لا تطبخ جديا بلبن أمه.

هذه هي كلمات العهد، الكلمات العشر (١).

(١) خروج ٣٤: ١١ - ٢٨.

ونص الصيغة الثانية كالآتي (١):

- أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأنني أنا الرب إلهك إله غيور.

- أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي.

- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا.

- اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملا ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمنتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه.

- أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك.

- لا تقتل.

- لا تزن.

- لا تسرق.

- لا تشهد على قريبك شهادة زور.

(١) الأصحاح العشرين سفر الخروج ٣ - ١٧ والأصحاح الخامس من سفر التثنية ٦ - ٢٢.

– لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته ولا ثورة ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.
تشريعات أخرى من التوراة:

وفي أسفار التوراة الموجودة بين أيدينا، تزدحم التشريعات في سفر الخروج واللاويين والعدد والتثنية، وفيما يلي نماذج من التشريعات سفر الخروج:

– من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً، ولكن الذي لم يتعمد فليكن له مكان يهرب إليه، ومن سرق إنساناً وباعه، أو وجد في يده يقتل قتلاً، ومن شتم أباه وأمه يقتل قتلاً، وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه، لكن إن بقي يوماً أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله، وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة، فمات، يرحم الثور ولا يؤكل لحمه، وأما صاحب الثور فيكون بريئاً، ولكن إن كان ثوراً نطاحاً من قبل، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرحم وصاحبه أيضاً يقتل (١).

– إذا سرق إنسان ثوراً أو شاة فذبحه أو باعه يعرض عن الثور بخمسة ثيران، وعن الشاة بأربعة من الغنم، إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم، ولكن إن أشرقت عليه الشمس فله دم (٢).

وفي سفر اللاويين أحكام تتصل بالقرايين والطقوس والأعياد والندور والمحرقات وكفارات الذنوب، وفيه كذلك شروح ضافية لمكانة اللاويين وخيمة الاجتماع، والمحرمات في الزواج، والطعام الذي يحل والذي يحرم، ومن هذا السفر يمكن أن نقبس بعض التشريعات:

(١) من الأصحاح الحادي والعشرين. (٢) من الأصحاح الثاني والعشرين.

- إذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل، بالحجارة
يرجمونه، دمه عليه (١).

- متى ولد بقر أو غنم يكون سبعة أيام تحت أمه ثم من اليوم الثامن
فصاعدا يرضى به قربانا وقودا للرب (٢).
- الأرض لاتباع بته، لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء
عندي (٣).

وفي سفر العدد - بالإضافة إلى العد والاحصاء - توجد تشريعات حول
نقاط كثيرة، منها ما سمي بشريعة الغيرة واللعان والاعتراف، وقد ورد ذلك
مفصلا في الأصحاح الخامس، وستحدث عن موضوع الاعتراف فيما بعد،
وهناك تشريعات أخرى بهذا السفر نقتبس منها ما يلي:

- من مس ميتا، ميتة إنسان ما، يكون نجسا سبعة أيام، يتطهر في اليوم
الثالث وفي اليوم السابع يكون طاهرا، وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم
السابع لا يكون طاهرا، هذه هي الشريعة، إذا مات إنسان في خيمة فكل من
دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام، وكل إناء مفتوح
ليس عليه سداد بعصاة فإنه نجس (٤).

- وكلم موسى رؤس أسباط بني إسرائيل قائلا: هذا ما أمر به الرب،
إذا نذر رجل نذرا للرب، أو أقسم قسما أن يلزم نفسه يلازم فلا ينقص كلامه،
حسب كل ما خرج من فمه يفعل، وأما المرأة فإذا نذرت نذرا للرب،
والترمت يلازم في بيت أبيها في صباها وسمع أبوها نذرها، فإن سكت ثبت

(١) الأصحاح العشرين. (٢) من الأصحاح الثاني والعشرين.

(٣) من الأصحاح الخامس والعشرين. (٤) من الأصحاح التاسع عشر.

نذرها، وإن نهاها أبوها يوم سمعه لا تثبت، وإن كانت متزوجة فالزوج كالأب (١).

وفي سفر التثنية تكرار للتشريعات والتعاليم التي وردت في الأسفار السابقة بالإضافة إلى تشريعات أخرى استحدثت فيه، وفيما يلي نماذج من تشريعات هذا السفر.

- احفظ شهر أيب واعمَل فصحا للرب إلهك لأنه في شهر أيب أخرجك الرب إلهك من مصر ليلا، فتذبح الفصح للرب إلهك غنما وبقرا في المكان الذي يختاره الرب، ليحل اسمه فيه، لا تأكل عليه خميرا سبعة أيام، تأكل عليه فطيرا خبز المشقة، لأنك بعجلة خرجت من أرض مصر (٢).

- لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التي يخطئ بها، على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر (٣)، نماذج لموضوعات عالجهما التشريع اليهودي:

هذا لون من ألوان التشريعات التي وردت في أسفار موسى، وهناك تشريعات اجتماعية بالغة الخطورة وردت في التلمود، وتشريعات سياسية مهمة وردت في بروتوكولات حكماء صهيون، وقد أوردنا عن هذا وذلك دراسة ضافية في الباب السابق، ونريد الآن أن نورد نماذج لبعض التشريعات المتصلة بمسائل مهمة كموقف اليهودية من المرأة، ومن الرق، والاعتراف، ورأيها في الميراث، والربا، والمحرمات في الزواج، وغيرها وقد اعتمدنا في تحقيق هذه المسائل على المراجع اليهودية الدقيقة، وسيمكننا بعرض هذه المسائل أن نبرز المقارنة بين التشريعات في اليهودية والتشريعات في الإسلام.

(١) من الأصحاح الثلاثين. (٢) من الأصحاح السادس عشر.

(٣) الأصحاح التاسع عشر.

الاعتراف والتطهير:

في الفكر اليهودي تكثر الخطايا، ففي كل شهوة من الشهوات تكمن الخطيئة، فالخطيئة تدنس المخطئ، والحيض والولادة كالخطيئة يندسان المرأة، ويتطلبان تطهيرا ذا مراسم وتقاليد وتضحية وصلاة على يد الكهنة، والهبات والقرايين هي الوسيلة للتكفير عن الخطايا، على أن تقدم للكهنة بعد الاعتراف الكامل بما ارتكب الإنسان من إثم، وعلى هذا كان المجتمع اليهودي مجتمع خطايا، ومجتمع تكفير وغفران في نفس الوقت، حتى أن التاجر كان ولا يزال يطفف الكيل ويغش في الميزان، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة (١). وقد أورد سفر العدد صورة مفصلة للمرأة التي تريد أن يغفر لها، وضرورة أن تذهب للكاهن لتعترف عنده بخطيئتها، وذكر السفر أن الكاهن يوقفها أمام الرب ويأخذ ماء مقدسا في إناء خزف، ويتلو عليه ترانيم وأدعية، ويطلب الكاهن من المرأة الاعتراف، فإن رفضت سقاها من هذا الماء الذي يسمى ماء اللعنة، وهددها بأن هذا الماء إذا دخل أحشاءها وهي مذنبية لم تعترف، ورم بطبها وسقط فخذها... (٢) وإذا اعترف استطاع الكاهن أن يطهرها بالقرايين والهبات والأدعية (٣).

الرق:

أباح التوراة الاسترقاق بطريق الشراء أو سببا في الحرب، فجعلت

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٥٤.

(٢) الأصحاح الخامس: الفقرة ١١ وما بعدها.

(٣) روى لي أحد العلماء الأفاضل حادثة وثيقة الصلة بموضوعنا، فقد ذكر له أحد اليهود الذين أسلموا حديثا أنه رأى امرأة يهودية يخلو بها الكاهن للاعتراف والتطهير، وخرجت المرأة من الخلوة مغفورا لها، وثارت نفس اليهودي على هذا الوضع وبخاصة أن الشك لعب به لما لاحظته من اضطراب على المرأة حين خروجها، وصادف أن ذهب اليهودي في نفس اليوم للعزاء في أحد المسلمين فسمع المقرئ يتلو قوله تعالى (ومن يغفر الذنوب إلا الله؟) وقد دفعت هذه المقارنة هذا اليهودي إلى أن يدخل في دين الإسلام.

للعبري أن يستعبد العبري إذا افتقر، فيبيع نفسه للغني، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفى له الثمن، ويبقى عبداً له ست سنين ثم يتحرر، ففي سفر الخروج: إذا اشترت عبداً عبرياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً، وإذا سرق العبري ماشية وذبحها، أو أي شيء استهلكه، ولم يكن في يده ما يعرض به صاحبه يباع السارق بسرقة كما نصت التوراة على ذلك في سفر الخروج، وأباح التوراة للعبري أن يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها (١).

أما الاسترقاق سبياً في الحرب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم وقد نص العهد القديم على ما يلي:

(حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك (٢).
الختان:

قلنا - عند الحديث عن الكهنة والقرايين - إن الختان ارتبط عند اليهود بالقرابان، فقد كان الإنسان نفسه يقدم قرباناً من قبل، ثم اكتفت الآلهة بجزء من الإنسان، وذلك الجزء هو ما يقتطع في عملية الختان، وقد كان الختان سنة شائعة عند المصريين الأقدمين، وكان عندهم للوقاية الصحية من الأقدار التي تتعرض لها الأعضاء التناسلية، وقد اقتبسها

(١) سفر الخروج ٢١: ٢ وما بعدها.

(٢) سفر التثنية الأصحاح العشرون وانظر كتاب الإسلام للمؤلف ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

اليهود من المصريين وجعلوه مرتبطا بالقرايين والضحايا التي تقدم للغفران وإرضاء الآلهة.

وبمرور الزمن أصبح الختان لدى اليهود فريضة يحتمها الولاء للجنس، فعلى اليهودي أن يقوم بعملية الختان ليبرهن على أنه يهودي، وقبيل عهد المكابيين كان الختان يجرى للذكر والأنثى بصورة بسيطة تمكن الشخص من الادعاء بأنه غير مختون ليتقي عدوان غير اليهود عليه، فلما جاء المكابيون أمر الكهنة أن تزال الغلفة عن آخرها حتى لا يحاول اليهودي الاندماج في غير اليهود من الشعوب (١).

الميراث (*):

أول من يرث الميت ولده الذكر، وإذا تعدد الذكور من الأولاد فللبكرى حظ اثنين من إخوته، ولا فرق بين المولود بنكاح صحيح أو غير صحيح من الأولاد في الموارث، فيعطى لكل منهم نصيبه يقطع النظر عن النكاح الذي ولد منه، ولا يحرم البكري من امتيازته بسبب كونه من نكاح غير شرعي، أما البنات فمن لم تبلغ منهن الثانية عشرة فلها النفقة والتربية حتى تبلغ هذه السن تماما، وليس لها شيء بعد ذلك (٢).

(١) أنظر قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٥ و ٣٧١ وانظر الهامش بهذه الصفحة.
* من بين مراجعنا في الأبحاث التالية ثلاثة مراجع في منتهى الأهمية (الأحكام العبرية) الذي ألفه العالم الفريسي (دى بجلي) وترجمه إلى اللغة العربية للقاضي المصري الأستاذ محمد صبري وأضاف له بعض مقارنات بالشرعية الإسلامية وجعل عنوانه (المقارنات والمقابلات) وقد اعتمد المؤلف على كبار العلماء والمشرعين اليهود، وذكر عقب كل اقتباس مرجعه، ونقل المترجم ذلك بكل دقة في الترجمة العربية. أما المرجع الثاني فهو (شعار الخضر في الأحكام الشرعية الإسرائيلية للقرائين) ومؤلفه اسمه الياهو بشياصى) وقد ترجمه إلى العربية من العبرية الأستاذ مراد فرج، والمرجع الثالث مجموعة من الأبحاث عن اليهودية نشرها بالإنجليزية (Arthur Hertzberg) بعنوان (Judaism).
(٢) المقارنات والمقابلات ص ٣٣٤.

وإذا لم يكن للميت ولد ذكر فميراثه لابن ابنه، وإذا لم يكن له ابن انتقل الميراث إلى البنت فأولادها وهكذا (١)، ويرى القراءون أن يكون للبنت نصيب مع الولد، سهمان للولد وسهم للبنت (٢)، فإذا لم تكن له ذرية فميراثه لأصوله، وأحق الأصول بميراث الميت أبوه، وله كل التركة فإن لم يكن له أب فجدّه، وإذا لم يكن له أصول انتقل الميراث إلى درجات الأقارب الفرعية من الذكور (٣)، وإذا لم يكن للميت وارث من فروع أو أصول أو حواش كانت أمواله مباحة يمتلكها أسبق الناس إلى حيازتها، وتظل وديعة في يد حائزها مدة ثلاث سنوات، فإذا لم يظهر الميت وارث خلالها صارت ملكاً تاماً لحائزها (٤).

وعند اختلاف الدين يرث اليهودي أقاربه اليهود، ولا يرث الأقارب غير اليهود اليهودي (٥).

النكاح وتعدد الزوجات:

السن المفروضة لصحة التزوج هي الثالثة عشرة للرجل والثانية عشرة للمرأة، ولكن يجوز نكاح من بدت عليه علامات بلوغ الحلم قبل هذه السن، ومن بلغ العشرين ولم يتزوج فقد استحق اللعنة، وتعدد الزوجات جائز شرعاً بدون حد، ولم يرد بالتوراة ولا أحكام الأنبياء قبل الإسلام نهى عن تعدد الزوجات ولا عن تحديد عددهن، وعلى العكس من ذلك فقد ورد في التوراة ما يفيد تعدد الزوجات والأنبياء ولغير الأنبياء (٦). وحدد الربانيون الزوجات بأربع وأطلقه القراءون (٧)، ويقول

-
- (١) المقارنات والمقابلات ص ٢٥٠. (٢) شعار الحضرة ص ١٥٤.
(٣) المقارنات والمقابلات ص ٢٥١. (٤) المقارنات والمقابلات ص ٢٥٢.
(٥) أنظر المرجع السابق ص ٢٦١.
(٦) المقارنات والمقابلات ص ٣٧١ - ٣٧٢.
(٧) شعار الحضرة ص ٨٣.

غوستاف لوبون: وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعا كثيرا لدى بني إسرائيل على الدوام، وما كان القانون المدني أو الشرعي ليعارضه (١). وغير اليهود يعتبرون وثنيين في نظر اليهود، ومن أجل هذا لا يجيزون زواج اليهودي أو اليهودية من غير اليهود (٢). وعن المحرمات للزواج تمنع الديانة اليهودية أن يتزوج الرجل من كانت زوجة لعمه، ومن كانت زوجة لأخيه إذا أنجبت منه (٢)، ولا تجعل اليهودية الرضاعة سببا للتحريم (٤)، وفيما يتعلق بزوجة الأخ المتوفى فقد نصت التوراة على أنه إذا لم يكن للمتوفى ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي، بل يدخل عليها أخو زوجها ويتخذها لنفسه زوجة، والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت، لئلا يمحي اسمه من إسرائيل (٥)، ولا يزال الربانيون يعملون بهذا التشريع، أما القراءون فيرون أن هذا التشريع قد نسخ من زمن ولا يزال منسوخا (٦).

وبعض القرائين يحرمون امرأة زوج الأخت، فإذا تزوج زوج الأخت زوجة أخرى ثم طلقها أو مات عنها فإنها تكون محرمة على إخوة ضررتها، وبعضهم يجعل الزوج والزوجة كشخص واحد ويجرون التحريم على هذا الأساس، ومعنى هذا أنه يحرم على الزوجة ما يحرم على زوجها لو قدر زوجها امرأة. أي أنها يحرم عليها أخوه وعمه وخاله وابنه (٧).

(١) اليهود في الحضارات الأولى ص ٥٠. (٢) المقارنات والمقابلات ص ٣٧٢.

(٣) المقارنات والمقابلات ص ٣٧٤. (٤) المرجع السابق ص ٣٧٦.

(٥) التثنية ٢٥: ٥ - ٦. (٦) شعار الحضر ص ١٨٠.

(٧) شعار الحضر ص ٢٨ و ٣٢.

المرأة:

يقول بابا بتره: ما أسعد من رزقه الله ذكورا، وما أسوأ حظ من لم يرزق بغير الإناث، نعم لا ينكر لزوم الإناث للتناسل إلا أن الذرية كالتجارة سواء بسواء، فالجلد والعطر كلاهما لازم للناس إلا أن النفس تميل إلى رائحة العطر الزكية، وتكره رائحة الجلد الخبيثة، فهل يقاس الجلد بالعطر (١)؟ وقد ورد بالعهد القديم عن المرأة ما يلي:

(درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماسة أنها جنون، فوجدت أمر من الموت المرأة التي هي شباك وقلبا أشراك، ويدها قيود) (٢).

والزواج في اليهودية صفقة شراء تمد المرأة به مملوكة، تشتري من أبيها فيكون زوجها سيدها المطلق (٣)، ويتم الزواج إذا باركه أحد الكهنة (ربي) [أي أستاذ]، وقدم الرجل للمرأة خاتما أو هدية أخرى لها قيمة في حضور شاهدين على الأقل، ويعتبر ذلك عقدا، وإذا حضر العقد عشرة رجال فأكثر، اتبع العقد بصلوات وأدعية يشترك فيها الجميع (٤)، ومن تقاليد الفكر اليهودي أن الرجل إذا تزوج لا يلتحق بالجيش، ولا يرتبط بأعمال تبعده عن زوجته مدة عام، فشهر العسل في الفكر اليهودي عام كامل (٥).

(١) المقارنات والمقابلات ص ٣٨٧.

(٢) سفر الجامعة: الأصحاح السابع: المقرنان ٢٥ - ٢٦.

(٣) غوستاف لوبون: اليهود في الحضارات الأولى ص ٥٢.

(٤) Judaism p ٨٤.

(٥) ibid p ٧٦.

والمرأة المتزوجة كالقاصر والصبي والمجنون، لا يجوز لها البيع ولا الشراء (١) وينص الفكر اليهودي على أن جميع مال المرأة ملك لزوجها، وليس لها سوى ما فرض لها من مؤخر الصداق في عقد الزواج تطالب به بعد موته، أو عند الطلاق منه، وعلى هذا فكل ما دخلت به من مال، وكل ما تلتقطه وما تكسبه من سعي وعمل، وكل ما يهدى إليها في عرسها، ملك لحلال لزوجها، يتصرف فيه كيف شاء بدون معارض ولا منازع.

وبالنسبة لكثرة ما شوهد من وقوع الشقاق والفرقة بين الأزواج، فقد قرأ أي السادة (الأرباب) على وجوب الأخذ بمشروع (وقف الزوجية) ومعنى وقف الزوجية أن توقف أموال الزوجة، ويصير الزوج قيما عليها، يستغلها، دون أن يبيعها أو يرهنها، فتصبح الزوجة بذلك مالكة لرغبة الأموال والزوج مالكا للمنفعة فإذا حصلت الفرقة عادة الثروة للزوجة (٢).

وعلى الزوجة مهما بلغت ثروتها ومكانتها أن تقوم بالأعمال اللازمة لبيتها، صغيرة كانت الأعمال أو كبيرة (٣)، ويحدد Arthur Hertzberg دور المرأة في أعمال المنزل فيقول: إن على المرأة أن تطحن الحبوب، وتخبز، وتغسل الملابس، وتطبخ، وترضع ولدها وتنظف البيت وتنظمه وتعزل وتخيط الثياب، ولكنها إن أحضرت معها خادما تابعا لها من بيت أبيها فإنها تعفى من الطحن والخبز والغسيل، وإن أحضرت خادمين معها أعفيت من الطبخ والرضاعة وإذا أحضرت ثلاثة فإنها تعفى من تنظيف البيت وتنظيمه، وإذا أحضرت أربعة فإنها تعفى من كل الأعمال ولكن ربي Eliezer يقول: إن الزوجة إذا أحضرت معها مائة خادم،

(١) المرجع السابق ص ٢١٤.

(٢) المقارنات والمقابلات ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٤.

فإنها لا تعفى من الغزل، ولزوجها أن يرغمها عليه، لأن البطالة تقود للفساد (١).

ولا تترث المرأة زوجها، وكل مالها بعد موته هو مؤجل الصداق، أما باقي ثروتها فقد آل كما قلنا آنفا إلى زوجها ومنه إلى ورثته، وإذا أخذت مؤجل صداقها مضت إلى حال سبيلها، أما إذا لم تطالب به فلها أن تعيش مع الورثة من مال التركة (٢).

بعض الواجبات الدينية

يقرر Hosmer أن الواجبات الدينية عند اليهود كانت تشغل قدرا كبيرا من وقتهم ومن نشاطهم (٣)، وسنقيس هنا بعض صور من هذه الواجبات الدينية.

زيارة بيت المقدس:

كان يتحتم على كل يهودي ذكر رشيد أن يزور بيت المقدس مرتين في العام، وأن يبقى به أسبوعا كل مرة، ويبدأ الأسبوع يوم الجمعة، وتقام خلاله احتفالات يحضرها الوافدون، ويقودها الكهنة واللاويون، وقد قصد بهذه الزيارة أن تتيح فرصة لكان فلسطين أيا كانت مناطقهم أن يتعارفوا ويتحدوا (٤).

الأعياد:

تكثر الأعياد عند اليهود كثرة بالغة، ومنها ما يتصل بالأحداث التاريخية، ومنها ما يتصل بمواسم الزراعة والحصاد، ومنها ما يتصل بالهلال أو التوبة

(١) Judaism p ٧٧. (٢) شعار الحضرة ص ١٦٣.

(٣) The Jews p ٨٣.

(٤) Ibid pp - ٨٤، ٨٣ Judaism p ١١٢.

والتكفير عن الذنوب، وقد وردت أكثر هذه الأعياد في الأصحاح الثالث والعشرين من سفر اللاويين، وسنذكر هنا بعضاً من أهم هذه الأعياد:
عيد الفصح Passover:

هذا العيد هو يوم الذكرى لخروج بني إسرائيل من مصر ومن العبودية التي كانوا يخضعون لها، ويقول علماء اليهود إن هذه الذكرى لا يمكن أن تنسى فقد جاء الرب بنفسه - دون أن يكتفي بملائكته - وقاد شعبه وأخرجهم من إطار العبودية، وكان خروجهم سريعاً فلم يعدوا خبزهم كالعادة، وإنما أعدوه فطيراً دون أن يختمر، وعلى هذا ففي خلال الفصح الذي يستغرق الأسبوع الثالث من شهر أيب (نيسان = إبريل) من اليوم الرابع عشر مساءً إلى اليوم الحادي والعشرين مساءً يكون طعام اليهود خبزاً غير مختمر ويبدأ اليوم الأول من هذا الأسبوع بحفل مقدس ويختم الأسبوع بحفل مقدس أيضاً، وفي هذين الحفلين تتلى أدعية وتقام صلاة وتحرق القرابين (١).
الهلال الجديد:

يلقى الاحتفال بالهلال الجديد عناية كبيرة في الفكر اليهودي، وكان يسمى عبد النفير لأن الأبواق كانت تستعمل في الإعلام بظهوره، وكان الناس يتبارون في مراقبة الهلال ومحاولة السبق في رؤياه، وكان الذي يراه أولاً يسارع إلى بيت المقدس ليخبر بذلك الكهنة والرؤساء، وأحياناً كان يقام سباق بين الذين شاهدوا الهلال وكل منهم يحاول أن يكون له قصب السبق، وينفخ في الأبواق إعلاناً بالشهر الجديد وتشعل النيران على جبال الزيتون، وعندما يراها سكان التلال البعيدة يشعلون هم أيضاً النيران على تلالهم (٢).

(١) ١١٤ - Judaism pp ١١٣ وسفر الخروج ١٢ : ١٥ - ٢٠ ولاويون
٢٣ : ٤ - ٨.

(٢) The Jews p ٨٤ : Hosmer.

السبت:

يوم السبت من الأيام المقدسة عند اليهود، التي تجب مراعاة حرمتها مراعاة تامة، فلا يجوز لليهودي الاشتغال فيه، ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالاشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً.

ولم يكن عند اليهود خطيئة أعظم من عدم حفظ يوم السبت، إلا عبادة الأوثان (١)، والسبت هو (Shabbath) في العبرانية بمعنى راحة، لأنه يوم الرب، فيه استراح، وأمر عباده بالاستراحة فيه وباركها، وقد أمرت الوصية الرابعة بمراعاة حفظ حرمة يوم السبت، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك (٢)، ويضع المفكرون اليهود هذا الموضوع في صورة يرفضها الفكر الإسلامي، فيقول Arthur Hertzberg: إن الإنسان ند لله وشريك له في خلق الكون، فالله عمل ثم استراح والإنسان يعمل دوره في الخلق ثم عليه أن يستريح، وقد أوصت أسفار موسى بذلك، وحثمت التفرغ تماماً عن العمل يوم السبت، وأبرز الأنبياء أهمية الراحة يوم السبت وجعلوها مصدراً للروحانيات وللتشبيه بالله الذي هو غاية ما يتمنى (٣)، ولعل تسمية هذا اليوم بل لعل العادة نفسها قد جاءت من البابليين، فقد كان هؤلاء يطلقون على أيام الصوم وأيام الدعاء (شبتو) (٤) ومما ورد عن يوم السبت في الكتاب المقدس النص التالي: تحفظون السبت لأنه مقدس لكم، من دنسه يقتل قتلاً، إن كان من صنع فيه عملاً تقطع تلك النفس من بين شعبها، ستة أيام يصنع عمل أما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب، لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفي اليوم السابع استراح وتنفس (٥).

(١) قاموس الكتاب المقدس ج ١ ص ٥٣٧.

(٢) أنظر تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ج ٦ ص ١١٩.

(٣) Judaism P ١٠١. (٤) ول ديورانت قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٧٣.

(٥) خروج ٣١. ١٤ - ١٧.

يوم التفكير:

هو يوم في العام يحاول فيه اليهودي أن يعبد الله، لا كإنسان بل كملاك، والملاك لا يأكل ولا يشرب ويمضى وقته كله في العبادة وتعظيم الله، فعلى اليهودي أن يعيش هذا اليوم كما تعيش الملائكة في صوم جاد وعبادة دائمة، وهذا اليوم يسبق بتسعة أيام تسمى أيام التوبة، حيث يطهر اليهودي خلالها تطهيرا يكفل له النقاء خلال العام القادم، وفي اليوم العاشر يوم الصوم والعبادة تكمل طهارة اليهود وتغفر لهم سيئاتهم عن الماضي ويعدون لاستقبال عام جديد، وتقع هذه الأيام في الشهر السابع من شهور السنة اليهودية (١).

(١) ١٣٢ - Judaism pp ١٣١.

الباب السادس
اليهود في الظلام

(٣٠٧)

لعب اليهود في الخفاء دورا ضخما لتحقيق أهدافهم لا يقل عن الدور الذي لعبوه في العلانية، وقد اتسع نطاق هذا الدور فشمّل التآمر والاعتقال، وشمّل التجسس وإشعال الثورات وغيرها من ضروب الغدر، وفي هذا الباب سنذكر الخطوط العريضة لهذه الأحداث الجسام:

الإثارة وبث الفتن
يقرر الباحثون أن الدور الذي قام به اليهود في بث روح الثورة وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة عظيم جدا ومؤكّد جدا، فهم دعاة الثورة وقادة التقويض، وعندهم يقول الكاتب العظيم برنارد لازار (اليهودي يضطرم بروح ثوري وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أو لم يشعر) ومما يؤكّد نسبة أكثر الحركات الهدامة السرية لليهود، أنه تظهر دائما في هذه الحركات آثار التعاليم اليهودية الفلسفية (١).

ويعترف اليهود بذلك، فقد ورد في مجلة الجامعة الإسرائيلية نص خطير بهذا الشأن، اقتطفه Louis Daste ووضع على غلاف كتاب عن (اليهود والجمعيات السرية) وفيما يلي هذا النص:

تصادف في كل التغييرات الفكرية الكبرى تقريبا عملا يهوديا، سواء كان ظاهرا واضحا أو خفيا سريا، وعلى هذا فإن التاريخ اليهودي يمتد بامتداد التاريخ العالمي بجميع مجالاته، حيث تغلغل فيه بآلاف الدسائس (٢).

(١) محمد عبد الله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ص ١١٦ - ١١٧ بتقديم وتأخير.

(٢) الجامعة الإسرائيلية ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٧ ص ٥٨٥ و (اليهود والجمعيات السرية) تأليف Louis Daste (صفحة الغلاف الإمامية).

وقد رأينا من قبل أن كثيرين من اليهود لم يرحبوا بالفرصة التي أتاحتها لهم قورش للعودة لفلسطين، وآثروا البقاء في فارس وفي أرض بابل لينعموا هناك بالغنى والجاه، وفي تلك المنطقة نفث اليهود سمومهم، ولما جاء الإسلام عاداه اليهود ووقف كذلك في وجهه قادة الفرص وأمرأؤهم، فكان ذلك فرصة لهؤلاء وأولئك ليتعاونوا للوقوف في وجه الإسلام وإثارة الشغب والفتن في الربوع الإسلامية، ومن هنا كانت فارس مركزاً أو منبعاً لكثير من الحركات الهدامة التي هبت في وجه الإسلام.

وفي حالات كثيرة هاجر اليهود من فلسطين إلى أوروبا، وحملوا معهم بذور الدهاء للعمل في الخفاء، ويقرر علماء الغرب أن حركات الهدم التي اجتاحت أوروبا واشتعلت بها مدى قرون ثلاثة لم تكن سوى أثر للجهد السري التي يقال إن اليهود يبذلونها منذ ظهور النصرانية والإسلام في سبيل هدمها انتقاماً لدينهم (١)، ويرى بعض المفكرين المسلمين هذا الرأي فيما يتعلق بدعوات الهدم ضد الإسلام، ولا سيما دعوة عبد الله بن ميمون التي أسفرت عن انفجار أعظم حركات هادمة عرفها الإسلام، فيقولون إن اليهود هم الذين نظموا مقاومة الإسلام منذ ظهوره وحشدوا الدعاة لإفساد تعاليمه، وإن ميمون بن ديسان وولده عبد الله كانا يعملان على بث مبادئهما السرية في الالحاد والهدم بتحريض وتعريض من الدعاة اليهود (٢).

ومما يذكره التاريخ من محاولات الإثارة والهدم ما قام به اليهود في المدينة إذا عمدوا إلى محاولة إحياء الأحقاد والضغائن الكامنة في نفوس الأوس والخزرج وقد ظهرت لهم بوادر النجاح لولا أن تداركت عين الله مجتمع المسلمين، فتدخل الرسول وأعاد القوم رشدهم ونزل قوله تعالى:

(١) المرجع السابق ص ٧١.

(٢) أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٩.

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) (١).

وعمد اليهود كذلك إل التشكيك وإثارة الشبهات ليضعفوا الإيمان في نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم في الإسلام، وقد نزل فيهم قوله تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم) (٢) وقوله: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) (٣).

ويسير يهود اليوم على نمط أسلافهم في التشكيك ومن أبشع ما عمدوا إليه في ذلك تحريف المصحف ومحاولة نشره محرفا، وكذلك تحريف السنة المحمدية، ولولا أن فطن المسلمون لذلك لأمكن أن يكون لهذا الفعل نتائج بالغة الغاية في السوء.

ويربط بعض الباحثين معظم الثورات الكبرى في العالم باليهود، فأنى عاش اليهود وجدت الإثارة فالثورة، حصل ذلك في الشرق والغرب على السواء، ورأيناه أحيانا يتم باسم الرأسمالية لتضرب الحركات الشيوعية، وباسم الشيوعية لتضرب الاتجاهات الرأسمالية، فهدف اليهود الثورة والتدمير على كل حال، تدمير هذا الاتجاه وذاك الاتجاه.

تلك لمحة سريعة عن دور اليهود في الإثارة وبت الفتن وتسميم الأفكار، ونضيف إلى ذلك أن اليهود لم يكتفوا بالأفكار يسمونها، بل عمدوا إلى تسميم الأجسام ما وسعتهم الحيلة، وقد عرف تاريخهم تسميم الآبار،

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٠. (٢) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٣) سورة آل عمران الآيات ٦٩ - ٧١.

ولا يستبعد المفكرون أن يضع اليهود مقادير ضئيلة من المواد التي تضر بالصحة في الأدوية والمشروبات الروحية، بل في الدقيق ومنتجاته وغيرها من المواد التي يصدرنها بطريق مباشر أو غير مباشر للشعوب غير الصديقة إن لم يكن للشعوب جميعا.
خلف وسائل الإعلام:

قلنا عند الحديث عن (بروتوكولات حكماء صهيون) إن اليهود يهتمون بالسيطرة على الصحافة ودور النشر وجميع وسائل الإعلام، حتى لا يتسرب إلى الرأي العام العالمي إلا ما يريده اليهود، وقد استطاع اليهود أن يحققوا هذا الهدف إلى حد كبير، فقد ثبت في الاحصاء الذي أجرى سنة ١٩٥٦ الخاص بالصحافة، أن اليهود يصدرون ٨١٩ صحيفة ومجلة بمختلف اللغات وفي مختلف الأقطار، وهو عدد يمثل الأغلبية العظمى من صحف العالم ومجلاته. ولليهود مثل هذا التفوق في وسائل الإعلام الأخرى كدور النشر، ووكالات الأنباء، بل والسينما والإذاعة والتلفزيون في معظم بلاد العالم، ويسيطر اليهود على الصحافة والنشر بطريق آخر هو طريق احتكار تجارة الورق، فهم يقبضون أيديهم ويسيطرونها حسب استجابة الصحافة لأغراضهم، ويتسرب بعض الكتاب من أتباعهم إلى الصحف التي لا تخضع لهم تمام الخضوع، وإذا حدث أن صحفيا عرف بمعارضة اتجاهاتهم وضعوا العراقيين أمامه حتى يفقد وظيفته أو يخضع لاتجاهاتهم. فاحتكار اليهود متكامل الحلقات، فهم يسعون إلى احتكار ما يسيطر على معدة الإنسان، ويسعون كذلك إلى احتكار ما يسيطر على عقله وعواطفه، لذلك كان احتكار الصحافة وشركات الأنباء ودور النشر من الخطوات الأساسية في هذا السبيل، فعن طريق هذه الرسائل ينشر اليهود ما يناسب صالحهم ويمنعون من النشر كل ما يعارض ذلك الصالح (١).

(١) دكتور محمد عبد المعز نصر: الصهيونية في المجال الدولي ص ٨٤.

وقد حدث أمامي حادث وثيق الصلة بهذا الموضوع، فمنذ بضع سنوات تقابلت مع أحد الأساتذة في إحدى دور النشر، وكان الأستاذ ينشر كتابا بالإنجليزية عن المسيح، وسألني رأيي في نقطة من نقاط الكتاب، فأبدت رأيي، فارتضاه الأستاذ وطلب مني أن أكتبه، ففعلت، ودفعت الأستاذ برأيي إلى المطبعة، وبعد فترة تقابلت مع المؤلف فاعتذر لي لأنه لا يستطيع نشر رأيي، وعلل ذلك بأن هذا الرأي ضد اليهود، وهم الذين سيتولون نشر الكتاب حيث القراء الإنجليز، ومثل هذا الرأي يجعلهم يقضون على الكتاب بالكساد. وهكذا يحقق اليهود أكبر نصر في هذا الميدان، وهم يقولون بصلف وكبرياء:

- إن الصحافة قد انتهت إلى الوقوع تحت سيطرتنا عدا شواذ قليلة منها يمكن تجاهلها بارتياح.

- لقد اكتسبنا عن طريق الصحافة قوى ذات نفوذ في الوقت الذي احتجنا فيه وراء الظلال.

- لقد سيطرنا على وكالات الأنباء المهمة في العالم، فلن يصل إعلان واحد للجمهور دون رقابتنا وسننشر ما نريد نشره لصالحنا، ولن ننشر ما يتعارض مع اتجاهاتنا وآمالنا (١).

ومن الوسائل التي يختمى خلفها اليهود نجوم السينما والمسرح والفنانون بوجه عام، ويستطيع اليهود عن طريقهم، أن يقدموا للعالم أفلاما وروايات بها بذور صهيونية وحقائق مسمومة يتلقاها المشاهدون وهم في غمزة البهجة، فتصل إلى عقول الكثيرين منهم دون مقاومة تذكر.

التجسس:

كان التجسس ولا يزال وسيلة مهمة لليهود، يحصلون عن طريقه على

(١) جون سكوت: الحكومة السرية في بريطانيا ص ٨٠.

أسرار الدول والجماعات ليستغلوا هذه الأسرار في خدمة مصالحهم، وفي إيقاف تطور أعدائهم أو تدمير هذا التطور، فقد عرفت المسيحية منذ عهدها المبكر، تجسس اليهود على قاداتها وعلى أفكارها وكان من بين الحواريين من عمل جاسوسا لحساب اليهود، فقد ذكرت الأناجيل الأربعة أن يهوذا الإسخريوطي عمل جاسوسا لليهود وساوهم على تسليم عيسى نظير ثلاثين من الفضة، ولما قبضها قاد جماعة من اليهود للقبض على عيسى حيث كان مختفيا، وقد جاء في إنجيل متى عن ذلك ما يلي: حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر الذي يدعى يهوذا الإسخريوطي إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم، فجعلوا له ثلاثين من الفضة، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه (١)... وبعد مدة اصطحب جمعا معهم سيوف وعصى من قبل رؤساء الكهنة، وسار إلى حيث كان يختبئ عيسى واتفق مع هؤلاء على علامة يعرفون بها عيسى قائلا الذي أقبه هو هو أمسكوه، وتقدم يهوذا نحو يسوع وقال السلام يا سيدي وقبله. حينئذ تقدم اليهود وألقوا الأيدي على يسوع وأمسكوه (٢).

وفي مطلع الإسلام اتخذ اليهود التجسس وسيلتهم لينالوا من الإسلام، فقد ادعى بعض اليهود دخول الإسلام ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر منافقين، ومن هؤلاء داعس وسعد بن حنيف وزيد بن اللصيت ورافع بن حريملة وغيرهم، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام عن رافع يوم مات (اليوم مات منافق عظيم) وكان هؤلاء يتخذون المسجد وحلقات العلم مجلسا لهم ليتسقطوا أخبار المسلمين وليطلعوا على تنظيماتهم، لينقلوا ذلك إلى اليهود وإلى حلفائهم المشركين، ولكن المسلمين شكوا في تهجدهم وفي افتعالهم التقوى، فراقبوهم حتى ظهر منهم ما ينقل هذا الشك إلى اليقين، فانقض المسلمون عليهم وأخرجوهم من المساجد معلنين للملأ نفاقهم (٣).

(١) الأصحاح ٢٦: ١٤ - ١٦. (٢) نفس الأصحاح: ٤٨ - ٥٠.
(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢٦ وما بعدها، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي ج ٦ ص ١٣٤ - ١٣٥.

وظل التجسس دأبهم في كل قطر أقاموا به، كانوا جواسيس الحلفاء في ألمانيا، وكانوا جواسيس الغرب في روسيا، وهم لا يزالون حتى الآن يحترفون حرفة التجسس في كل مكان نزلوا فيه، ففي كندا أكتشفت حلقة تجسس خطيرة سنة ١١٤٥ كان اليهود يتزعمونها، وكان من بين الجواسيس عضو في البرلمان الكندي وأستاذ جامعة ماك دل (١).

أما تجسس اليهود في البلاد العربية، فلا تنقطع خيوطه، وهو في مصر يسير على أشده وتتوالى حلقاته، ويشترك فيه الرجال، والسناء الحسان، ويدرب الجواسيس تدريبا كاملا على استعمال الأجهزة والآلات الخاصة بالاستقبال والارسال، وكذلك على فنون التصوير والكتابة غير المرئية، وإعادة الكتابة إلى الرؤية، واستعمال المتفجرات وإرسالها داخل مظاريق، وغير ذلك من الفنون، والجواسيس على صلة وثيقة بمراكز التجسس الصهيوني بإيطاليا وغيرها من دول أوروبا، وقد استطاع الجواسيس أحيانا أن يضلوا بعض مرضى النفوس من الشعب العربي ليعاونوهم وليمدوهم بما تحت أيديهم من أسرار ليبعث بها الجواسيس إلى إسرائيل، وهذه الكلمات تكتب بضاحية المعادي ودماء الأبرياء تسيل بهذه الضاحية نتيجة لمظروف انفجر في وجه عامل في مكتب البريد، فشوه وجهه وأفقده البصر إلى الأبد، وقد انكشف أمر الجاسوس الألماني اليهودي الذي ارتكب هذه الفعلة النكراء، وقد اعترف الجاسوس الأثيم كما اعترف سواه قبله بما ارتكبوا من آثام. الستر خلف أربان أخرى:

قلنا في السطور السابقة إن بعض اليهود تظاهروا بالدخول في بعض الأديان ليتمكنوا من التقاط أخبار أتباعها، والتعرف على خططهم لينقلوها إلى اليهود، ونحن الآن نتكلم عن طريق آخر من طرق استغلال اليهود

(١) ١٤٦ - Behind communitm :١٤٥ Frank Briton.

للأديان، ذلك هو التظاهر بالدخول في دين - لا لينقلوا الأخبار - بل ليعملوا وهم في ظل الدين الجديد ما يخدم أغراض دينهم الأصيل وهو اليهودية، وتبعاً لهذا المبدأ دخل اليهود أكثر الديانات المعروفة، دخلوا البوذية والمسيحية والإسلام، وهي الأديان الثلاثة الغالبة في العالم من حيث العدد ومن حيث المكانة، وأخذوا يعملون لصالح اليهود، ففي نطاق البوذية أبرزت لي تجاربي الخاصة أن عدداً ممن يعتنقونها من رجال الشرق الأقصى يعملون لصالح (إسرائيل) بنفس الإخلاص والحماسة التي يعمل بها أي يهودي، وقد راعني في مبدأ حياتي بالشرق الأقصى أن وجدت بعض سفارات هذه البلاد بإندونيسيا تخدم قضية إسرائيل بنشاط بالغ الحد، حتى لقد كنا نقول إنه ليس لهذه البلاد في هذا المبنى سوى اللوحة المثبتة على الباب، أما أكثر النشاط المنبعث من داخل المبنى فيخدم قضية إسرائيل، وقد خف عجبنا عندما عرفنا أنه من كبار موظفي هذه السفارة، بل من كبار حكومة هذه البلاد بوذيون من أصل يهودي، أو بوذيون اتخذوا زوجات يهوديات، أو زوجات بوذييات تجري في عروقهن الدماء اليهودية.

وقد استطاع كثير من هؤلاء البوذيين ذوي الدم اليهودي أن يصلوا إلى أرقى المناصب الدينية والمدنية، حتى أو شكت الكهانة أن تكون وقفاً عليهم. وإذا ذهبنا إلى المسيحية وقفنا أما شاءول (بولس) اليهودي الفريسي الذي دخل المسيحية وأحدث بها أحداثاً خطيرة، فنقلها من ديانة خاصة ببني إسرائيل إلى ديانة عالمية، ونقلها من التوحيد إلى التثليث، قال بألوهية المسيح، وألوهية روح القدس، واخترع قصة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر... بولس الذي طمث الديانة، لماذا؟ ليشأر لدينه، فهو قد تظاهر بالدخول في المسيحية ليحاربها من الداخل بسلاح الهدم والتدمير، متعاوناً في ذلك مع أبناء دينه اليهود في القضاء عليها (١).

(١) أنظر كتاب المسيحية للمؤلف ص ٨٨ - ٨٩.

أما في الإسلام فيصادفنا عدد من اليهود دخلوه ليدمروه، وفي القمة من هؤلاء عبد الله بن سبأ وهو الشخص الذي نقل الثورة ضد عثمان من الكلام إلى العمل (١)، وقد قلت عنه في مكان آخر إنه لم يكن مخلصا في حركته، وكان يهوديا ادعى أنه دخل الإسلام، ولم يكن يضمّر للإسلام ولا للمسلمين خيرا، فانتهاز فرصة صور من النقد وجهت لسياسة عثمان، وأشعل الفتنة وأنزل بالعالم الإسلامي نارا ظلت متأججة عشرات السنين، أو مئات السنين، وبالإضافة إلى موقفه ضد عثمان، ذلك الموقف الذي انتهى بقتل الخليفة، تجده يدفع بنظريات فارسية يحشرها حشرا في الفكر الإسلامي، فهو الذي نشر مذهب الوصاية ووضع الأحاديث ليدعم بها رأيه، كما أشاع نظرية الحق الإلهي، وغير ذلك مما يجعله بحق زعيم الفتن السياسية والدينية في الإسلام (٢). ولا تزال هذه حال اليهود حتى العهد الحاضر، يدفعون ببعض أسرهم أو بعض أفرادهم ليدخلوا هذا الدين أو ذاك، وبغير هؤلاء أسماءهم وينتقلون من بلد إلى بلد ويتعمقون في دراسة الدين الجديد، ويأتي وقت عليهم لا يعرف الناس حولهم عن ماضيهم شيئا، وحينئذ يحاول هؤلاء أن يخدموا اليهودية دون أن يكونوا موضع اتهام (٣)، ويعتقد بعض الباحثين أن عددا من الكرادلة في الفاتيكان ينحدر من أصل يهودي، ودفعتهم الأغراض اليهودية لاتخاذ بعض قراراتهم، كقرار تبرئة اليهود من دم المسيح.

ومن أبرز اليهود الذين اعتنقوا المسيحية في العصر الحديث دزرائيلي الذي ولد في مطلع القرن التاسع من أب يهودي وأم يهودية (١٨٠٤ - ١٨٨١)،

(١) Brown: ٢٢٠. A literary History of Persia p

(٢) أنظر ما كتبناه عنه في الجزء الأول من التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ص ٣٢٦ وما بعدها من الطبعة السادسة.

(٣) أنظر البروتوكول التاسع من بروتوكولات حكماء صهيون وانظر هامش المترجم ص ١٦١ و ١٦٦.

وقد بدت عليه علامات النجاسة والنبوغ منذ صباه، فلما مات أبوه سنة ١٨١٦ رثى أن يدخل الصبي المسيحية فعمد في كنيسة في إنجلترا سنة ١٨١٧، وأتاح له هذا أن يتغلغل في المجتمع الإنجليزي ويصبح نجما لامعا في الصالونات الاجتماعية، ثم دخل ميدان السياسة فبرز فيه، وفي سنة ١٨٣٧ دخل البرلمان الإنجليزي، وفي سنة ١٨٤٧ أصبح زعيما لحزب المحافظين، وفي سنة ١٨٧٤ أصبح رئيسا لمجلس الوزراء البريطاني، وبهذا وصل قمة السياسة العالمية، واستمر في هذا المنصب ست سنوات، وينسب له أنه أقدم من عمل لإقامة إسرائيل في العصر الحديث، فقد اشترى لإنجلترا نصيب مصر من أسهم قناة السويس، فثبت بذلك أقدام بلاده لتحرس الوطن الذي كان قد فكر في إقامته لبني دينه، ثم خطا خطوة أخرى لخدمة اليهود، فساعد بعض المسيحيين أو اليهود الذين دخلوا المسيحية على شراء بعض الضياع في فلسطين، فخط بذلك الخط الأول لإقامة وطن قومي لليهود بهذه البقعة المقدسة.

التآمر والاعتقال:

التآمر والاعتقال طبيعة في اليهود لم تتخلف في كل عصورهم، وقد شهدناها ضد يوسف من إخوته، وتحدث القرآن الكريم عن هذه الطبيعة في اليهود فذكر أنهم (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) (١).

وعندما جاءت المسيحية اتجه التآمر والاعتقال تجاه الجماعة الجديدة، وكان المسيح نفسه - في رأيهم - ضحية من ضحايا اليهود وقد نزل بكثيرين من أتباعه في عهده وبعده مثل ما نزل به، فقد جاء في كتاب (سدر حاد وروث) ما يلي:

(١) سورة المائدة الآية ٧٠.

الحاخام الرباني يهوذا كان محبوبا لدى الإمبراطور الروماني، فذكر له عن الناصريين أنهم سبب وجود الأمراض المعدية، وبناء على ذلك تحصل على الأمر بقتل كل هؤلاء الناصريين، الذين كانوا يسكنون روما سنة ٣٩١٥ عبرية التي تعادل ١٥٥ م، وجاء في الكتاب نفسه بعد هذه العبارة أن الإمبراطور (مارك أورب ل) قتل جميع الناصريين بناء على إيعاز اليهود، وفي كتاب سفر يوكاسين أنه في زمن البابا (أكليمان) قتل اليهود في روما وخارجها جملة من النصارى كرمال البحر، وكان اليهود محبوبين عند الإمبراطور نيرون (١)، ويبدو أنه بإيعازهم ألقى نيرون المسيحيين للوحوش الضارية، تنهش أجسامهم، وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصاييح بعض الاحتفالات التي كان يقيمها في حدائق قصره كما سبق القول (٢) وجاء الإسلام فبدأ تأمر اليهود مبكرا ضد هذا الدين، فلقد حاولوا اغتيال محمد بعدة طرق، كان منها أن وضعت امرأة يهودية له السم في طعام دعته إليه، وذهب مرة إلى مساكن بني النضير بطلب منهم - بناء على المعاهدة التي كانت بينه وبينهم - أن يسهموا مع المسلمين في دفع دية التزموا بها فتظاهر اليهود بحسن استقباله، وقالوا له: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، وطلبوا منه الجلوس ريثما يدبرون المال الذي طلبه، وذهب اليهود لا ليجمعوا المال من بينهم بل ليدبروا حيلة للقضاء على محمد، ولكن الله أوحى له بأن اليهود يأتمرون به ليقتلوه، فانسحب في صمت، وكان عقاب بني النضير أن أخرجوا من المدينة.

ولم يكف اليهود عن تدبير المؤامرات، فراحوا يدبرون مؤامرة أوسع وأقسى، يريدون بها القضاء على الإسلام والمسلمين وكان ذلك في

(١) نقلا عن الكنز المرصود ص ٧٠.

(٢) أنظر: زكي شنوده: تاريخ الأقباط ص ١٠١.

غزوة الأحزاب، عندما تجمعت قوى الشر وحاصرت المدينة، فاتصل يهود بني النضير الذين هاجموا المدينة مع المهاجمين، بيهود بني قريظة الذين كانوا لم يزلوا بالمدينة، ودبرت مؤامرة من أعنف المؤامرات، ليضرب بنو قريظة المسلمين من الخلف، وليوقعوهم بين شقي الرحي، واستجاب يهود المدينة لهذا الغدر الذي أوقع المسلمين في حالة من الذعر والقلق يصورها القرآن الكريم أدق تصوير حين يقول: (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) (١) ولكن الله نجى المسلمين من هذا الطغيان ورد الذين كفروا على أعقابهم. (٢)

واشترك اليهود في قتل عمر وعثمان، وفي كل حركات الاغتيال التي حدثت في العالم الإسلامي أو أكثرها (٣).

وظلت هذه خطة اليهود في جميع مراحل التاريخ، حتى في أزهى عصور المدنية التي حرس دم الإنسان وحمت رأيه واتجاهه، ولكن الغدر والاغتيال كانا دستور اليهود فلم يحدوا عنه، قاموا به في روسيا، ونفذوه ضد الإنجليز في فلسطين وقاموا به في ألمانيا وأمريكا، وكان نصيب العرب منه كثيرا، ففي روسيا ظهر في بداية القرن العشرين منظمة من أبرز منظمات الارهاب التي سجلها التاريخ أطلقت على نفسها (الحزب الاشتراكي الثوري)، وكان اليهود يسيطرون على هذه المنظمة، وكان بالمنظمة قسم للارهاب برأسه يهودي اسمه غرشوني، وهذا القسم

(١) سورة الأحزاب الآيتان ١٠ - ١١.
(٢) أنظر ما كتبناه عن (اليهود والمسلمين) في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٦١ - ١٧٦ من الطبعة السادسة.
(٣) المرجع السابق ص ٢٦٦ - ٢٧٩.

هو الذي اغتال ستة من كبار الزعماء بروسيا، وقد حوكم أعضاء هذا القسم وثبت عليهم الاغتيال فأعدم بعضهم، وحكم على آخرين بالسجن المؤبد (١). ونال الألمان نصيبا وافيا من اغتيال المنظمات الارهابية اليهودية، فاليهود تارة يهاجمونهم في الطرقات فيقتلونهم أو يحطفونهم، وتارة يرسلون لهم المواد المتفجرة، وبخاصة لأولئك الذين عملوا أو تعاقدوا على العمل مع البلدان العربية. وقد قامت (جماعة ستيرن) باغتيال اللورد موين Moyne، الذي كان وزيرا بريطانيا مقيما بالقاهرة، لاعتقادهم أنه - وهو وزير للمستعمرات - قام بتضييق أبواب فلسطين في وجه اليهود (٢).

وفي سنة ١٩٤٨ أطلق اليهود على الكونت برنادوت وسيط هيئة الأمم اثنتي عشرة رصاصة في أثناء وجوده بالسيارة التي كان يستقلها بالقدس فمات على الفور مع أحد مساعديه الفرنسيين، وكان ذلك لأنه أعرب عن رأيه بأن العدالة تقضي بإعادة النقب للعرب (٣).

وليس الرئيس الأمريكي الراحل كيندي إلا ضحية من ضحاياهم، ومن العجيب أن التحقيق كان يسير في هذا الاتجاه وذاك، حتى إذا أوشك أن يلتف حول اليهود عاد أدراجه فانفض عنهم، لا لشيء إلا لأن الاغتيال كان جزاء محدد لكل من يثبت هذه الجريمة على اليهود، ولم يكن ذنب كيندي لدى اليهود إلا أنه أيد العدالة في قضية اليهود والعرب، وقضية التفرقة العنصرية في أمريكا.

(١) Behind communism p ٤٤ : Frank Britan.
(٢) Kirk A short History of the Middle East p ٣٢٣.
(٣) The secret Government in Britain p ٥٦ : John Scott.

ومن الاغتيالات التي حدثت بمصر، ذلك الطرد المملوء بالمتفجرات الذي أرسله اليهود في مارس سنة ١٩٦٣ فقضى على ستة من العلماء المصريين في أحد مراكز البحوث العربية.

وفي العراق ضبط البوليس سنة ١٩٥١ كميات كبيرة من الأسلحة والمواد المتفجرة، مخبأه في كنيس يهودي يدعى كنيس عزرا، وكانت هذه الكميات كافية لنسف بغداد كلها، كما أن البوليس اكتشف في منزل أحد الأثرياء اليهود مخبأً متسعاً يضيق بما فيه من مدافع رشاشة (١).

هذه صورة سريعة لمظهر التآمر والاغتيال عند اليهود لم نقصد بها إلا الإشارة الخفيفة، فإن إحصاء هذه الأحداث يفوق العد.

جمعيات سرية

الجمعيات السرية الخطرة كانت ولا تزال من أهم المؤسسات التي اعتمد عليها اليهود لتنفيذ أغراضهم والوصول إلى هدفهم، وقد ينشئ اليهود جمعيات لهذا الغرض، أو يوعزون بإنشائها، وقد يجد اليهود جمعيات قامت لغرض أو لآخر فيندسون فيها، وينفتنون فيها سمومهم، ويوجهون أتباعها وجهتهم التي يريدونها، ولا تكاد توجد جمعية ذات أسرار وأخطار إلا كان اليهود يعيشون فيها خلف الستار، والمراجع العديدة التي اعتمدنا عليها في هذا الباب توحى بأن اليهود كانوا خلف الحركات التي هبت في وجه المسيحية والإسلام، فقد كانوا خلف جمعية فرسان المعبد، وجمعية الصليب الوردي وغيرهما من الجمعيات التي وجهت نشاطها للنيل من المسيحية، وكانوا خلف القرامطة، وغلاة الشيعة، وغيرهما من الجمعيات التي ناصبت المسلمين العداء رغبة النيل من الإسلام، وفي مكان آخر لم أقبل تعبير (غلاة الشيعة) وقلت إن هؤلاء ليسوا شيعة وليسوا مسلمين، وإنما هم جماعة من أعداء الإسلام تظاهروا بالدخول فيه

(١) جون بيتي: الستار الصهيوني حول أمريكا ص ١٤٦ (الترجمة العربية).

وتظاهروا بالتشيع، فجعلوا من اسم الشيعة ستارا لهم، ونسجوا خلفه ألوانا من الترهات والأباطيل بقصد الكيد للإسلام والمسلمين (١).
وينبغي لي أن أوضح شيئا خطيرا يصطنعه أعداء الإسلام للنيل منه، ذلك أنهم على اختلاف مشاربهم أدركوا أن من العسير جدا أن يرتد المسلمون عن الإسلام إلى سواه من الأديان، وأن محاولة ذلك تكلفهم جهدا كبيرا ومالا ضخما دون أمل، ومن هنا اكتفى هؤلاء من المسلمين بتضليله، ودفعه إلى الانحراف والبعد عن الإسلام الصحيح وإن لم يعتنق دينا سواه، ومن وسائلهم لذلك أن يكلموه عن الإنسانية والعمل لخيرها مع الإيمان بالله وتوحيده، ويجعل هؤلاء شعارهم (الله) أو (الإنسانية) ومن وسائلهم أن يصوروا له أن الأديان (أفيون) الرعاع فينحدروا به إلى اللادينية، ومنها أن يزوجوا به إلى مذهب منحرف من المذاهب التي تربط نفسها بالإسلام كالأحمدية والإسماعيلية، واليهود خلف هذه الطرق جميعا بطريق مباشر، كأن يؤسسوا هذه الجمعيات أو ينضموا إليها، وبطريق غير مباشر كان يدفعوا الاستعمار إلى تأييد مثل هذه الجمعيات. والهدف واحد هنا وهناك.

وإذا تركنا الماضي وعيننا بالحاضر وجدنا اليهود خلف كثير من الجمعيات السرية الخطرة، يوجهونها للنيل من الإسلام في أرض الإسلام، وسنتكلم هنا عن نماذج ثلاثة لهذه الجمعيات، قصدنا باختيارها توجيه النظر إلى خطورتها وهي الماسونية، وأندية الروتاري، والبايية والبهائية:

١ - الماسونية:

نشأة الماسونية ليست محددة التاريخ، فيربطها بعض الباحثين بالكهانة في عهد الفراعنة، ويقرر آخرون أنها أنشئت أول ما أنشئت في هيكل سليمان، ومنهم من ربطها بالحروب الصليبية، أو بجمعية الصليب الوردي

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ٢ ص ١٣٨.

(سنة ١٦١٦)، ويراها آخرون أحدث نشأة، فيحددون لقيامها القرن الثامن عشر، واعتقادي أن هناك ارتباطا بين هذه الآراء جميعا، فالماسونية كما ستري منظمة يهودية، تظهر لخدمة اليهود من حين إلى حين، وليس بعيدا أن يكون اليهود قد اقتبسوا بعض أنظمتها وأسرارها من الفكر المصري، ثم تجددت مع هيكل سليمان ومع الحروب الصليبية وغيرها من الأحداث الكبرى.

ويكاد الباحثون يجمعون على أنها هي جمعية البنائين الأحرار، التي وجدت منذ أقدم العصور في مصر واليونان وفلسطين، ومصدر إجماعهم هو التشابه العظيم بين الجماعتين في النظم والتقاليد، واعتقادي أن الماسونية منظمة سرية يهودية، وأن هناك رباطا يربط بينها وبين البنائين الأحرار، ذلك أنه كان من بين البنائين من ارتقت مكانته، فأصبح ذا صلة بأسرار الأهرام والهيكل والمقابر، فإذا كان البناءون العاديون يبنون الأهرام، فإن الخاصة منهم يوكل لهم بناء ما بداخل الأهرام من أسرار، كالمكان الذي ستودع فيه جثة الملك وما معها من حلي وثرأء. وكالطريق الموصل لهذا المكان، وكان هؤلاء الخاصة من البنائين على صلة بالكهنة وبالأسرار الكهنوتية، فلما أنشئت الماسونية بتعاليمها السرية، كان من ضمن الأسرار أن تتخذ لها اسما فيه خفاء من جهة، وفيه دلالة على احتضانها للأسرار من جهة أخرى، فاتخذت لها اسم (البنائين) وهذا هو الذي ربطها بالبنائين الأحرار.

وأهداف الماسونية في الظاهر تختلف اختلافا كبيرا عن أهدافها في الباطن، فهي في الباطن وفي حقيقة الأمر - كما يقول الحاخام الدكتور إسحق وايز - مؤسسة يهودية وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكارا يهودية من البداية إلى النهاية (١)، أما في الظاهر ولدى السذج فهي - كما يقول مكاريوس شاهين - جمعية أدبية تخدم الإنسانية.

(١) The Israelite of America , ٣ ١٨٦٦ August rd

وتنور الأذهان وتنشر الإخاء، وتوحد الحب بين الأعضاء، تحثهم على فعل الخير والاحسان لإخوتهم المحتاجين (١).
وشعار الماسونية الظاهري: الحرية والإخاء والمساواة، وقد حاول اليهود الانتفاع بهذا الشعار وبخاصة في أوروبا خلال العهد التي عانى اليهود فيها مرارة الاضطهاد، فكانوا يقصدون حث الناس على أن يمنحوهم الحرية، وأن يعاملوهم بود وبدون تفرقة.

ولا تفتح الماسونية أبوابها لكل الناس، إنما تختار صفوتهم فتشترط لمن يريد الدخول فيها، أن يكون رشيدا، له مهنة شريفة، وثقافة لا بأس بها، حر النسب، مسقيم الخلق، لم يعرف بالطيش أو الخلاعة...
وتضع الماسونية لها دستورا علنيا يبدو جذابا خداعا، توصي فيه بالعمل الصالح، وبحب الناس، وتطهير النفس والتعاون مع الزملاء من الأعضاء تعاونا كاملا، وإكرام الغريب، واحترام المرأة، وتجنب المشاجرات..
وعندما يقرر قبول طالب العضوية، يتقدم ليقسم قسم الجمعية الذي يصبح بمقتضاه عضوا عاملا يؤدي واجبه ويتحمل مسؤولياته. ونص القسم كالآتي:

أقسم بمهندس الكون الأعظم أنني لا أفشى أسرار الماسونية ولا علاماتها وأقوالها، ولا تعاليمها وعاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد.

أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالإشارة وبالكلام ولا بالحروف، وألا أكتب شيئا منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضى - إن حنث في قسمي - أن تحرق شفثاي بحديد ملتهب،

(١) عبد الحليم إلياس الخوري: الماسونية: ذلك العالم المجهول ص ٢٢ - ٢٣.

وأن تقطع يداي ويحز عنقي، وتعلق جثتي في محفل ما سوني ليراها طالب آخر ليتعظ بها، ثم تحرق جثتي وبذر رمادها في الهواء، لئلا يبقى أثر من جنايتي (١). وهذا القسم يمدنا بمعلومات خطيرة عن الماسونية، فهو أولا منقطع عن دستورها العلني الذي ذكرناه، فليس به حث على العمل الصالح، وحب الناس، وتطهير النفس أو غيرها عن الأهداف الظاهرة التي تكلمنا عنها، وهو ثانيا واضح الدلالة على أنه إقدام على شيء حافل بالأسرار، فأول شيء ينصب عليه القسم، عدم إنشاء هذه الأسرار بأية صورة من الصور، وهو ثالثا وعيد صارم للطالب بالقتل والتمثيل بجثته إن أفشى هذه الأسرار. ويرى بعض الدارسين أن هذا الوعيد نفذ أحيانا بأن قتل من أفشى السر بصورة تجعله يبدو كأنه مات منتحرا أو مات موتا طبيعيا.

ومراتب الماسونية ثلاثة هي:

١ - الماسونية الرمزية: ويدخل بها أتباع الديانات المختلفة وبياسر هؤلاء طفوسا وحركات لا يفهم مغزاها، ويظل فيها الشخص قانعا بألفاظ الحرية والإخاء والمساواة، سعيدا بما يناله من عون من الأعضاء الآخرين، ذلك العون الذي كثيرا ما يدفع العضو إلى مكان الصدارة في عمله، أو يكسب له وظيفة ممتازة أو ثراء عريضا، مما يجعله يزيد ارتباطا بالماسونية وحباً لأنظمتها، وفي داخل هذا القسم توجد ثلاث وثلاثون درجة، يترقى فيها العضو درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه وكفاءته وإقباله على الماسونية وتعاليمها، وينال العضو أسمى الدرجات إذا تم انحرافه عن دينه وعن وطنه، وأصبحت الماسونية كل عقيدته، واحتوت كل تقديره.

٢ - الماسونية الملوكية أو العقد الملوكي: وأكثر أعضائها من اليهود ويطلق عليهم الرفقاء، ولا يسمح لغير اليهود بالدخول فيها إلا لمن

(١) محمد علي الزغبى: الماسونية منشئة ملك إسرائيل.

وصل لأرقى درجات الماسونية الرمزية أي لم يعد يكثر بدين ولا وطن، وليس له مثل أعلى سوى الماسونية.

٣ - الماسونية الكونية: وهي أرقاها، وأعضاؤها من اليهود النخلص، ويطلق عليهم الحكماء. ورئيس هذا الفريق يلقب بالحكيم الأعظم، وهو مصدر السلطات لجميع المحافل الماسونية، ولا يعرف أحد أعضاء هذه المرتبة ولا مركز نشاطها.

وللماسونية ألوان ورموز تتبع الدرجات والمراتب، وهي سر من الأسرار لا يعرفه غير الأعضاء.

وقد أدرك زعماء المسيحيين خطر الماسونية بوجه خاص وخطر الجمعيات السرية بوجه عام على الدين المسيحي، فصدر مرسوم بابوي رقم ٨٦٤ يحذر الكاثوليك من الاشتراك في الهيئات السرية والمشتبه فيها على الإطلاق. ومن العجيب أن هذه الماسونية ظلت سرا على البلدان العربية حتى بعد قيام إسرائيل، ولم يصدر قرار بإلغاء المحافل الماسونية في مصر إلا في إبريل سنة ١٩٦٤ بعد تحريم البابا لها بأكثر من عشر سنوات، ولا تزال المحافل الماسونية تباشر نشاطها في بعض البلدان العربية.

٢ - أندية الروتاري:

لم يكتف اليهود بالماسونية السرية رغم أنها تشكل في البلدان بأشكال مختلفة تبعا لطبائع كل بلد ونظمه، بل أقاموا هيئة أخرى علنية منفصلة عنها، تؤدي بعض مهامها تحت ستار الإخاء الإنساني أيضا، وسموها (أندية الروتاري) وتوجد هذه الأندية في العواصم والمدن الكبرى، والغرض الظاهري منها هو النظر في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات والخطب، والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة والبلدان

المتعددة، أما الغرض الحقيقي فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود، ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جميع المعلومات التي تساعدهم في تحقيق أغراضهم، اقتصادية كانت أو صناعية أو سياسية. ولقد فطن الفاتيكان أيضا إلى خطر هذه الأندية كما فطن من قبل إلى خطر الماسونية، فصدر مرسوم من المجلس الأعلى المقدس في ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٥٠ قرر فيه الكرادلة ما يلي:

(دفاعا عن العقيدة وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة بنادي الروتاري، وعدم الاشتراك في اجتماعاتها، وإن غير رجال الدين يطالبون بمراعاة المرسوم رقم ٦٨٤ الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها).

٣ - البابية والبهائية:

وفي بلاد فارس قام المذهبان أو الدينان الخطيران: البابية والبهائية، والبهائية امتداد للبابية كما سنرى، وكلاهما تعبير عن الفكر الذي تكلمنا عنه من قبل، والذي نشأ منذ عهد بعيد بسبب التعاون الذي قام بين اليهود الذين بقوا بفارس بعد أن أذن قورش لأسرى بابل بالعودة إلى فلسطين، وبين الجماعات الفارسية الساخطة على الإسلام لأنه وضع حدا لما كان لها من أمجاد زائفة.

وقد سبق أن قلنا إن بلاد فارس - لهذا - ظلت على مر التاريخ مصدرا خطرا تنبع منه الحركات المعادية للإسلام، والجاهدة لتقويض أركانه بطريق أو بآخر.

فالبابية والبهائية لهما جذور يهودية، ولكن اليهود المعاصرين للحركتين لم يكتفوا بالجذور اليهودية القديمة، بل راحوا يمدون الحركتين بعناصر

يهودية أخرى توارت حيناً، وبرزت حيناً، ثم أعلنت عن نفسها تماماً في العهد الحاضر، إذ أصبح زعيم البهائية أحد حاخامات اليهود كما سنرى. ولنعد إلى القصة من أولها

في بلاد فارس ولد الميرزا علي محمد الشيرازي حوالي سنة ١٨٢٤ من أسرة مسلمة، وشب الميرزا ونال ألواناً من الدراسات الإسلامية، وكان يمتاز بالجمال والذكاء والطموح والفصاحة، وحج الميرزا وزار الأضرحة التي يقدها الشيعة بالعراق، ولما عاد لوحظ عليه أنه أصبح يغالي في تدينه وتعصبه، ورآه رجلان أغلب الظن أنهما من دم يهودي أو يعملان لحساب الفكر اليهودي، فأوهماه أنه سيكون له شأن، وأدخلا في روعه أنه سيصبح منقذ الإنسانية من الضلال وقائد ركب المتدينين، فاستهوت هذه العبارة الميرزا، فسر الرجلان بهذه الخطوة من النجاح، وراحا يقدمان له بطريق مباشر أو غير مباشر أفكاراً جديدة سرعان ما اعتنقها وراح يدعو لها، وأبرز ما في هذه الأفكار كان القول بوحدة الوجود، فأصبح الميرزا يعتقد (أن الله واحد أي ليس له شريك في القوة والقدرة، وقد خلق الكون، ولكن هذا الكون ليس شيئاً آخر غير الله، بل هو مظهر ذاته، والأنبياء في الكون مظهر أكمل لله، دائم الاتصال بالأصل الذي نشأ منه، ويروى البابية، عن الله قوله (الحق يا مخلوقاتي أنك أنا) فإذا قامت القيامة رجع الخلق إلى الله وفنوا في وحدته التي صدروا عنها، فيتلاشى إذ ذاك كل شيء إلا الطبيعة الإلهية، وتبعاً لذلك أنكر الميرزا البعث والجنة والنار مما يؤكد ارتباط أفكاره بالفكر اليهودي، وحشد أفكاره هذه في كتاب أسماه (البيان) وادعى أنه المقصود بقوله تعالى (خلق الإنسان علمه البيان) (١).

ولم يكن هذا الاتجاه من الميرزا غريباً على الفرس، فقد قال

(١) سورة الرحمن الآيتان ٣ - ٤.

الهنود جيران الفرس بوحدة الوجود، وقال به كثير من اليهود، وأنكرت بعض الفرق اليهودية اليوم الآخر... ثم إن للفرس هوى في الثورات التي تهب معارضة للإسلام، فانضم للميرزا منهم عدد كبير واعتنقوا مبادئه، ولما حصل الميرزا على هذا التأييد خطا خطوة جديدة في إبراز قيمة نفسه فسمى نفسه (الباب) أي أنه الطريق الوحيد الذي يتصل الإنسان بواسطته بالخالق عز وجل. وسميت هذه الفرقة بالبائية تبعا لذلك، ثم لم يكتف الميرزا بأن يكون (بابا) بل نقل نفسه إلى غاية جديدة، فأعلن أنه (النقطة) أي منبثق الحق وروح الله ومظهر قدرته وجلاله، وجعل (الباب) إليه أحد مريديه المخلصين له واسمه (حسين بسرويه) من أهل خراسان.

وفي مؤتمر برشت سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ م) أعلن البايون انسلاخهم عن الإسلام واشتد بهم الحرص على محاربتهم من كل ناحية، ومحاربة اللغة العربية، وكانوا يقصدون بمحاربة اللغة العربية قطع أتباعهم عن قراءة القرآن وأحاديث الرسول والتعرف على التراث الإسلامي، وهكذا بعدت البائية ووريتها البهائية بعدا تاما عن الإسلام.

وتحركت حكومة فارس لمجاهدة هذا الباطل، وقاد حسين بسرويه جحافل المدافعين عن البائية يؤازره مجموعة من القادة هم الميرزا يحيى محمد على بلفروسي وامرأة اسمها رزين تاج لقبته (قرة العين).

ودارت معارك صاخبة قاسية بين الفريقين، وطالما حقق البايون الانتصار على جيوش الحكومة، فعمدت الحكومة إلى الثأر لقادتها وجيوشها وفي النهاية سقط قادة البائية في الميدان، أو قتلوا بأحكام إعدام أصدرتها الحكومة، وكان الميرزا على (النقطة) من هذا النوع الأخير، فقد أعدم في تبريز سنة ١٨٥٠ م

وخفت صوت البابية بعد نضال مرير وتضحيات من الجانبين كثيرة،
ولجأت البابية إلى طريق جديد، هو العمل كحركة سرية بعد أن أعيتها العلانية،
وفتحت البابية بذلك الباب لليهود على مصراعيه، فالحركات السرية يهواها
اليهود ويتخذون منها وسيلتهم لدس أفكارهم وتنفيذ أغراضهم، ومن
أجل هذا يعد الباحثون هذه المرحلة مرحلة خطيرة أعدت فيها البابية
لتصبح أقرب إلى الاتجاهات اليهودية أو معبرة عنها.
وبعد فترة الستر خرجت البابية من عكا سنة ١٨٦٨ م بفلسطين باسم البهائية نسبة
إلى زعيمها الجديد ميرزا حسين علي المازندراني (١٢٣٣ - ١٣٠٩ هـ) الذي
كان يلقب (بهاء الله) والذي كان أتباعه ينادونه (ربنا الأسمى) وكان هذا
الزعيم قد هرب إلى عكا من قبل، وأصبح من قواعد البهائية توحيد
الأديان السماوية في دين واحد، والقول بأن سلسلة الأديان السماوية لم تتم إلا
بظهور البهاء، فهو يوحد الأديان ويتمها، وهو الذي يفسر منها ما استغلق،
فهو وحده الذي يعلن ما كتبه عيسى حين قال: (إن لي أمورا كثيرة أيضا
لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن، وأما متى جاء روح الحق،
فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به
ويخبركم بأمر آنية (١)). وهو وحده الذي يعلم ما احتجزه الله لنفسه في مطلع
الإسلام حين قال (وما يعلم تأويله إلا الله) (٢).
ويورد البهائيون أدلة من القرآن والحديث يستدلون بها على أن خروج
النبي الجديد يكون من سهول سوريا، من عكا، ومن ذلك قوله تعالى
(واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق
ذلك يوم الخروج) (٣) فسهول سوريا أقرب الأراضي إلى الجزيرة العربية،

(١) إنجيل يوحنا ١٦: ١٢ - ٢٣. (٢) سورة آل عمران الآية السابعة.
(٣) سورة ق الآيات ٤١ - ٤٢.

ويرون أن الرسول قد حدد ذلك المكان بحديث رووه هو: طوبى لمن رأى عكا. وحديث آخر هو: طوبى لمن يشهد الملحمة العظمى مأدبة الله بمرج عكا. وهذه خرافات غير جديرة بالمناقشة.

ومن الواضح أن حياة البهائية في عكا بين جماعات اليهود أثرت فيها تأثيرا واسعا، وقطعت ما كان باقيا بينها وبين الإسلام من صلات طفيفة إن وجدت، فأصبحت البهائية وجها آخر لليهودية وللصهيونية، فقد أعلن البهاء أن لجميع البشر دينا واحدا ووطنا واحدا، وهو يدعو لدين واحد يجمع كل الأديان وكل الأجناس، ويحارب ما سواه من أديان، وهو يرى العالم ووطنا واحدا لكل الناس، ويحارب نزعات الوطنية والإقليمية.

ومات البهاء في عكا فأصبح مدفنه مزارا ضخما لاتباعه، وخلفه ابنه، (عباس أفندي) الذي كان في خدمة الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى فأُنعمت عليه بريطانيا برتبة فارس مع لقب سير، وتوفي سنة ١٩٣١ فخلفه ابن بنته شوقي رباني الذي مات بعد ذلك دون أن ينجب ولدا.

وفي ظل الفكر الجديد للبهائية دفعا اليهود إلى أقطار الأرض ورعوها بالمال ومنحوها الرعاية التامة، فأصبحت البهائية (حركة صهيونية أمريكية) كما يسميها الكتاب المحدثون، وأسفرت البهائية عن وجهها الصهيوني، إذ بعد وفاة ميرزا شوقي رباني - اجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية في إسرائيل وانتخب صهيونيا أمريكيا اسمه (ميسون) ليكون رئيسا روحيا لجميع أفراد الطائفة البهائية في العالم.

وهكذا اختفت البابية وقامت البهائية على أثرها، ومع البهائية اتضحت معالم هذه العقيدة الزائفة وكثرت مراجعها، وفيما يلي مزيد من التفاصيل عن البهائية.

عقيدة البهائيين:

تتلخص عقيدة البهائيين كما قررها البهاء في كتبه وألواحه، وكما فسرها دعائه في كتبهم ونشراتهم فيما يلي:

١ - الله ليس له أسماء ولا صفات ولا أفعال، وأن كل ما يضاف إليه من أسماء وصفات وأفعال هي رموز لأشخاص ممتازين قديما وحديثا هم مظاهر أمر الله ومهابط وحيه في زعمهم، وآخرهم وأكملهم هو ميرزا حسين المازندراني الذي لقب نفسه (بهاء الله).

٢ - بناء على ذلك يعد (بهاء الله) مظهر الله، فهو عند نفسه وعند أتباعه مظهر الله الأكمل، وهو الموعود، ومجيئه الساعة الكبرى، وقيامه القيامة، ورسالته البعث، والانتماء إليه الجنة، ومخالفته هي النار، وعندهم أن الديانات السابقة والأنبياء كانت مهمتهم التبشير به، وأن ظهوره هو ظهور جمال الله الأبهي، ومن أجل هذا كان أتباعه كلهم يدعونه (ربنا)، وهم بذلك يعترفون بالرسالات السابقة في حدود التبشير برسالة البهاء.

وفي ذلك يقول أبو الفضل الجرفادقاني (١): نحن معشر الأمة البهائية نعتقد بأن مظاهر أمر الله ومهابط وحيه هم بالحقيقة مظاهر جميع أسمائه وصفاته، ومطلع شمس آياته وبيئاته، لا تظهر صفة من صفات الله تعالى في الرتبة الأذلية إلا منهم، ولا يمكن إثبات نعت الجلالية والجمالية إلا بهم و (لا يعقل) إرجاع الضمائر والإشارات في نسبة (الأفعال) إلى الذات إلا إليهم لأن الذات الإلهية والحقيقة الربانية غيب في ذاتها، متعال عن الأوصاف بحقيقتها منزه عن النعوت بكيونيتها، لا تدركها العقول ولا تبلغ إليها الأفهام ولا تحويها الضمائر ولا تحيط بها المدارك، فلا توصف بوصف، ولا تسمى باسم ولا تشارك بإشارة، ولا نتعين بإرجاع ضمير، لكن منزع كل هذه هو المدارك الحسية وهي

(١) الدرر البهائية ص ٥٤ - ٥٦ (مطبعة الموسوعات ١٩٠٠).

فوق الإدراك، لأن كل مدرك محاط، وكل محاط محدود ذو وضع، وهذا من صفات الجسم والجسمانيات، تعالت عنه المجردات، فكيف الذات الإلهية والحقيقة النورانية. فكل ما توصف به ذات الله ويضاف ويسند إلى الله - من العزة، والعظمة، والقدرة، والقوة، والعلم، والحكمة، والإرادة، والمشئمة وغيرها من الأوصاف والنعوت - يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره (١) ومطالع نوره ومهابط وحيه ومواقع ظهوره. وقد رقت هذه المسألة من القلم الأعلى، مبينة مفصلة في ألواح ربنا الأبهي، فأظهر الله تعالى جواهر أسرارها في الصحف المطهرة ببيانه الأحلى (يقصد الكتب التي تنسب للبهاء وسنشير إليها فيما بعد).

٣ - يعتبر البهائية أن عقيدتهم أسمى من جميع العقائد والمراجع والأديان التي سبقتها لأن ظهور مظاهر الله في البهاء، أسمى وأعظم من ظهور هذه المظاهر فيمن سبقه من الأنبياء، وفيما يلي كلمات داعيتهم أو داهيتهم (٢). (اعلموا أضاء الله وجوهكم البهية بنوره الواضح، وأيد كلمتكم العالية بآيات اليسر والنجاح، أن هذه الأدلة والبراهين تثبت حقيقة مظهر أمر الله في زماننا هذا أكثر وأوضح، وأجلى مما كانت عليه حقيقة مظاهر أمر الله (أي الأنبياء) في الأزمنة السابقة.

(إن هذه البراهين قائمة ومتوفرة في هذا الظهور الأعظم الأسنى، والطلوع الأفخم الأبهي، ونعني به ظهور سيدنا (البهاء) جل اسمه وعز ذكره، أكثر مما توفر في ظهور من سبقه من الأنبياء، بحيث لو أنكر أحد هذا الظهور

(١) مظاهر أمر الله عند البهائيين هم برهما وبوذا وكونفوشيوس وإبراهيم وموسى والمسيح ومحمد والباب، فكانت مهمتهم في رسالاتهم التبشير بحسين على المازندراني الذي هو عندهم مظهر صفات الله كلها.

(٢) أبو الفضائل الحرفازقاني: الحجج البهية ص ٩٨ (مطبعة السعادة ١٩٢٥).

الأعظم، وأنكر أدلته وبراهينه الواضحة الجلية لا يمكنه إثبات حقية دين من الأديان الماضية.

٤ - ينكر البهائية إعجاز القرآن الكريم، وفي ذلك يقول أبو الفضل الجرفاوقاني (١): عد أكثر علماء الإسلام فصاحة القرآن حجة بالغة. وبلاغة كلامه معجزة دامغة، ولكننا فنلنا هذا الرأي في كتب عديدة، بما لم يبق شك فيه لأرباب البصائر والنظر.

٥ - من أعظم أدلتهم على إعجاز البهاء أنه مع ما صادفه منذ أول ظهوره من البلايا والمصائب الجسيمة، والدواهي العظيمة مما ليس هنا محل لذكره، ومع أنه لم يكن من أهل العلم، ولم يدخل المدارس العلمية، فقد ملأ الآفاق من ألواحه المقدسة الفارسية والعربية، مما لا نبالغ إذا قلنا أنها تزيد على ما عند ملل الأرض جميعا من كتبهم السماوية وصحفهم الإلهية.

كتب البهائية:

نسبت للبهاء عدة كتب يمكن أن نقول عنها بأنها في الحق ليست من عمل البهاء، وإنما وضعها أتباعه ونسبها إليه، وهناك مراجع أخرى مقدسة عندهم وضعها الاتباع شرحا لما نسب للبهاء، وتعليقا عليه، وأهم كتب البهائية هي:

١ - (الايقان) وقد طبع في القاهرة سنة ١٩٢٠ وعدد صفحاته ٢٠٠ صفحة ويعده البهائيون وحيا من ربهم البهاء، وقد قال عنه أبو الفضل سالف الذكر: إن إرادة حضرة المحبوب - لا زالت أقطار الأرض منورة بأنوار وجهه، ورياض العالم مزينة بأزهار أمره - قد تعلقت باتحاد كلمة أوليائه، وأمره المبرم قد نفذ باتفاق قلوب أحيائه، فعليك بالاغتراف من معين (الايقان) الذي جرى من قلم الرحمن هذه الأزمان، فإنه - مع وجاته - تبيان الزير

(١) الحجج البهية ص ١١٨ وما بعدها.

والألواح، ومترجم كتب الله فالق الاصباح، به فك ختم النبيين، وحل عقد إشارات السابقين، فابذل غاية الجهد والتدبر في هذا الكتاب المستطاب، ليلهمك الصواب في كل باب، واحفظ قلوب الأحباب عن نطاق الشك والارتياب إن (ربنا) لبالمرصاد، وهو ولينا في المبدأ والمعاد (١)). والعجيب إن هذا الكتاب يتنازعه البهاء وأخوه المخالف له يحيى المازندراني، وكل منهما يدعيه لنفسه، ويعلن أنه من وحيه. مجموعة الألواح:

ومما يسميه البهائيون وحيًا من ربهم البهاء، كتاب يسمونه (مجموعة الألواح المباركة) وهو مطبوع بأمر عبد البهاء في مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) وقد جاء في صفحة ١٦١ منه في لوح من ألواحه عنوانه (هو الناظر من أفاقه الأعلى) مخاطبًا شخصًا اسمه عبد الوهاب:

(يا وهاب، إذا اجتذبتك ندائي الأحلى، وصرير قلبي الأعلى، قل: إلهي، لك الحمد بما فتحت علي وجوه أوليائك أبواب الحكمة والعرفان... أي رب، أسألك بالذين أسرعوا إلى مقر الفداء شوقًا للقائك، وما منعتهم سطوة الأمراء عن التوجه إليك بما أنزلته في كتابك، ثم بالذين أقبلوا إلى أفقك بإذنك، وقاموا لدى باب عظمتك، وسمعوا ندائك، وشاهدوا أفق ظهورك، وطافوا حول إرادتك، أن تقدر لأوليائك ما يؤيدهم على ذكرك وثنائك وتبليغ أمرك. إنك أنت المقتدر على ما تشاء، لا إله إلا أنت الغفور الرحيم. يا قلبي الأعلى، بدل اللغة الفصحى باللغة النوراء).

وهذا الخطاب - وكثير غيره من أمثاله - مبني على أنها البهاء حسين علي المازندراني هو الله، وأنه لا إله إلا هو الغفور الرحيم المقتدر على ما يشاء. وإن أساس عقيدتهم أن الله ليس له وجود الآن بظهوره في مظهر البهاء. وكان

(١) أبو الفضل الجرفادقاني: مجموعة الرسائل، الرسالة الثانية ص ٣٦.

يظهر قبلا بمظاهر تافهة في الديانات السالفة، ولكنه بظهوره في البهاء الأبهى، بلغ الكمال الأعلى. وليس لله - عندهم كما ذكرنا من قبل - أسماء ولا صفات ولا أفعال، إلا ما يتصف به من صفات مظهره وهو البهاء، وما يصدر عن البهاء من أفعال إلهية.

٣ - كتاب (الشيخ) وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٩٢٠ من نسخة بخط عظيم من عظمائهم يسمونه (الزين) ولعله البهاء نفسه، فيكون (الزين) هو حرف الزاي مقتطعا من كلمة (مازندراني).

٤ - وللبهاء أيضا (الإشراقات)، و (البشارات)، و (الطرازات) وقد نشرت نماذج منها من كتاب (نبذة من تعاليم حضرة البهاء) المطبوعة في القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥).

٥ - كتب الداعية الذكي الذي يعد روح البهائية وواضع عقائدها ومفاسدها وكاتب كتبها ومراجعها وهو أبو الفضل (أو أبو الفضائل) الجرفادقاني وهي كتب عديدة كلها ضلالات وترهات، ومن أهمها: الدرر البهية، والحجج البهية، والفرائد، وفصل الخطاب (١).
ومن العجيب أن كثيرين من المشاهير في العالم العربي يعطفون على البهائية كما كانوا يعطفون على الماسونية والروتاري وهم مخدوعون بكلمات الإخاء والمساواة التي تخفي العداة للأديان والأوطان، ولعل هذا الحديث يصل إلى أيديهم ليعودوا إلى الرشاد.

-
- (١) اعتمدنا في التعريف بالبايية والبهائية على أكثر المراجع الرئيسية التي وردت في هذا البحث، واستعنا بالمراجع التالية التي كتبت عن البايية والبهائية.
١ - دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي مادة بايية ومادة نهائية.
ب - أبحاث الأستاذ محي الدين الخطيب التي نشرها في مجلة الأزهر.
ج - قصة العقائد للأستاذ سليمان مظهر.

ختام
لعل أحسن ما نختم به هذه الدراسة اقتباسات ننتقيها من كتاب (المسألة
اليهودية) الذي وضعه كارل ماركس. استمع إليه يقول:
- نحن نقر بأن ثمة في اليهودية عنصرا عاما مناهضا للمجتمع، وهو
عنصر دفع بالتطور التاريخي إلى نقطة الأوج في الزمن الحاضر، ولا بد
أن يأتي بعده الانحلال.
- يسعى اليهود إلى ما يسمونه تحرير اليهود، وما أحرى البشرية أن
تتحرر من اليهود.
- لقد تحرر اليهود فعلا ولكن على الطريقة اليهودية، فاليهودي
مثلا الذي لا يحسب له حساب في فينا هو الذي يقرر بقوته المالية مصير الدولة
كلها، واليهودي الذي قد يكون في أصغر المقاطعات الألمانية محروما من الحقوق
هو الذي يقرر مصير أوروبا.
- لقد تحرر اليهودي على الطريقة اليهودية، وليس فقط بأن أصبح سيد
السوق المالية، وإنما لأن المال أصبح بواسطته قوة عالمية، والروح العملية
اليهودية أصبحت الروح الملية للشعوب الأخرى (١):
- المال هو إله إسرائيل المطامع، وأمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش،
إن المال يخفض جميع آلهة البشر، ويحولها إلى سلعة، إن المال هو الجوهر الذي
يسيطر على الإنسان ويستعبده. لقد أصبح إله اليهود أيضا إلهًا للناس جميعا،
وهذا انتصار لليهود (٢).

(١) المسألة اليهودية لكارل ماركس ص ٥٦ - ٥٧ من الترجمة العربية.

(٢) المرجع السابق ص ٥٩.

- لقد انبثقت المسيحية من اليهودية، وقد انتهى بها الأمر إلى العودة إلى اليهودية.

- مرة أخرى ليس اليهودي هو الذي يسعى إلى التحرر من غير اليهود، وإنما المجتمع الإنساني هو الذي ينبغي عليه أن يسعى ليتحرر من اليهود (١).

وبعد، لقد فرض اليهود أنفسهم أو فرضهم الاستعمار على أرضنا العربية، وكان الدين وسيلتهم عند تنفيذ هذه المأساة، وحولنا - في إفريقيا وفي آسيا - يدور صراع طويل بين أديان الدعوة (وهي البوذية والمسيحية والإسلام) ولكن ذعر الاستعمار من الإسلام وخوفه منه جعله يحشد الجهود ضده، وقد استطاع الاستعمار أن يغطي نفسه بقناع مزيف أسماه المسيحية، وهو في الحقيقة بعيد عن مسيحية عيسى كل البعد، وتلاقى الاستعمار المسيحي مع اللادينية والالحاد في هذا المضمار، ثم لحقت اليهودية بهذا الجمع لتنال ما اعتاده الفكر اليهودي من كسب رخيص على حساب العرب والمسلمين، وعن طريق اليهودية اندفع لأرض المسلمين صور من الباطل والضلال باسم الباطية والبهائية والروتاري والماسونية.

ولكن ركب الحق سيسير، وسيتخطى العقبات، وينتصر على الباطل، وكل ما أرجوه أن يتعرف المسلمون على أعدائهم، وألا يخدعهم الطلاء الكاذب أو الاسم البراق على مسمى يحمل في طياته السم، ولعل في هذا البيان الذي سقته في هذا الكتاب وفي الكتب الأخرى من هذه السلسلة (سلسلة مقارنة الأديان) ما يدمغ هذا الباطل ويبعث شعاعاً من العلم والمعرفة لطلاب العلم والمعرفة.
والله الموفق.

(١) المسألة اليهودية ص ٤٦.